أحمد زكي

الحبُّ والزِنا

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

الكتاب:
الحب والزنا
المؤلف:
أحمد زكي
★★★
الغلاف:
محمد محمود
★★★
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★

المهندسين-23 شارع السودان—تقاطع مصدق-الدور الرابع—مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

أحمد زكي

الحب والزنا

دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع

"لا أريدُ أنْ أزني!"

رَفضتْ برِفقٍ كأنَّها تعتذرُ عن الاشتراكِ في رِحلةٍ. لمْ تغضبْ، أوْ تدَّعِ الغضب. لمْ تذرفْ دمعَ براءةٍ افتُئتَ عليْها. لمْ تتظاهرْ بأنَّها فُجِعتْ أوْ بأنَّ حياءَها ذُبحَ. لمْ تُردِّدْ ما يقالُ دائمًا ولا يعني شيئًا:

"لستُ من ذلكَ الصِنف. وَثِقتُ بكَ فظننتَ بي الظنون!"

ظلَّتْ حياةُ– كما تصِفُ نفسَها– موضوعيَّة.

لَهُما الآنَ تاريخٌ مجيدٌ مِن القُبَل. صارتْ القُبلُ قهوةَ الصباحِ التي لا يعتدِلُ مِزاجُهُ بدونِها. قبَّلها أكثرَ مِمَا قبَّلَ امرأتَهَ في عِقديْن. قبَّلَها أكثرَ من حاصلِ القُبلِ في عمرِه. أوَّلُ قبلةٍ ضربتْهُ كصاعقةٍ. كانَ يحدِّثُها وعيونُهما متعانقةٌ، ثم فجأةً اتَّسعتْ عيْناها أمامَهُ وسدَّتا الأفقَ، سحيقتيْنِ بلا قرارٍ. جَفَلَ من خَشيةِ أنْ ينزلقَ فيهما ويُغرَق. أدنى أناملَهُ من وجهِها كأنَّما لصدِّ هجمةِ عينيْها. حاولتْ اتِّقاءَ يدِهِ فوجدَ نفسَهُ يقتنصُ مِعصمَها الأبيضَ ويَلثُمُه. كمِمَصاتِ أخطبوطٍ التصقتْ شفتاهُ المُفْتَرَّتانِ بساعِدِها البَضِّ. احمرَّ وجهُها وراحتاها. احمرَّتْ كلُّها احمرارًا شديدًا. لا يتبادلُ الناسُ القبلَ عَفْوَ الخاطرِ، بلْ بعدَ اختمارٍ طويلٍ في اللا وعيٍّ وقرارٍ وانتظار. كأنَّما دُفِع كلٌّ منهما في ظهرِهِ نحوَ صاحبِهِ، حَطَّ فَمُهُ على فمِها كصقرٍ اقتنصَ أرنبًا، والتحمتْ الشفاةُ بالشفاةِ ولمْ

تُفلتْها. مِن همجيَّةِ القبلةِ وعمقِها ظلَّتْ أسنانُهُ تصطكُّ بأسنانِها. داخَ للحظـةٍ. ترنَّحَ. لمْ يترنَّحْ من قبلُ في قبلة. طعمُ قبلتِها كالشَهدِ، معسولةٌ حقًّا لا مَجازًا. شفتاها لدِنتانِ قويَّتان. كـلُّ مَـنْ قبَّـل عَـدَاها شـفاههنَّ طريَّـةٌ رَخـوةٌ كقناديـلِ البحرِ، تعتصرُها فتسيلُ كأنَّها فُقِئت. شفتاها كالمطاطِ تَعتـصِرُهما شـفتاهُ فـلا تُعتَصَران.

لمْ تطمئنْـهُ القُبـلُ. لا بُـدَّ مـنْ أنْ يـدخلَ جـسمَها ولا يخـرج. يحتلَّـهُ ولا يغادرُه. يتلبَّسَها كعِفريت. لا بُدَّ منْ التورُّط. لا بُدَّ منْ الغرق. لا بُدَّ منْ تقاسُمِ سِرٍّ مُهلِكٍ. لا بُدَّ منْ دفعِها- والمُضيِّ معَها- في الدربِ الذي لا رجعةَ منه.

"لوْ زنيتُ سأمقتُ نفسي!"

"ليسَ أمامَنا سوى ذلكَ الطريق. لا بُدَّ منْ أنْ أورِّطكِ معي وأتورَّطَ معكِ!"

لمْ يتعسفْ في اقتناصِ مـبرراتٍ لمـا يورِّطهـا ويتـورطُ بـه. المـسألةُ ليـستْ مسألةَ صوابٍ وخطأ، أوْ حقٍّ وباطل. حينَ تحبُّ إنسانًا ويحبُّـك لا بُـدَّ مـنْ أنْ تفكَّ أسْرَهُ، لا بُدَّ منْ أنْ تخطفَهُ من آسِرِهِ، لا بُدَّ من أنْ تنتشلَهُ من صقيعِ موتِ القلبِ وتطيرَ بِهِ إلى دِفءِ القلبِ الحيِّ. مسئوليتُكَ نحوَ مَـنْ تحـبُّ: الإنقـاذ. قُبِلتْ المبرراتُ أوْ لمْ تُقبلْ- بشريًّا أوْ سماويًّا- سـوفَ ينقـذُها. سـوفَ يحـرقُ الجسورَ بيْنها وبينَ ما خلَّفتهُ وراءَهـا. سـوفَ يـصبحُ رجلَهـا. الحيـاةُ دائمًـا

تطرحُ هذا الاختيارَ وحدَهُ: إيذاءُ الآخرينَ أوْ إيـذاءُ الـنفسِ، ومـن الحمـقِ أنْ تختارَ إيذاءَ نفسِكَ، من الحمقِ ألَّا تتصرفَ بأنانيَّة. لا بأسَ بـأنْ يـسلُكَ المـرءُ سلوكًا أنانيًّا إذا كانَ مصيرُهُ على المَحَكِّ. الفلسفاتُ التسلطيَّةُ وحدُها هي الـتي تحثُّ الناسَ على تناسي ذواتِهم. إنْ كانَ من الحقـارةِ أنْ يخطِـفَ حيـاةَ فإنَّـهُ فخورٌ بحقارتِه. كانَ لدى الآخرِ سنينٌ وسنينٌ ولمْ يُفلِحْ في احـتلالِ قلبِهـا. لمْ يُفلِحْ حتى في اجتيازِ عتبتِه. لعلَّهُ لمْ يحاولْ أصلًا طـرقَ البـابِ، أوْ لعلَّـهُ مـن أولئكَ الذينَ ليسَ بوسعِ أحدٍ أنْ يُسكنَهم قلبَه. لا بُدَّ من تحطيمِ السلاسلِ التي توثقُ حيـاةَ بزوجِهـا، ومـا لمْ تـتحطمْ سـوفَ تعـودُ آخـرَ المطـافِ إلى بيْتِهـا وتنساهُ، أوْ تذكرُهُ كحبِّها الثاني الذي تجاوزتْه. حكتْ لهُ عن حـبٍّ أوَّلَ لقـيَ ذلكَ المصير.

لمْ تُسفِّهْ حياةُ حديثَهُ الصادِمَ. فهمتْهُ، وعلى نحوِ مـا قدَّرتْـه. لمْ تحـسبْهُ مكرًا– ليسَ مكرًا– بلْ صدَّقتْه. صـدقتْ أنَّـهُ اسـتغاثةُ غريـقٍ، وهـوَ غريـقٌ في العشقِ وفي الـدنيا، وهـي مثلُـهُ، كلاهُمـا غريـقٌ، وسـوفَ ينقـذُها وتنقـذُه أوْ يهلكُها وتهلكُه.   قد يكونُ حمقًا وجنونًا، لكنَّ العاشقَ يـؤمنُ بمعـشوقِهِ كـأنَّ كلامَهُ وَحْيٌ، ويثِقُ بهِ كأنَّهُ عِشرةُ عمْرٍ، ويأتمنُهُ على رقبتِهِ حتى لوْ كانَ لَقيَهُ منذُ يوم.

لا تبدو حياةُ لعوبًا بلْ محرومةً. لا تبـدو شـهوانيَّةً بـلْ لمْ تُـشبَع. لـيسَ حتمًا أنَّ جسدَها لمْ يُشبَعْ، بـلْ روحَهـا. روحُهـا جـوعى مثـلُ روحِـه. إنَّهـا مكبوتةٌ. عواطفها جيَّاشةٌ وانفعالاتها فيَّاضةٌ، لكنَّ ذلكَ النهرَ الهـادِرَ يـرتطمُ بسَدٍّ من الصخرِ لا شكَّ في أنَّهُ الرجلُ الباردُ الذي فرَّتْ منه. لمْ تفرَّ مـن مكـانٍ كما زعمتْ بلْ من زوج. كلَّما أتى ذِكـرُ زوجِهـا انقـشعتْ ابتـسامتُها واخـتلجَ وجهُها كأنَّها صُفِعتْ، ثم تظلُّ كئيبةً شاردةً ما بقيَتْ. تمقتُهُ وتأبى التـصريحَ بمقتِهِ، بلْ لا تذكرُهُ إلَّا بخيرٍ زاعمةً أنَّهُ لمْ يُؤذِها يومًا. في الصورِ يبدو وديعًـا باسمًا. لعلَّهُ مطيعٌ لا يعصى لهـا أمـرًا أخبرتْـهُ أنَّهـا مخنوقـةٌ ولا بُـدَّ مـنْ أنْ ترحلَ فأشفقَ عليْها وتركَها رغمَ شقائهِ برحيلِها. لعلَّهُ ضحَّى– لا بهـا– بـلْ بنفسِه. لعلَّها أثمنُ عندهُ حتَّى من سعادتِه بقربِها. بلْ لعلَّهما طيِّبانِ كلاهما، وهوَ الغاصِبُ الُمغَرِّر.

* * *

أوَّلُ الرحيلِ كانَ منْ أجلِ امرأتِهِ وعيالِه. ثم فِكاكًا من امرأتِهِ وعيالِه. ثـم اتقاءَ وطنٍ ما أنْ يطأَ أرضَهُ حتى يعاني حسرةَ أنَّ نفيسًا يُهدَرُ: الوقتُ؟ المـالُ؟ الكرامةُ؟ العقلُ؟ كلُّ ذلك؟ ثم صارَ الرجوعُ للوطنِ مرعبًـا كـأنَّ حكمًـا بإعدامَـه ينتظرُهُ، رغمَ أنَّ الُمكْثَ في المنفى مُذِلٌّ كأنَّ آلافَ الأحذيةِ تنهالُ فوقَ رأسِه. ثم

حينَ طالَ النفيُ كَفَّ عن عدِّ السنين. ما عادَ يأبـهُ بأسمـاءِ الأيَّـام. الأيَّـامُ كـان بعضُها للفرحِ، والبعضُ ليسَ للفرحِ. الأعيادُ كانت أيَّامَ فرحٍ. ثم كفَّت الأعيادُ عن أنْ تكونَ أيَّامَ فرحٍ. صارت الأيَّامُ كلُّها غيرَ مُفرحةٍ. الإجازةُ في الـوطنِ بـيْنَ عيالِه يمقتُها. كلَما دنى موعدُها هَلَعَ. فإذا حلَّتْ قضاها في تـوترٍ لـيقينٍ بأنَّـهُ على سفر. في أيَّامِها الأخيرةِ– قبيلَ الرحيلِ– لا يكفُّ عن البكاءِ سِرًّا حسرةً عليْها رغمَ أنَّهُ لا يريدُ أنْ يبقى.

في الليلةِ الأولى لعودتِهِ يضطجعُ بأمِّ العيالِ وهـي مُجْفِلـةٌ مُـسْبَلَةُ الجفـونِ كعذراءٍ في ليلةِ العُرسِ تخشى الألم. متشنجةً يابسةً فإذا غـشيَها ذابـتْ، ثـم أفلتَ عَنانُ جسدِها في عصبيَّةٍ ووحشيَّةٍ كتَمساحٍ أطبـقَ فَكَّيْـهِ علـى رأسِ ثـورٍ. لولا الفياجرا للَطَمَا الخدودَ سويًّا، الفياجرا مع استحضارِ صـورةِ زَنجيَّـةٍ ذاتِ ثديينِ نافرينِ على شكلِ ثمرتيْ مانجو عملاقتيْنِ من النـوعِ الملتـوي طرفُـهُ إلى أعلى مثلُ سِنَّارة. زَنجيَّةٍ لا بطـنَ لهـا، يلـتحمُ ثـدياها بردفيْهـا عـبرَ خَـصْرٍ مُسْتَدَقٍّ.

لكنْ ما أنْ ترتوي عروقُ امرأتِهِ حتى تفيقَ وتتنمرَ. تمطرُهُ بالـشكاوى مـن العيال. تتهمُهُ بالتخلِّي عنها وعن أبنائهِ والهربِ بعيدًا عن الصداع. يفشلُ في إقناعِها بأنَّهُ الضحيةُ التي حُرِمـتْ الأهـلَ والـوطنَ. تـصِرُّ علـى أنَّهـا وحـدَها

الـضحيةُ ولا ضـحيةَ سِـواها. ضـحَّت بـشبابِها وعمرِهـا ورُدَّ إليْهـا الجميـلُ جحودًا. بالجاحدينَ لا تعني العيالَ وحدَهم، هوَ قبـلَ العيـالِ فالكـلُّ عـصابةٌ واحدةٌ هـو رئيـسُها. يلتهـبُ العتـابُ إلى شِجار، وتكـادُ تلتهمُـهُ كالأرملـةِ السوداء. حتى الرِضا الذي اعتادَ أنْ يحـسَّهُ بُعَيْـدَ إخـضاعِها مؤقتًـا بـالجنسِ العنيفِ– جنسِ الفياجرا– زهدَ فيه. من المستحيلِ أنْ تحـبَّ شخـصًا بعـدَ أنْ تكرهَه. قدْ تكرهُ شخصًا بعدَ أنْ أحببتَه، لكنْ لـيسَ بوسـعِك أنْ تحـبَّ أحـدًا بعدَ أنْ تكرهَهُ، وما أنْ تكرهَ لنْ يثمِرَ الزمانُ إلا مزيدًا من الكُـره. يُـستغرَقُ في حمَّامٍ مطوَّلٍ محاولًا نسيانَ أنَّهُ موجودٌ، وأنَّ تلكَ المرأةَ موجودةٌ.

قُبيلَ الرحيلِ يُغْرَق في ارتخـاءٍ لا بُـرْءَ منـهُ، ولا تجـدي معـهُ فيـاجرا أوْ زِعنفةُ قِرشٍ أوْ قرنُ خِرتيت.

* * *

وحيدًا يمضي إلى منفاهُ حيثُ تنهشُهُ مخاوفُ الكهلِ الوحيدِ: ماذا لوْ سقطَ في غيبوبةٍ؟ ماذا لوْ شُلَّ؟ ماذا لوْ ماتَ والأبـوابُ موصـدةٌ ولمْ يُنبِّـهْ إليْـهِ سِوى فَواحِ نتنِ جثَّتِه؟ حينَ لا تكونُ وحيدًا لا تفكرُ في الموتِ، وحينَ تكـونُ وحيـدًا لا تفكرُ إلَّا في الموت. ليسَ فزعُ الموتِ بـلْ فوضـاهُ وقبحُـهُ وغثيانُنـا منـهُ ومـن المُقعَدينَ وطُرَحاءِ الفراشِ والجثثِ، ومحاولةُ إيهامِ أنفسِنا بـأنَّ مَـنْ نُكِبـوا أوْ ماتوا فعلوا شيئًا جَلَبَ موتَهم أوْ نكبتَهم، أمَّا الموتُ بوصفِهِ انعدامًا فقد يكـونُ

النجاةَ الوحيدةَ المحتملةَ مِمَا هوَ فيهِ من سُخرةٍ واسترقاق.

حينَ يمضي إلى منفاهُ يبدأُ في الشكِّ في وجودِه. لا بُدَّ مِن أنْ تَلمَسَ وتُلمسَ كيْ تطمئنَّ إلى أنَّكَ موجود. حينَ لا تَلمسُ ولا تُلمسُ لا تدري إنْ كانت روحُكَ فارقتْ جسدَك أمْ ما زالتْ بهِ. عدمُ اللمسِ عقابُ المنفيينَ، يُعتبرون أشباحًا، ويُضاعَفُ العقابُ إذا كنتَ كهلًا فتُعامَلُ لا كأنَّكَ شبحٌ بلْ كأنَّكَ عَدَم.

هلْ ضاعَ العمرُ؟ يقينًا ضاعَ والآتي أسوأُ: أشتِيَةُ الشيخوخةِ وثلوجُها. لكنْ أكانَ العمرُ المُضاعُ جديرًا بأنْ يُصان؟ ألهُ معنى؟ وما معناه؟ لا معنى ولا غاية. جَدْبٌ وخَواء. ألا فلتسقطْ آخرُ أوارقِهِ الذابلةِ كيْ نغادرَ المهزلة!

الأغرارُ يدعونَ اللهَ أن تمرُقَ أعوامُ المنفى كالضوءِ، غيرَ مُدركين أنَّها العمرُ وبمُضيِّها يمضي، وأخيرًا يؤوبونَ للوطنِ لا ليحيَوْا بلْ ليوارَوْا الثرى، ما لمْ يَحُلْ موتُهم ودفنُهم غرباءَ حتَّى دونَ عودةِ الجسد.

مَنْ لا يجدونَ مَنْ يكلِّمونهُ يكلِّمونَ أنفسَهم. ما أنْ يبلغَ منفاهُ حتَّى يستأنفَ تكليمَ نفسِهِ، وكثيرًا ما يُنشِدُها شعرًا. يحفظُ جَمهرةً من الشعرِ منذُ صِباه. حفِظها دونَ أنْ يتعمدَ حفظَها. القصائدُ المدهشةُ تحفرُ نفسَها عميقًا في لوحِ الذاكرة. لا شكَّ في أنَّ روحَ شاعرٍ قديمٍ تلبَّستْهُ، روحَ شاعرٍ متأخِّرٍ لأنَّها تحفظُ أشعارَ المُتقدمين. يُنشِد:

لَيْتَ لِلبَرَّاقِ عَيْنًا فَتَرَى

مَا أُقَاسِي مِنْ بَلَاءٍ وَعَنَا!

رغمَ أنَّ البَّراقَ ليسَ ابنُ عمِّهِ– بلْ ابنُ عمِّ ليلى العفيفةِ– ولنْ يحرِّكَ ساكنًا حتى لوْ رآهُ يُجلَد.

لا يكلِّمُ نفسَهُ إلَّا بصوتٍ مسموعٍ كأنَّها لا تطَّلعُ على ما يفكرُ فيهِ صامتًا، أوْ لنْ تنصتَ لهُ ما لمْ يرفعْ عَقيرتَه. يكلِّمُها بنبرةِ الناصحِ والطالبِ للنُصحِ، العاتبِ والمُشجِّعِ، المُؤدِّبِ والمُغوي، المُعجَبِ والساخرِ، بلْ وأحيانًا الشامت. لا يصلُ معها إلى وِفاقٍ لأنَّها عنيدةٌ وغيرُ ناضجةٍ ولا تستفيدُ من أخطائها بلْ تكابرُ زاعمةً أنَّها لمْ تُخطئ.

"لا بُدَّ منْ أنْ يضحيَ أحدٌ: أنا!"

"هُراء! لِمَ لا بُدَّ منْ أنْ يضحيَ أحدٌ؟! من حقِّ كلِّ البشرِ ألَّا يضحوا!"

"لكنَّ الوطنَ أدارَ لنا ظهرَه. الدنيا أدارتْ ظهرَها. لا أحدَ يحفلُ إذا عشنا أوْ متنا. أنا نفسي لا أحفلُ إن عشتُ أوْ مت!"

في البدءِ كان يقولُ إنَّ كلَّ شيءٍ وفيرٌ في المنفى سِوى البهجةِ، البهجةُ معدومةٌ. وفي الوطنِ كلَّ شيءٍ شحيحٌ، غيرَ أنَّ البهجةَ حيَّةٌ نابضةٌ. الآنَ الوطنُ في كابوس. الوطنُ غَمٌّ مطلَق. في الوطنِ تنتزِعُ لقمتَكَ من فمِ غيْرِك. ذلكَ مآلُ وطنٍ

اغتصبَهُ سِفْلَةٌ.

يَسُوسُونَ الأُمُورَ بِغَيْرِ عَقْلٍ

فَيَنْفُذُ أَمْرُهُم، وَيُقَالُ: سَاسَةْ

فَأُفَّ مِنَ الحَيَاةِ، وَأُفَّ مِنِّي

وَمِنْ زَمَنٍ رِئَاسَتُهُ نَجَاسَةْ!

مَا يُغريهِ بالتطلُّعِ إلى أيِّ مستقبلٍ ولوْ وَجيزٍ، حلمُ بيْتٍ يريدُ أنْ يبنيَهِ ويغترسَ من حولِهِ حديقةً يضطجعُ فيها بيْنَ الأزهارِ تحتَ الأشجار. لقد زَللَ العقبةَ الكبرى بالفعلِ وابتاعَ الأرضَ. لمْ يمتلكْ بيتًا من قبل. لمْ يعِشْ سِوى في شُقَقٍ مُستأجرةٍ. حينَ تتفتَّحُ أوَّلُ زهرةٍ في الحديقةِ سوفَ يتغيَّرُ كلُّ شيء. سوفَ يتغيَّرُ الحاضرُ والمستقبلُ، وحتَّى الماضي.

* * *

حينَ لمحَها أوَّلَ مرَّةٍ أيقنَ بأنَّ ملحمةً سوفَ تُسْطَر في عينيْها. سوفَ يُغرِقُ الأرضَ سيلٌ أحمرُ من دمِ القلوبِ النازفة. الجمالُ يقترنُ دائمًا بالرعبِ– قالَ ريلكه– غيرَ أنَّهُ لمْ يرَ تصديقًا لذلكَ الزعمِ

إلَّا حينَ رأى حياة. إنَّها مرعبة!

وجهٌ مضيءٌ بذاتِهِ مثلُ مصباحٍ، مُشِعٌّ بقوَّةٍ هائلةٍ إلى حدِّ أنَّ التحديقَ فيهِ

مؤلمٌ ولا يسعُ العينَ في حضرتِهِ سِوى الإغضاء. ليستْ امرأةً من الدنيا، إنَّها حوريةٌ من المرمر. مُتْرَعَةٌ بالأنوثةِ، فيَّاضةٌ بالإغواء. أشهى ما يُشتهى. بَتْشَبَعُ، لا يتردَّدُ الرجلُ في قتلِ أخيهِ للظفرِ بها.

لمْ تُبدِ توتُّرَ الوافدينَ وقلقَهم. بَدَتْ شاردةَ الذهنِ في شُموخٍ، مثلَ ملكةٍ راسخةٍ فوقَ عرشٍ، مثلَ كليوباترا- تلكَ التي رَسَمَها ديلاكروا- بوجهِها البيضاويِّ الكبيرِ وعينيْها العميقتيْنِ وشعرِها الفاحمِ فوقَ جبينٍ وضَّاء:

لَهَا فِي طَرْفِهَا لَحْظَاتُ حَتْفٍ

تُمِيتُ بِهَا، وَتُحْيِي مَنْ تُرِيدُ

وَإِنْ غَضِبَتْ رَأَيْتَ النَاسَ هَلْكَى

وَإِنْ رَضِيَتْ فَأَرْواحٌ تَعُودُ

هُرِعُ الرفاقُ وتدافعوا كُلٌّ يقيءُ شهامتَهُ الريفيَّةَ عندَ قدميْها، الشهامةَ الدَبقةَ التي يتصيَّدُ بها الريفيُّونَ نساءَ جيرانِهم. استفحلَ سُعارُهم حينَ علِموا أنَّها خلَّفتْ رجلَها وراءَها. حتى لوْ حضرَ معها أسدٌ ما كانَ ليردعَهم وهيَ بهذهِ الفتنةِ، لكنَّ غيابَ الزوجِ أهاجَهم بجنونٍ وبَثَّ جرأةً وتهوُّرًا حتى في قلوبِ أجبنِهم فتوافدوا مطمئنِّينَ دونَ أنْ يتلفَّتوا يُمنةً ويُسرة.

منذُ يومِها الأوَّلِ انخرطوا- دونَ تآمرٍ أوْ تنسيقٍ- في حملةٍ غيْرِ مُقدَّسةٍ

لإغوائها. منهم مَنْ يتنهَّدُ حينَ تمرُّ بهِ، ومنهم مَنْ يسيلُ جفنيْهِ وهو يحدِّثُها، ومنهم مَنْ يرفعُ حاجبًا، ومنهم مَنْ يغمِزُ بعيْنٍ، ومنهم مَنْ يضغطُ راحتَهُ نحوَ قلبِهِ، ومنهم مَنْ يعضُّ شفتَهُ: كلُّ ألوانِ المثيراتِ الحركيَّةِ واللفظيَّةِ، وأسلحةِ لغةِ الجسدِ الراقيةِ والهابطةِ أُلقيَ بها.

غيرَ أنَّهُ لمْ يهاجمْ مع المهاجمينَ، لنفورٍ من المليحاتِ وما يجلبنَهُ منْ إحَنٍ وصراعٍ أيْنما حَلَلْنَ. رفاقُهُ الأغرارُ يظنُّونَ الآنَ أنَّهم يغوونها وهي التي تغويهم. تغويهم حتى دونَ أنْ تحاولَ إغواءَهم، حتى دونَ أنْ تفطِنَ إلى أنَّها أغوَتْهم. سوفَ يوهِمُ كلٌّ منهم نفسَهُ بأنَّهُ صيَّادٌ وما هوَ إلَّا فريسة. حتى مَنْ يصلُ إليْها سوفَ يحترقُ كمَنْ لمسَ الشمس.

الشأنُ بائسٌ ومشؤومٌ، فلِمَ العذاب؟ حتى لوْ كانت بلا زوجٍ، امرأةٌ كهذهِ لا تُمتلَكُ، والأفجعُ أنَّكَ لوْ ذقتَ وَصلَها لنْ تطيقَ فِراقَها، وهي مفارِقةٌ مفارِقةٌ: مِثلُها لا يَقَرُّ ولا يبقى. إنَّها في أوَّلِ

أمرِها وآخرِهِ حسرة. تجاهَلَها لا لتلتفتَ إليْهِ، بلْ صادقَ النيَّةِ ألَّا يتقاطعَ درباهما تفادِيًا للهَلَكة. لا بُدَّ من أنْ يدافعَ عن سكينةِ نفسِه. إنَّهُ راضٍ بانعتاقِهِ معَ الكهولةِ من سَطوَةِ حوَّاء. أخيرًا فقدَ شَبَقَهُ: لا شبقَ لا عبوديَّة!

أجلْ، هيهاتِ أنْ يُغرروا بها. سوف يعشقونَها حقًّا وصدقًا- كلُّهم-

جارِعينَ في عشقِها حسراتٍ. سوف يعشقونَها عشقَهم الحياةِ تصديقًا لاسمِها: حياة.

* * *

لا يطيقُ غيابَها. أعذبُ ما في يومِه. في الصباحِ قهوتُه. في المساءِ نبيذُه. كانَ– حينَ يفزعُه مُنبِّهُ الصباحِ مُدعِيًا أنَّه يوقظُهُ– يقفزُ من فراشِهِ متذمِّرًا ويُهرَع إلى الشارعِ كأنَّهُ يفِرُّ من قنبلة. الآنَ صوتُ المُنبِّهِ أجراسٌ من الكريستالِ تبشِّرُه بمَطلعِ يومِ عيد. سوفَ تدخلُ عليْهِ وتسلِّمُ. صوتُها طفوليٌّ. أمتعُ من تغريدِ بُلبلٍ. يعلمُ أنَّها هيَ من قبلِ أنْ يراها لأنَّ المكانَ يضيُ من قبلِ أنْ تطأَ عتبتَه. ليستْ شيئًا مِما ظنَّ. ليستْ ملكةً بلْ فلَّاحةً. ليستْ مُغرِّرَةً بلْ غريرةً. ليستْ امرأةً بلْ طفلةً. سألتْهُ كما يسألُ الأطفالُ:

"هلْ تحبُّ الشتاءَ أمْ الصيْف؟"

"أيَّ شتاءٍ؟ وأيَّ صيْف؟"

"شتاءَ الوطنِ وصيْفَه"

"ما عُدْتُ أذكرُ!.. وأنتِ هلْ تحبِّينَ الربيعَ أمْ الخريف؟"

"أكرهُ الربيع!"

"لا أحدَ يكرهُ الربيع!"

"أنا أمقتُهُ لأنَّهُ يصيبُني بأزماتِ ربْو"

"لا تبدينَ مثلَ مَنْ يعانونَ الربو!"

"وكيفَ يبدون؟"

بُوغِتَ. يا لَهُ من سؤال! حاولَ أنْ يتذكَّرَ كيفَ يبدونَ..

"تعساءً.."

"لوْ أنَّ التعاسةَ سِرُّها الربْوُ فلا شكَّ في أنَّ البشرَ موبوءونَ بهِ!"

"رأيُّكِ أنَّ البشرَ تعساء؟"

"أسوأُ: أشقياء!"

"لمْ أتخيَّلْ أنَّ مثلَكِ متشائمةٌ"

"مثلي كيف؟"

"حسناءَ مثلَك"

لمْ تبتهجْ لوصفِها بالحُسنِ..

"لستُ حسناء"

نَفَتْ بصرامةٍ كأنَّها تدفعُ تهمةً..

"أنتِ أجملُ مَنْ رأيتُ!"

الآنَ أيقنتْ بأنَّهُ غزلٌ. دُهشِتْ. الغـزلُ آخـرُ مـا توقَّعـتْ منـه. تجاهلـتْ الغزلَ ومضتْ تحاوِرُ:

"أشقى صديقاتي حِسانٌ"

"يا للعجبِ!"

"ولِمَ العجبُ؟ الحسنُ سوءُ حظٍّ"

"أنتِ أسوأُ النساءِ حظًّا إذنْ!"

احمرَّ وجهُها: هذه المرَّةَ نالَ منها. تماسكتْ متظاهرةً بعدمِ الفهمِ.

"كلَّا لستُ أتعسَهنَّ.."

"رجلُكِ الذي خلَّفتِهِ هناكَ، ألا يحزنَهُ غيابُك؟"

"لعلَّهُ لا يكترِثُ!"

"يقينًا يكترثُ، لكنْ ألمْ يعترضْ؟"

"مَنْ قالَ إنَّه لمْ يعترض؟!"

"حاولَ منعَك؟"

"حاولَ كثيرًا، ثم أذعنَ في النهايةِ بعد أنْ أيقن بأنِّي مخنوقة"

"مخنوقة؟!"

"شعرتُ بأنَّ كلَّ ما حولي يخنِقُني.."

"لعلَّكِ فررتِ من حبٍّ؟"

"ليسَ من حبٍّ بلْ من مكانٍ.."

"لكنْ ليسَ من رجلٍ؟"

"لي صديقٌ فررتُ منهُ أيضًا، صديقٌ وحسب.."

"مَنْ يقالُ إنَّهُ صديقٌ وحسبُ لا يكونُ أبدًا صديقًا وحسب!"

"في حالتي ليسَ أكثرَ من صديق"

"وهلْ اعترضَ الصديقُ أيضًا على سفرِك؟"

"كلاهما كانَ رافضًا سفري.."

"إنَّهُ مَنْ يتصلُ يوميًّا بكِ، الصديق؟"

"صديقاتي أيضًا يتصلنَّ.."

"ماذا يقولُ لكِ؟"

"يقولُ إنَّهُ ما عادَ يطيقُ الحياةَ منذُ رحلتُ!"

"هوَ حبيبُكِ إذنْ؟"

"أجلْ، يحبُّني.."

"هلْ صارحَكِ بحبِّه؟"

"أجلْ.."

"وهلْ تحبِّينه؟"

"قلتُ لكَ إنَّهُ صديق.."

"وماذا قلتِ لهُ هوَ؟"

"ماذا قلتُ لهُ متى؟"

"حينَ باحَ لكِ بحبِّه؟"

"قلتُ إنَّهُ صديق"

"واستسلمَ؟"

"لمْ يستسلمْ، حَاوَلَ، غير أنِّي أكدَّتُ لهُ أنَّني لا أشعرُ بمثلِ ما يشعرُ بهِ"

"لكنَّ أساريرَك تتهلَّلُ حينَ تسمعينَ صوتَهُ، أحيانًا ألمحُكَ"

"ما أدراكَ بأنَّهُ هوَ؟"

"أعرفُ كيفَ يضيءُ وجهُ مَنْ تكلِّمُ حبيبًا"

"يضيءُ حينَ أسمعُ صوتَ طفلتي. إنَّهُ وجهُ أمٍّ لا عاشقة!"

"هلْ يعلمُ زوجُكِ بصديقِك؟"

"يعلمُ ويكرهُهُ.."

"ألا يغارُ؟"

"يتمنَّى موتَه.."

"تهوينَ اللعبَ بالنار!"

"كلَّا"

"أنتِ بريئةٌ إذنْ إلى حدِّ السذاجة!"

"أنا حقًّا بريئة"

* * *

أنْ تبوحَ لامرأةٍ بحبِّكِ فتبادلَكَ البوْحَ في جرأةٍ وحسمٍ، دونَ مواربةٍ أوْ تَمَنُّعٍ:

"أحبُّكِ!"

"وأنا أحبُّكَ!"

معجزةٌ مرعبة!

معَ الحبِّ يولدُ الخوفُ، توأمُه..

"لِمَ أحببتِني، لا أجدُ في نفسي ما يُحَبُّ؟"

"عيناكَ صادقتان!"

"قدْ أكونُ كاذبًا محترفًا!"

"إحساسي لا يكذِبُني!"

"لمْ أعشقْ قبلَكِ وأنا في حيْرةٍ، بـلْ في رُعـب. لا أصـدِّقُ أنَّ المعجـزةَ سـوفَ تدومُ، إنَّها حلمٌ سأُوقظُ منه!"

"لَمْ تعشقْ قبلي؟!"

"يقينًا لمْ أعشقْ"

"ألا يُقالُ هذا دائمًا؟"

"يُقالُ مبالغةً، يقولونَ: لمْ يكنْ حبًّا ما توهَّمتُ من قبلِكِ أنَّـهُ حـبٌّ. لكـنَّ مأساتي أنَّني لمْ أحبْ حقًّا من قبلُ، ولمْ أتوهمْ أنَّني أحبُّ، بلْ لمْ أقـلْ لامـرأةٍ إنِّي أحبُّها"

"كيفَ كنتُ تغوي النساءَ إذنْ؟"

"كانت الأمورُ تجري في مجراها الطبيعيِّ"

"لديَّ اعترافٌ.."

غاصَ قلبُه..

"لقد أحببتُ مِنْ قبلُ.. مرَّة.."

كَفَّ قلبُهُ عن الخفقانِ، واعتصرتْهُ قبضةٌ حديديَّة..

"ثمَّ؟"

"تزوَّجتُ وتزوَّجَ ونسيْنا.."

"حبُّكِ الأوَّل؟"

"أجلْ.."

"الحبُّ الأوَّلُ لا يُنسى"

"لمْ أكنْ لأحبَّكَ لوْ لمْ أنسَ"

"ولماذا لمْ يتزوَّجْكِ؟"

"كنتُ مخطوبةً لزوجي، وكانَ طالبًا فقيرًا ليسَ بوسعِهِ الزواجُ"

"كنتِ مخطوبةً لزوجِكِ وأحببتِ؟!"

"كانَ حبًّا نقيًّا ليسَ كالحبِّ الذي ببالِكَ، حبًّا كحبِّ الأطفال"

"لكنْ لِمَ أحببتِ وأنتِ مخطوبة؟!"

"لِمَ أحببتُ؟! ليسَ في الحبِّ اختيار"

"ذلك الرجلُ لا يستحقُّ أنْ تذكريهِ: لمْ يحبّكِ حقًّا. كلُّ مَنْ يتسلَّوْنَ يقولونَ إنَّهم فقراء"

"رُبَّما.."

"هلْ قبَّلكِ، حبُّكِ الأوَّلُ؟"

"قلتُ لكَ لمْ يكنْ ذلكَ النوعَ من الحبِّ يا مجنون!"

* * *

"لأجلِكَ سأفعلُ!"

أخرسَ هذا الحسمُ جَدَلَهُ مع نفسِه. قُضيَ الأمرُ. أرادَ أنْ يقطعَ الجسورَ بيْنَها وبيْنَ مَنْ قبلَهُ فقطعتْ هي الجسورَ بيْنَه وبيْنَ نفسِه. حتَّى اللحظةِ الأخيرةِ ظنَّ أنَّها سترفض. كانَ الرفضُ ليريحَه. سيحزنُهُ ويغضبُهُ، لكنْ سيريحُه. أجلْ انتشى بأنَّ لهُ عليْها السلطانَ الذي جعلَها تلبِّي مطلبَهُ الوَعرَ، غيرَ أنَّ التنفيذَ مرعبٌ كالقفزِ في بئر.

"لا يبدو عليكَ الفرحُ!"

تبدو مصرَّةً على التنفيذِ كأنَّ الفكرةَ فكرتُها.

"إنِّي أسعدُ ما يكون.."

في شبابِهِ كانَ فحلًا، وبالفياجرا يعودُ فحلًا مؤقَّتًا. لكنَّ فحولةَ الفياجرا لا تفرحُهُ، بلْ يشعرُ وكأنَّهُ مُزِّيفُ نَقْد. مع الفياجرا لا يستمتعُ. يحسُّ أنَّهُ روبوتٌ مُبرمجٌ على الإيلاجِ، أوْ كأنَّ قضيبَهُ ليسَ قضيبَهُ بلْ خشبةً غُرِستْ في عانتِه!

انهمكَ في وضعِ سيناريو محمومٍ للقاء. في وقتٍ تموتُ فيهِ الشوارعُ سوفَ تتسلَّلُ إلى شقَّتِه. بلا كلماتٍ أوْ قبلاتٍ سوفَ يحملُها حملًا ويجلسُها فوقَ المنضدة. نازعًا سِترَها الأخيرَ حاملًا ساقيْها فوقَ كتفيْهِ، سوفَ يجذبُها نحوَهُ بأعتى عزمٍ ويخترقُها عنيفًا وعميقًا. لا بُدّ من أنْ يتمَّ كلُّ ذلكَ في لحظةٍ لكيْ تُبهرَ، وفي قسوةٍ لكيْ تصرخَ. لنْ يعبأَ بصُراخِها بلْ سيدُكُّها ويدُكُّها بغِلِّ مَنْ يثأرُ!

ابتياعُ الفياجرا من أمقتِ الأمور. رغمَ أنَّ الكلَّ يدمنونَها- بما في ذلكَ الصيدليُّ الذي تشتري منهُ- يتفحَّصُكَ الصيدليُّ خِلسةً لاستبيانِ أيِّ الرجليْنِ أنتَ. زبونُ الفياجرا إمَّا زوجٌ مرتخٍ أوْ عشيقٌ ينشدُ الإبهار. ظلَّ يمشي مبتعدًا عن سكنِهِ ما وسعَهُ البعدُ، وانتظرَ حتى خلتْ الصيدليَّةُ مؤقَّتًا منَ الزبائنِ، ثمَّ قالَ لنفسِهِ إنَّ الأمرَ ليسَ محرجًا، ودفعَ البابَ وطلبَ علبةَ فياجرا.   سألَهُ الصيدليُّ:

"علبةً واحدة؟"

"واحدةً بالطبعِ، هلْ يحتاجُ أحدٌ إلى أكثرَ من علبة؟"

"أهلُ الديارِ يشترونَ أربعًا بأربعٍ"

"يَخزنونَها؟"

"بلْ يستهلكونَ علبةً كلَّ مرَّة!"

مرَّةٌ تعني مرَّةً، وعلبةٌ تعني أربعةَ حبّات. ابتسمَ بالرغمِ من ندمِهِ على فتحِ مثلِ هذا الحوارِ مع ابنِ جِلدَتِه. في وُدٍّ استطردَ الصيدليُّ:

"لا شكَّ في أنَّنا التقيْنا من قبل. أينَ تعمل؟"

كانَ للندمِ مبرِّرُه. دسَّ العلبةَ في جيبِه:

"لا تسألْ زبونَ فياجرا أيْنَ يعمل!"

بدأ تناولَ الفياجرا قبلَ يومٍ من موعدِ حياة. قبلَ حضورِها بساعةٍ ابتلعَ حبَّة. لمْ يتركْ شيئًا للصدف. لا بُدَّ من أنْ ينحتَ في لحمِها تاريخًا يحفظُهُ جسدُها كتراثٍ مقدَّس. إنَّها غزوتُهُ الأخيرةُ، آخرُ إبحارٍ لقاربِهِ الرَثِّ بعدَهُ يتفسَّخُ ألواحًا مُبعثرةً.

رَنَّ الموبايل. أخبرتْهُ أنَّها بصددِ أنْ تدخلَ البنايةَ وتصعد. هَلِع. نسي السيناريو المحمومَ والحرثَ الشرس. سيطرَ عليْهِ هاجسٌ واحدٌ: هلْ إنْ أفلحتْ في التسلُّلِ إلى الشقَّةِ دونَ أنْ تُضبطَ سوفَ تفلِحُ بعدئذٍ في الإفلاتِ منها؟ شلَّهُ الرعبُ، لا إشفاقًا على نفسِهِ بلْ على حياة. لقد جرَّها إلى هذا الجنونِ واللعبِ بالنارِ رغمَ يقينِهِ بأنَّ الفضيحةَ- إن ضُبطا- سوفَ تدمِّرُها. لنْ تصمدَ أعصابُها لمثلِ هذهِ الفضيحةِ، سوفَ تنتحرُ. إنَّ نظراتِ الناسِ فقطْ تخنقُها،

فما بالكَ بهذا الكابوسِ المروِّع؟!

الكابوسُ الحقُّ هوَ ارتخاؤه مثلُ خِرقة. ظلَّ يسائلُ نفسَهُ: كيفَ وأنا مُفعمٌ بالفياجرا؟!

قرأتْ أفكارَهُ فقالت:

"أنتَ مخضوض!"

"مخضوض؟"

"خائف.."

"لستُ خائفًا.. أحتاجُ لحظة.."

قالَ لنفسِهِ: ومنْ الذي لا يُذعرُ في هذا الموقف؟!

في محاولةٍ يائسةٍ لنفخِ الروحِ فيهِ ألقتْ ثيابَها أرضًا وأقبلتْ نحوَهُ عاريةً كما ولدتْها أمُّها:

"ماذا تريدُني أنْ أفعلَ؟"

انقلبَ هلعُهُ إلى رعب. انكمشَ المُتهدِّلُ إلى أعلى وكادَ أنْ يختفي.

* * *

أيقنَ بأنَّها سوفَ تلفِظُه. يا للسخريةِ: أرادَ أنْ يوثقَها بهِ فنفرَّها منهُ، وصارَ بينهما ثأرُ أنثى أُوقدِتْ ولمْ تُطفأ. قالتْ وهيَ تلبسُ:

"فلنصبرْ حتَّى نلتقيَ في الوطن.."

أجلْ إنَّ حبَّه مضطرمٌ، لكنَّ روحَهُ هيَ التي خَبَتْ. الآنَ حياةُ تمقتُهُ– لا شكَّ في أنَّها تمقتُهُ وتحتقرُهُ– وتودُّ من غيظِها أنْ تخنقَه. لقد قامرتْ برأسِها من أجلِ إحباطٍ مُزْرٍ. من أجلِ فاشلٍ ميئوسٍ منه. في اليومِ التالي لمْ تزرْ مكتبَه. توقعَ ذلكَ وتفهَّمَه فما زالتْ الصفعةُ ساخنةً، لكنْ هلْ سوفَ يبردُ جامُ غيْظِها بعدَ حينٍ أمْ سوفَ تلعنُهُ إلى الأبدِ؟ أمْ– ما دامَ أيقظ شيطانَ شهوتِها وقفزَ بها فوقَ المحاذيرِ– سوفُ تجدُ منْ يروي ظمأَها ولا يخذلُها؟ ذلكَ الخاطرُ الأخيرُ جعلَهُ يحسُّ بأنَّ رأسَهُ سوفَ ينفجرُ.

لكنَّها ما لبثتْ أنْ أتتْ في اليومِ الثاني وسألتْهُ عن حالِه.

"لا تكرهيني، أتوسَّلُ إليْك!"

"ولماذا أكرهُك؟"

"خيَّبتُ أملَك.."

"لمْ يكنْ ما ببالِكَ أملي، فعلتُ ما فعلتُ لأطمئنَكَ"

"لكنِّي الآنَ ضائعٌ، لا بُدَّ من أنْ تتمِّي جميلَكِ: سأنتظرُكِ الليلةَ"

"محالٌ، لقد متُ في جلدي في الصعودِ والنزول. كادَ قلبي يكفُّ عن النبض. لنْ أضعَ نفسي في ذلكَ الرعبِ مجدَّدًا!"

"أتوسَّلُ إليكِ..إنَّني في هوَّةٍ سحيقةٍ من اليأس!"

"اصبرْ حتَّى نعود. هنا سوفَ يتكرَّرُ الفشلُ. أعصابُكَ لا تطيقُ تلكَ المخاطرة!"

"يئستِ منِّي؟!"

"بلْ يقيني أنَّكَ طبيعيٌّ"

طبيعيٌّ! طعنَهُ هذا الوصفُ في صميمِ كبريائه. إنَّها تطمئنُهُ كما يُطَمْأنُ الأطفال. هذا الوصفُ المهينُ: طبيعيٌّ.. شبهُ طبيعيٍّ.. مألوفٌ.. عاديٌّ.. غيرُ مُبهرٍ.. لا يُلتفتُ لهُ..

"لا بُدَّ من أنْ تأتي.. لا بُدَّ من أنْ أثبتَ لكِ.."

"ليسَ عليكَ إثباتُ شيءٍ. هذا الأمرُ لا يهمُّ. ليسَ لأجلِهِ نحبُّ، ولا يقدِّمُ أوْ يؤخِّرُ حينَ نحبُّ"

"يبقى إذنْ أنْ أستردَّ احترامَ النفس. أصبحتُ لا أطيقُ نفسي، إنِّي في كابوسٍ، في جحيم!"

* * *

هذهِ المرَّةَ- هذهِ الفرصةَ الأخيرةَ- لا بُدَّ ألَّا يعبأَ بالخطر. أنْ ينساه. يُضبطا أوْ لا يُضبطا سِيَّانِ لأنَّهُ إنْ أخفقَ هذهِ المرَّةَ ضائعٌ ضائع. لا إبهارَ هذهِ المرَّةَ ولا

عنف. الوصولُ وحسب. لنْ يشغلَ بالَهُ بإرضائها فالفشلُ نتيجةٌ محتَّمةٌ لوْ ظلَّ هاجسُ الرجلِ أنْ يُرضى عنه. لا عجلةَ أيضًا هـذهِ المـرَّةَ: في العجلـةِ الندامـةُ. سوفَ يمتِّعُ نفسَهُ بها على نهجِ امرِئِ القيْسِ في المتعةِ المتأنِّيةِ برغمِ الخطر.

وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤهَا

تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلِ

تَجَاوَزْتُ أحْرَاسًا إلَيْهَا وَمَعْشَرًا

عَلَيَّ حِرَاصًا لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلِي

فَجِئتُ وَقَدْ نَضَّتْ لِنَوْمٍ ثِيَابَهَا

لَدَى السِتْرِ إلَّا لِبْسَةَ الْمُتَفَضِّلِ

فَقَالَتْ: يَمِينَ اللهِ مَا لَكَ حِيلَةٌ

وَمَا إنْ أَرَى عَنْكَ الغَوَايَةَ تَنْجَلِي!

للوهلةِ الأولى ظنَّ أنَّهُ لنْ يجدَه- بعيدُ المنالِ كعيْنِ ماءٍ خفيَّـةٍ- لكـنْ مـا أنْ شارفَهُ حتى التقمتْهُ كوليدٍ ملهوفٍ يلتقمُ ثديًا. أديمَ أيِّ جنةٍ يطأُ الآنَ بعـدَ أنْ وَلَجَ من ذلكَ البرزخِ الصعبِ؟ وهـلْ فُرِشـتْ مُخملًـا أمْ حريـرًا؟ طَوَّقـهُ دَهليـزٌ مُدَغْدِغٌ رعَّاشٌ نابضٌ، كلُّ خطوةٍ مُسكِرةٌ مُكهربةٌ مُحيِّرَة.

تأوهاتُها منتظمةٌ كدقَّاتِ ساعةٍ. هامسةٌ خافتةٌ. لا تخورُ كبقرةٍ ولا تشخرُ

كقردٍ. ارتعاشاتُها رقيقةٌ ناعمة. لا تتلوَّى كقُرموطٍ في شبكةٍ ولا تتخـبَّطُ كبطَّـةٍ ذبيحةٍ. لا صخبَ ولا تشنُّجَ بـلْ موسـيقى وباليـه. الـدانوبُ الأزرق. سـوناتةُ ضوءِ القمر. ليستْ تشايكوفسكي بلْ شوبان. ليستْ السيمفونيةَ الخامـسةَ بـلْ السادسة. ليستْ أمَّ كلثومٍ بلْ ليلى مراد.

"لا بُدَّ من أنْ أدخلَ الحمام!"

"ماذا؟!"

"أحسُّ بحاجةٍ مُلِحَّة!"

"اصبري!"

"لا أستطيع!"

خشى إنْ خرجَ ألَّا يجدَ طريقَ العودةِ، لكنْ كانَ عليْهِ أنْ يدعَها تذهب.

"لمْ يحدثْ ذلكَ من قبلُ: أحِسُّ بنار!" قالت وفي عينيْها دهـشةٌ باسمـة. فَمُها فَمُ طفلةٍ بأسنانِ أرنب. إنَّ عمرَها أصغرُ كثيرًا مِمَا ظنَّ.

قبَّلَتْهُ قبلةً مُمتدَّةً، طويلةً جدًّا ضاغطةً جدًّا. حـينَ أعتقـتْ شـفتيْهِ أخـيرًا وتراجعتْ تتأملُـهُ وتـسوِّي شعرَهُ، تأملـها للمـرَّةِ الأولى على مَهَـل. بَهْتَـهُ وجهُها ناصعُ البياضِ ذاتيُّ الإشعاعِ كالشمس. ليسَ بوسعِ العـيْنِ التحـديقُ في هذا الوجهِ دونَ أنْ تدمعَ. خدَّاها الأسيلانِ، كتفاها المستديرانِ، كفَّاها البضَّانِ،

أعضاؤها الغضَّةُ الريَّانةُ. رَبيلةٌ مثلُ الأطفالِ المترفينَ الذينَ يلتهمونَ الحلوى طيلةَ اليوم. بيضاءُ تسرُّ الناظرينَ بياضًا صافيًا كالحليبِ. مُدَملَجَةٌ جسيمةٌ كمُستحِمَّاتِ رينوار. مرمريَّةٌ ملساءُ كتماثيلِ رودان. طفلةٌ كالشيروبيمَ المنقوشينَ بسقوفِ الكاتدرائيَّات. يافعةٌ كعذراءِ دافنشي. مِلءُ العيْنِ فخيمةٌ كديانا لاتور. كلُّ خليَّةٍ في بَدَنِها تنضَحُ صِبا وخِصبًا. أغمضَ عينيْهِ وتحسَّسَ وجهَها. تحسَّسَ كتفيْها وذراعيْها. انزلقتْ أناملُهُ لا يعوقُها عائقٌ، تعلو وتهبطُ بسلاسةِ المُتزلِّجِ على الموْج. ملاستُها ليسَ مثلَها شيءٌ. لوْ شُبِّهَ جسمُها قد يُشَبُّهُ بالمرمرِ. المرمرِ لا الرخام. الرخامُ ميِّتٌ والمرمرُ حيٌّ، باردٌ والمرمرُ دافئٌ، معتمٌ والمرمرُ وَضَّاءٌ.

انخرَطَ فورَ انصرافِها في نشيجٍ عالٍ تتخلَّلُهُ سعلاتٌ متشنِّجةٌ. راحَ يغمغمُ اعتذارًا إلى الرجلِ الذي سلبَه. اعتذرَ بأنَّهُ يحبُّ حياةَ ولا يلهو بها. بأنَّها حبُّهُ الأوَّلُ والأوحدُ. غيرَ أنَّهُ لمْ يصدِّقْ أنَّ ذلكَ عذرٌ، أوْ أنَّهُ يُجدي. لا عذرَ لهُ ولا كفَّارة، فلِمَ النفاقُ؟! لعلَ فشلَ اللقاءِ الأوَّلِ كانَ صرخةَ بقيَّةٍ من ضميرٍ تنهاهُ عن الولوغِ في هذا الوحل. لكنَّهُ أصرَّ. تعامى عن التحذيرِ وولَغَ. وحياةٌ، ما أبشعَ إجرامَهُ بحقِّها؟! لقدْ دنَّسَها. دَمَّرَها. حينَ تختلي بنفسِها وتفيقُ سوفَ تندمُ وتلعنُه.

تَعِبْتُ فِي تَنَهُّدِي. أُعَوِّمُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ سَرِيْرِي، بِدُمُوعِي أُذَوِّبُ فِرَاشِي. سَاخَتْ مِنَ الغَمِّ عَيْنِي. ابْعِدُوا عَنِّي يَا جَمِيعَ فَاعِلِي الإِثْم. لِأَنَّ اللهَ سَمِعَ صَوْتَ بُكَائِي..

قاطعَ عويلَهُ رنينُ الموبايل: "حبيبي اطمئنْ، أنا في غرفتي الآن.."

النصرُ والفرحُ يقطرانِ من صوتِها النَشوان. لا حزنَ ولا بكاء. يقينًا لا ندم.

* * *

برغمِ ابتهاجِها السافرِ- تبدو مشرقةً كالشمسِ- وعملًا بالمُتَّبَعِ عقبَ المرَّةِ الأولى قالَ حينَ لقيَها في الصباح:

"لا تندمي!"

"هلْ أنتَ نادمٌ؟"

"بلْ فخورٌ، ليسَ في حياتي أنبلُ من حبِّك!"

"لِمَ ظننتَ أنِّي سأندمُ؟"

"عَقِبَ ذلكَ الأمرِ قدْ تتصارعُ في القلبِ مشاعرُ متضاربةٌ أحدُها الندمُ"

قالتْ بسخريةٍ:

"أجلْ ندِمتُ لبشاعةِ الجُرم!"

"ليسَ جُرمًا: سوفَ نتزوَّجُ!"

"نتزوَّجُ للتكفيرِ عن خطيئتِنا!"

"بلْ كيْ نظلَّ معًا ولا يفرِّقَنا شيء"

"كنْ واقعيًّا!"

"العادةُ أنَّ النساءَ رومانسيَّاتٌ والرجالُ واقعيُّون"

"بلْ النساءُ واقعيَّاتٌ، لكنَّكَ لا تعرفُ النساء!"

"ألا يسعِدُكِ أنْ نتزوَّجَ؟"

"يَا لكَ منْ حالمٍ، أنسيتَ أنَّ لكَ زوجةً ولي زوجًا؟!"

"الزواجُ مودَّةٌ ورحمةٌ، وما من امرأةٍ بيني وبينَها ذلكَ سِواكِ!"

"لنْ يعترفَ العالمُ بهذا المنطق!"

"سُحقًا للعالمِ!"

"وزوجتُكَ؟ وزوجي؟"

"لوْ عشقتُكِ في الوطنِ لما حاولتُ انتزاعَكِ من رجلِكِ، بلْ لَما بُحتُ لكِ أصلًا بمكنونِ قلبي، لكنْ الآنَ بعدَ أنْ صرتِ لي لنْ أتنازلَ عنك"

"لوْ أحبَّبتَني في الوطنِ كنتَ لتدعَني وشأني؟ ما أوهى حبَّكَ، اجترأتَ هنا لأنِّي بلا رجل!"

"في الوطنِ كنَّا لنكبتَ مشاعرَنا، لكنَّنا هنا تحتَ ضغطٍ ساحق.."

"إذنْ تظنُّني استجبتُ لكَ لأنِّي مَشوْقةٌ محرومة. شهوانيَّةٌ لمْ تـصبرْ علـى الحرمانِ فَزَنَتْ: هذا هوَ الضغطُ الذي حسبتَهُ سَحَقَني!"

"لمْ تحبِّيني وأنتِ في حضنِ زوجِكِ بلْ في الغربة.."

"كمْ تستخفُّ بحبِّي وتُحقِّرُه! هلْ توهَّمتَ أنَّـني أحببتُـكَ لأنِّـي وحيـدةٌ، ولمْ أكنْ لأحبَّكَ لوْ التقينا في الوطنِ حيـثُ أبيْـتُ في حـضنِ زوجـي؟ أزمـتي في نظرِكَ إذنْ خَواءٌ أسـدَّه. كلَّـا أيُّهـا المحلِّـلُ النابغـةُ، لمْ أُحيبْـكَ لأنِّـي غريبـةٌ محرومةٌ ولا حضنَ يضمُّني. لوْ كانَ لقاؤنا الأوَّلُ في الوطنِ كنتُ سأحبُّكَ. لكـن يبدو أنَّكَ ما أحببْتَني إلَّا لأنَّكَ غريبٌ محروم. لـستُ في عينيْـكَ سِوى حاجـةٍ تُقضى!"

النساءُ لا يقدِمنَ على أيِّ فعلٍ– حتَّى الزنا– إلا عنْ يقينٍ وقناعةٍ مُطلقـيْن. إنَّ اختياراتِهنَّ لا تشوبُها ذرَّةٌ من نفاقٍ أوْ خداعِ نفس. هذا ما قالتْهُ حيـاةُ وإنْ لمْ تقُلْهُ بنفسِ النصِّ.

لكنْ أهناكَ قناعةٌ مطلقةٌ؟! أهناكَ يقينٌ؟ ليْتَ أنَّ هناكَ يقينًا! هذا ما قالَـهُ لنفسِه.

* * *

خَلا ذلكَ البكاءِ الأوَّلِ لمْ يبكِ. عَدا ذاكَ الاعتذارِ الأوَّلِ لمْ يعتذرْ. النحيبُ والعويل. لطمُ الخدود وتمزيـقُ الـشعور. إهالـةُ الـترابِ فـوقَ الـرؤوس. نطحُ

الصخرِ لإدماءِ الجباه. دعِ الندمَ لَمَنْ يؤمنونَ بـأنَّ الإنـسانَ مـذنبٌ ابـنُ مـذنبٍ، وينبغـي لـهُ أنْ يعـانيَ الدونيَّـةَ والعـارَ، ولا ينـشغلَ بـشيءٍ سِوى الـتكفيرِ والاعتذار. سوفَ يستمتعُ باللحظةِ دونَ إفسادِ متعتِهـا بمحاكمتِهـا. إنْ كـانَ سرقَ حياةَ فليسَ ذلكَ سِوى مـا نفعلُـهُ بالحيـاةِ وتفعلُـهُ بنـا: نـسرِقُها مِمَـنْ سبقونا، ويسرِقُها اللاحقونَ منَّا.

لمْ يخونا أحدًا، الخيانةُ أنْ نخونَ مَنْ نحبُّ. كانَ قلباهمـا خـاوييْنِ حـينَ التقيا، لمْ يخونا أحدًا لأنَّهما لمْ يحبَّا قبلَ هذا الحـبِّ. مـا عـادَ يـشكُّ في أنَّـهُ صاحبُ حقٍّ وليسَ سالِبًا. السالبُ هوَ المستولي قهرًا، ولا ينطبقُ هذا عليهِ بـلْ على الثالث. زوجُها هوَ الثالثُ، الدخيلُ، الطارئُ، العَرَضيُّ- وبلغةِ الفلسفةِ: كونتينجانت- أمَّا هوَ وحياةُ فضروريَّان. لمْ يسرِقْها من زوجِها بلْ زوجُها هوَ الذي سرقَها منه. لوْ أُمْكِنَ من ذلكَ الرجلِ لقتلَهُ، حتَّى لوْ وجدَهُ أطيبَ الناس. انقلبَ الاعتذارُ إلى احتقار.. وتقزُّز.. تقززٍ حتَّى الغثيان.

بَكَى زَوْجُ مَيٍّ أَنْ أُنِيْخَتْ قَلَائِصٌ
إِلَى بَيْتِ مَيٍّ آخِرَ اللَّيْلِ طُلَّحُ
فَمُتْ كَمَدًا يَا بَعْلَ مَيٍّ فَإِنَّهَا
قُلُوْبٌ لِمَيٍّ آمِنُو العَيْبِ نُصَّحُ

فَلَوْ تَرَكُوْهَا وَالخِيَارَ تَخَيَّرَتْ

فَمَا مِثْلُ مَيٍّ عِنْدَ مِثْلِكَ يَصْلُحُ

رَدَّهُ سحرُ حياةَ إلى طفولةٍ عاطفيَّةٍ، إلى أنانيَّةِ الأطفالِ واستهتارِهم وعدمِ اكتراثِهم بالمحاذيرِ. فالطفلُ يفعلُ ما يروقُ لهُ، ويسرقُ ما يحلو في عينيْهِ لا مبالٍ بأنَّ ما سرقَهُ ملكُ الغيْر. ما من رجلٍ يعرفُهُ قد يتردَّدُ لحظةً في أخذِ حياة. لنْ يفلسفَ أحدٌ أخذَها أوْ يعتذرَ عنهُ أوْ يندمَ عليْهِ، ولنْ يأسى أحدٌ على رجلِها أوْ يشفقَ عليْهِ أوْ حتَّى يتذكَّرَه. روعةُ حياةٍ تبيحُ المحظوراتِ وتسقطُ المحاذير. مَا يُتورَّعُ عنهُ معَ سِواها فضيلةٌ واجبةٌ معها. التواجدُ في محيطِها يحسِمُ مصيرَكَ: ماذا يحدثُ للمرءِ إنْ دنا من مُحرِّكٍ نفَّاثٍ، ألا يُشفطُ؟ وهلْ بوسعِ أحدٍ تفادي ذلكَ الشفْطِ؟

حينَ يطالعُ وجهَهُ في المرآةِ يجِدُهُ دائمَ الابتسامِ بعدَ أنْ كانت الجهامة مُحفورةً في قسماتِه. إنَّهُ مُنتشٍ كالمخمورِ وليسَ بمخمورٍ، بلْ كلُّ حواسِهِ أُشبعتْ ببَذَخ. البصرُ والسمعُ والشمُّ واللمسُ والذوقُ كلُّها دُلِلتْ وأُجزِلَ لها العطاء. قَبْلَها عاشَ جاهلًا بما حُرِمَهُ، متوهِّمًا أنَّ ما منحتْهُ نساؤهُ البخيلاتُ هو أقصى ما في طاقةِ الحبِّ أنْ يمنحَهُ، حتَّى ذاقَ حبَّها الرائعَ فأبصرتْ عيناه. ما أروعَ طعمَ الحسناءِ في البصرِ واللمسِ والشمِّ والسمعِ والذَوْقِ، واللعنةُ

على الناصحينَ بدميمةٍ طائعةٍ: تذهبُ الطاعةُ مع الأيامِ ويبقى القبحُ!

رأسُه يدُكُّهُ الصداعُ دكًّا إلى أنْ تأتيَ ويقبِّلَها. كلُّ همِّهِ الآنَ في الحياةِ القُبَل. يتعاطاها بلهفةِ محرومٍ من هيروينه. إنَّها هيروينُهُ الآنَ لا قهوتُه. في الأفلامِ الأسودِ والأبيضِ يقبِّلونَ ولا يضاجِعون. قُبَلُ العشَّاقِ أروعُ لذَّاتِ الأفلامِ القديمةِ، وهوَ قديمٌ.

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا عَذْبَةَ الرِيقِ أَنَّنِي

أظلُّ إذا لَمْ أُسْقَ رِيقَكِ صَادِيَا؟!

ذلكَ اللقاءُ الذي حفِظَ ماءَ وجهِهِ كانَ الأَّوَّلَ والأخير. لمْ يضاجِعْها بعدَه. لا هوَ سألَها أنْ تتسللَ إليْهِ مُجدَّدًا، ولا هيَ ألمحتْ إلى رغبتِها في زيارةٍ جديدة. أرضاهُ أنَّهما تورَّطا معًا ولمْ يبقَ لأيٍّ منهما إلَّا صاحبُهُ الذي خانَ من أجلِه. قُطِع طريقُ العودةِ عليْها وعليْهِ، ولولا أنَّ الطريقَ كانَ لا بُدَّ من أنْ يُقطعَ لقَنَعَ بقبلِها الرائعةِ وعدَّ نفسَهُ الأسعدَ بيْنَ الرجال. غيرَ أنَّ القبلَ لا تورِّطُ ولا توثِقُ مصيرًا بمصيرٍ، أمَّا الحدثُ الأكبرُ فيختِمُ على المصائر.

"لديَّ اعتراف.."

غاصَ قلبُهُ مُجدَّدًا. كلَّما تأهَّبتْ لاعترافٍ غاصَ قلبُه.

"اعترافٌ سيسعدُكَ: لمْ أحبْ قبلَك. ما توهَّمتُ أنَّهُ حبِّي الأوَّلُ لمْ يكنْ

حبًّا لأنِّي لمْ أكنْ ذُقتُ الحبَّ. إنَّني مثلُكَ عاشقةٌ لأوَّلِ مرَّة. أنتَ حبِّي الأوَّل!"

"يا للعذوبةِ، ليتني أموتُ قبلَ أنْ يتبدَّلَ قلبُكِ! عِدِيني بشيءٍ: لوْ ماتَ حبِّي في قلبِكِ لا تُخبريني!"

"أعِدُكَ بألَّا أخبرَك!"

"ولا تهجريني مهما كرهتِني، سوفَ أجنُّ أوْ أنتحرُ!"

"لنْ أهجرَكَ أبدًا سوفَ ترى"

"كمْ الحيِّزُ الذي أمتلِكُهُ في قلبِكِ؟"

"ربعُه!"

"ربعُهُ فقط؟! ما عادَ بقلبي موضعٌ لسِواكِ"

"النساءُ أكثرُ إنصافًا وموضوعيَّةً: ربعٌ لابنتي، وربعٌ لأمِّي، وربعٌ لك.."

"والربعُ الرابعُ؟"

"لنفسِي"

"حتَّى لوْ فقدتُ ذلكَ الربعَ في قلبِكِ لا تهجريني!"

"لوْ فقدتَهُ سأهجرُكَ، لكنَّكَ لنْ تفقدَه!"

"حتَّى لوْ لمْ نلتقِ بعدَ اليومِ سوفَ أحبُّكِ، حتَّى لوْ نسيتِني، حتَّى لوْ كرهتِني. كلُّ مَنْ حولي بلا روحٍ سِواكِ، إنِّني سجينٌ في قبوِ مصاصي دماء!"

"ماذا لوْ لمْ تنقَمْ على زواجِكَ قبلَ أنْ تلقاني؟"

"كنتُ سأحبُّكِ نفسَ الحبِّ، لكنْ كنتُ سأحترمُ عهدَ زواجي"

"وزواجي أنا، لِمَ لمْ تحترِمْ عهدَه؟!"

"ليسَ خافيًا أنَّكِ تمقتينَ زوجَك"

"لمْ أقلْ إنِّي أمقتُه!"

"وجهُكِ يمتقِعُ كلما أتى ذِكرُه"

"ألا يطيبُ لكَ سِوى أنْ أشوهَهُ التماسًا لعذرٍ؟! ألا يكفي حبُّنا عذرًا؟! إنَّهُ طيِّبٌ، وامرأتُكَ طيِّبة"

" لكنَّنا تعيسانِ حتَّى لوْ كانا طيببْنِ لأنَّنا لا نحبُّهما، ولنْ نحبَّهما. إنَّهما كابوسُ عمرِنا. أهناكَ أشقى وأذلُّ من عَشرة مَنْ لا نُطيق؟!"

* * *

معَ الأيَّامِ انتبهَ إلى ما تفعلُهُ حياةُ: إنَّها تجبرُ نفسَها على حِميةٍ لا شكَّ قاسيةٍ لأنَّها فقدتْ وزنًا كبيرًا في بضعةِ أسابيع. لمْ تكنْ حياةُ يومًا نحيفةً- يعلمُ ذلكَ من صوَّرِها التي أطلعتْهُ عليها- مِمَا يدلُّ على أنَّ الرشاقةَ لمْ تصبحْ هاجسَها إلَّا الآنَ بعدَ أنْ أحبَّتْ.

"صِرتِ نحيفةً!"

"لنْ أصيرَ أبدًا نحيفةً، زوجتُكَ نحيفةٌ.."

"لأنَّ دَمَها مُسَمَّمٌ. هلْ تتبعينَ حِميَةً، أمْ النحافةُ بفضلِ الحبِّ؟"

"لا شأنَ للحبِّ بذلكَ، أتبعُ حِميَةً"

"من أجلي؟"

"مِن أجلِ نفسي، ألا يحقُّ لي أنْ أبدوَ أفضلَ لنفسي؟"

"بَلْ من أجلي!"

"أجلْ من أجلِكَ. تأبى أنْ تدعَ لي أيَّ أسرارٍ والمرأةُ تحبُّ أنْ يكونَ لها أسرارٌ. سِرٌّ واحدٌ على الأقل!"

"لا أفهمُ النساءَ، ولنْ أفهمَهن!"

"لا نفهمُ أنفسَنا، فكيفَ تطمعُ في فهمِنا؟!"

"لا تجوِّعي نفسَكِ من أجلي فأنا أحبُّ السِمان!"

"من أيِّ عصرٍ أنت؟"

"لستُ من أيِّ عصرٍ: أنا شبحٌ، غيرَ أنَّ السمينةَ ظلَّتْ مثالَ الجمالِ في كلِّ العصور"

حقًّا، لا ينتفخنَ على هذا النحوِ إلَّا لفيْضِ ما بهنَّ من هورموناتِ أنوثةٍ وأمومةٍ، وهذا الفيْضُ يجعلُهنَّ طيِّباتٍ ودافئات. فينوسُ فيليندورف- أقدمُ

المنحوتاتِ الباقيةِ- انتفاخُها متعمَّدٌ وليسَ مرجِعُهُ إلى إهمالِ النحَّاتِ أوْ انعدامِ موهبتِهِ، بلْ من الجَليِّ أنَّهُ موهوبٌ ومتمكِّنٌ غيرَ أنَّهُ جسَّدَ مثالَ عصرِهِ الأسمى في الأنوثةِ مُتخمةِ الثدييْنِ والرِدفيْنِ إلى حدِّ الانفجار- ثدييْنِ ورِدفيْنِ باذخيْنِ خُلقا أوَّلًا ثمَّ من أجلِهما أُضيفَ الجسدُ- تلكَ خصوبةٌ تلقِحُ من الهواءِ، وهذا هوَ المراد.

"إلَّا في عصرِنا. لكنَّكَ تفضِّلُني سمينةً كيْلا ينظرَ إليَّ أحدٌ!"

"خطرَ لي ذلكَ أيضًا"

"أنانيٌّ!"

"اكتفيتُ بالتمنِّي، بعضُ العشاقِ شوَّهوا عشيقاتِهم بأيديهم كيْ يُنفِّروا منهنَّ الرجال"

"لا أستبعدُ عليكَ أيَّ شيءٍ!"

"المذهلُ أنَّ العشيقاتِ رأيْنَ في ذلكَ بُرهانًا دامغًا على الحبِّ"

"لوْ فعلَ بي رجلٌ ذلكَ لقطعتُ يدَه!"

ما كانت لتقطعَ يدَ أحدٍ. إنَّها عاجزةٌ عن الشرِّ. لا يخطرُ ببالِها الانتقامُ حتَّى مِمَنْ آذوْها، ولا تغضبُ غضبًا دائمًا، ولا تضمِرُ حقدًا، ولا تذكرُ الناسَ إلَّا بالخير. إنَّها مَلاكهُ، الإنصافُ الذي أُنصِفَهُ في آخرِ العمرِ، وبرغمِ إبطاءِ

الإنصافِ يرى نفسَهُ محظوظًا إذْ قدْ يعيشُ المرءُ ويموتُ مَغبونًا ولا يُنصَف.

لكنَّهُ يدركُ أنَّ مثلَهُ كمثلِ ذلكَ الثعلبِ الجائعِ الذي تسلَّلَ إلى حديقةٍ عبرَ ثُغرةٍ في سورِها، وملأَ جوفَهُ بفاكهتِها ثم أرادَ أنْ يخرجَ منها فلمْ يفلِحْ لأنَّ بطنَهُ المُنتفخَ لمْ يمرَّ من الثُغرةِ، واضطُرَّ إلى المكوثِ في الحديقةِ حتَّى جاعَ ثانيةً وضمرَ بطنُهُ فغادرَها جائعًا كما دخلَها. آجلًا أوْ عاجلًا سوفَ ترحلُ حياة. مُحتَّمٌ أنْ يأتيَ يومٌ تنقطِعُ فيهِ أخبارُها عنهُ، وأخبارُهُ عنها، فلا يعلمُ أيٌّ منهما ما ألمَّ بصاحبِه. المأساةُ أنَّ هذهِ الجنَّةَ المسروقةَ هشَّةٌ وزائلة.

أَلَا كُلُّ شيءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ

وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائلُ

لكنَّ ذلكَ ليسَ رأيَ حياة. إنَّها تنفي وجودَ مأساةٍ، وتقترحُ حلًّا بوذيًّا عويصًا على معدتِه:

"لوْ طمِعَ أيٌّ منَّا في امتلاكِ الآخرِ على أيِّ نحوٍ سوفَ نرهنُ حبَّنا بنزواتِ الزمن. لكنْ إذا لمْ نطمعْ سوفَ يصمدُ حبُّنا لأعاصيرِ القدر. حسبي أنْ أطمئنَّ أنَّكَ بخيرٍ، وسِوى ذلكَ لا مَطمعَ لي!"

"هذهِ الحكمةُ الساميةُ لمْ تُلهِمْ أحدًا قطُّ أيَّ عزاء!"

* * *

يظنُّ مَنْ لم يُجرِّبْ أنَّ طعمَ الحسناءِ مثلُ الشَهْد. إنَّهُ مثلُ الشَهْدِ لكنْ

بالفُلفُلِ، وبالسُّمِّ أيضًا لأنَّ العالمَ– بكلِّ رجالِهِ– غريمُك فيها.

"لا تحسبيني غافلًا عمَّا يفعلون!"

"دَعهم ينطحونَ الصخر!"

"لكنَّ محاولاتِهم تطربُكِ؟"

"أجلْ، قليلًا!"

"أجلْ؟!"

يحلو لحياةَ أنْ تشاكسَهُ وتغيظُهُ ثأرًا لنفسِها.

"مَنْ لا يطارِدُها الرجالُ لا تحسُّ أنَّها امرأة"

"لتلكَ المرأةِ وصفٌ لا أحبُّ أنْ أتفوَّهَ بهِ!"

"لا أعرفُ امرأةً لمْ يسعِدها غزلُ الرجالِ، لكنَّ حدسَ المرأةِ يكتشفُ الصادقَ، والمحتالُ تلعبُ بعقلِه دونَ أنْ يلعبَ بعقلِها!"

"هذا ما تقولُهُ النساءُ للتعميَة. ذلكَ الذي تسمِّينهُ صديقًا وحسبُ، هلْ أحببتِهِ؟ لنْ أغضبَ إنْ كنتِ أحببتِه.."

"لا تبدو بهذا التسامح!"

"هلْ تورَّطتِ معه؟"

"ماذا تظنُّني؟"

"هلْ قبَّلكِ؟"

"لمْ أقبِّل أحدًا سِواكَ يا مجنون.. ما مسَّني أحد.. أنتَ تظلمُني أقبحَ ظلم!"

"المظلومُ أنا، إنِّي ضحيةُ لقائنا بعدَ فواتِ الأوان!"

"لا يهمُّ ما دمنا التقيْنا!"

"لا تكلِّميهِ ثانيةً!"

"أنا لا أطلبُه"

"أجلْ هوَ مَنْ يطلبُكِ: لا تردِّي!"

صمتتْ..

ليستْ غيْرتُهُ محضَ بارانويا، فالطامعونَ لمْ تخمدْ أطماعُهم ولمْ ييأسوا، بلْ راحوا يبدعونَ في التودُّدِ إليْها والتقرُّبِ منها. منهم مَنْ يدَّعي أنَّهُ يبحثُ لها عن سكنٍ عائليٍّ رخيصٍ كيْ يتسنَّى لها جلبُ الأسرةِ ولَمُّ الشمل. ومنهم مَنْ يأتيها بطعامٍ أُرسِلَ إليْهِ منَ الوطنِ ويقسِمُ أنَّهُ لنْ يدخلَ جوفَهُ ما لمْ يقتسِمْهُ معها. ومنهم مَنْ يعرِضُ عليها عملًا إضافيًّا لزيادةِ الدخلِ لأنَّ الناسَ لا يغتربونَ إلَّا من أجلِ الدخل. ومنهم مَنْ يجعلُ زوجتَهُ تدعوها إلى الغداءِ أوْ العشاءِ أوْ كلاهما معًا.

تلقى حياةُ العروضَ برفضٍ مهذَّبٍ، أحيانًا من تلقاءِ نفسِها- مثلَ فكرةِ

السكنِ العائليِّ التي قالت إنَّها سوفَ ترجئها إلى السنةِ الآتيةِ– ومِرارًا لأنَّها تستشيرُهُ ويصِرُّ دائمًا على الرفضِ بدعوى أنَّ كلَّ العروضِ فِخاخ.

"لا تسئْ الظنَّ بالناسِ فأكثرُهم طيِّبونَ يمدُّونَ يدَّ العونِ بلا غَرَض!"

"لا أسيءُ الظنَّ بالناسِ، بلْ بالرجالِ فقط!"

"الشهامةُ دافعُهم لا الخبث!"

"شهامة؟ واللهِ لوْ رأوْا رجلًا يبتلعُهُ البحرُ مَا مَدُّوا إليْهِ يدًا!"

"ذلكَ الرجلُ الذي دعتْني زوجتُهُ إلى الغداءِ، أليسوا كرماءً؟"

"إنَّ زوجتَهُ قوَّادة!"

"قوَّادة، إنَّهم ناسٌ محترمون؟!"

"إنَّها قوَّادةٌ لزوجِها، تتملقُهُ بجلبِ النساءِ له!"

"لا تطيقُ امرأةٌ ذلك!"

"لأنَّكِ سويَّةٌ لا تتخيلينَ كَمْ العالمُ شاذ!"

ترضخُ حياةُ في النهايةِ لوساوسِهِ وتعتذرُ لأهلِ الخيرِ عن قبولِ دعواتِهم، رغمَ استسخافِها مقولةِ إنَّ العالمَ غابةٌ ليسَ فيها سِوى ذئاب. لكنَّ وسواسَهُ لا يهدأ:

"لا تشجِّعي ذلكَ الشخصَ على الجلوسِ أمامَكِ بالساعات. لاتنصتي لهُ.

قولي إنِّكِ مشغولة!"

"لا يجلسُ أمامي بالساعاتِ، دقائقَ وحسب!"

"لا تقلبي الجِدَّ مزاحًا!"

"أنتَ مَنْ يقلبُ كلَّ شيءٍ إلى نكد!"

"مِن الحمقِ أنْ يكذِّبَ المرءُ عينيْهِ، أنتِ تشجِّعينَه!"

"بَلْ أشفقُ عليْهِ، إنَّهُ منهارٌ ولا طمعَ لهُ إلَّا في أنْ يصغيّ إليْهِ أحد"

"ولماذا لا يختارُ رجلًا يشكو إليْهِ، سوفَ أصغي إليْهِ أنا؟!"

"النساءُ يتفهَّمنَ أفضلَ ويتعاطفن. لوْ حكى لرجلٍ سيقولُ لهُ: كُنْ رجلًا!"

"وما الذي يشكوهُ لكِ السيِّدُ منهار؟"

"يحكي لي كيفَ أحبَّ سناءَ، وكيفَ غدرتْ بهِ.."

"سناءُ ظلَّتْ عزباءَ خمسَ سنينٍ وظلَّ يلهو بها دونَ أنْ يخطبَها. لمْ يخطبْها إلَّا بعدَ أنْ تزوَّجتْ!"

"أحيانًا لا يَعِي الإنسانُ أنَّهُ يحبُّ إلَّا بعدَ أنْ يضيعَ منهُ حبيبُه!"

"أنتم النساءَ تصدِّقنَ أيَّ شيءٍ، إنَّهُ محتال!"

"إنَّهُ مُحطَّمٌ يبكي طوالَ الوقت.."

"إنَّهُ أخبثُ الخبثاءِ وحيلتُهُ المسكنة. إنْ لعينيْـهِ صُـنبورًا يفتحُـهُ للنـساءِ فقط!"

"أوصتْني بهِ سناءُ قبلَ أنْ ترحل.."

"لأنَّها تفهمُ حقارتَهُ وتريدُ أنْ تلهيَهُ بكِ ليتسنَّى لها الإفلاتُ منه. كانت عشيقتَهُ كما تعلمين.."

"لا أعلمُ!"

"الكلُّ يعلمُ!"

"لا أصدِّقُ، إنَّها صديقتي ولوْ حدثَ شيءٌ لباحتْ لي به"

"لا أحدَ يبوحُ بذلكَ الشيء!"

"ما زِلتُ لا أصدِّقُ. أنتَ موسوسٌ وتظنُّ كلَّ الناسِ ساقطين. أجلْ، إنَّها مـا زالتْ تحبُّهُ- باحتْ لي بذلك- غيرَ أنَّهُ لمْ يلمسْها"

"يا لكَ من مغفَّلة!" همسَ لنفسِه.

"أعلمُ أنَّني الخاسرُ لوْ وُضِعتُ في كفَّةِ ميزانٍ أمامَهُ- هو شابٌ وأنـا كهـلٌ- رغمَ ذلكَ عليْكِ أنْ تختاري: إمَّا أنا أوْ هوَ، فلـستُ مـن أولئـكَ الرجـالِ الـذينَ يتقاسمونَ امرأة!"

"إنَّكَ مجنونٌ.. مجنونٌ وظالم!"

"من الحمقِ أنْ يكذِّبَ المرءُ عينيْه!"

"عيناكَ ظالمتان مثلُك!"

"وعيناكِ تلتهمانِ ذلكَ اللعين!"

"بلْ لا أكادُ أنظرُ إليْهِ، وأتراجعُ في الكرسيِّ لأبعدَ ما يكونُ لأنَّ رائحـةً لا تُطاقُ تفوحُ كلَّما فتحَ فمَه!"

"لِمَ تشجعينَهُ إذنْ ما دامَ مُنفِّرا؟!"

"لا أشجِّعُهُ. يفرضُ نفسَهُ وينخرطُ في حديثٍ من طرفٍ واحـدٍ كأنَّـهُ يكلِّـمُ نفسَه!"

"اطرديه!"

"مكتبي ليْسَ بيتي، وحتَّى لوْ كـانَ لـيسَ مـن طبعـي طـردُ النـاسِ مـا لمْ يسيئوا الأدب. لماذا تكرهُهُ دونَ أن يسيءَ إليْكَ، إنَّهُ مُعذَّب؟!"

"أوَّلُ الحبِّ شفقة!"

"أتظنُّ قلبي فندقًا يتناوبُ الزبائنُ على غرفِه؟ الحـبُّ مـن أصـعبِ الأمـورِ وأندرِها"

"إمَّا أنْ تطرديهِ، أوْ أطردَه أنا!"

"لا حقَّ لك!"

"لا حقَّ لي؟!"

"أجلْ، لا حقَّ لك!"

"اختاري الآنَ بينَنا!"

"أنتَ لا تخيِّرُني بلْ تُكرِهُني، لنْ أتخلَّى عن إنسانٍ في محنة"

"ليسَ طفلًا ترضعينه. افطميهِ، أمْ أنَّ قلبَكِ لنْ يطيعَكِ؟!"

"لنْ يطيعَني قلبي!"

"حقًّا؟"

"ماذا تريدُني أنْ أقول؟ تَهبُ المرأةُ نفسَها ويظلُّ الشكُّ. تمضي إلى أبعدِ مدى، وتُقْدِمُ على ما لمْ تكن لتتخيلَهُ، ثمَّ ماذا؟ ماذا بوسعِها فوقَ ذلك؟ لا شيءَ سِوى اليأس!"

"أنتِ نادمة؟!"

"لمْ أندمْ على ما تظنُّني ندمتُ عليْهِ، ندمتُ على شيءٍ لنْ تفهمَه"

"أعترفُ بأنِّي قليلُ الفهم!"

"ما ينبغي للحبِّ أنْ يصيرَ أداةَ تعذيب. إنِّي شقيَّةٌ معك. لنبتعدْ بعضَ الوقتِ ونقيِّمْ مشاعرَنا"

"أصبحتِ تشكِّينَ في مشاعرِك؟"

"لنْ تفهمَ!"

"بَلْ تزيحينَني لتتفرغي له!"

"الآنَ ندِمتُ على كلِّ شيءٍ، حتَّى الحبّ!"

* * *

ليسَ بوسعِهِ أنْ يجسِّدَ لحياةَ حَيْرَتَهُ إزاءَها. إنَّها مبهمةٌ لأنَّها لا تندرجُ تحتَ أيٍّ من الأنماطِ بلْ فريدةٌ– لا بمعنى المدحِ ولا بمعنى الذمِّ– فريدةٌ ومُحيِّرةٌ إلى حدِّ الرعب. ليسّ بوسعِهِ أيضًا أنْ يصوِّرَ لها عمقَ حبِّهِ وصدقَهَ وديمومتَه. اللغةُ لا تسعِفُ أحدًا في تجلِيَةِ ما يحسُّه، أوْ ما هوَ عليْه. إنَّها مرآةٌ مشروخةٌ معتمةٌ لضمائرِنا، ولا مناصَ من سوءِ التعبيرِ أوْ سوءِ الفهم. بعضُ الناسِ موهوبٌ في اكتسابِ الأصدقاءِ، وهوَ موهوبٌ في فقدِهم. يقولُ الشيءَ موقنًا بأنَّهُ سيجعلُهُ مَقيتًا، وبرغمِ ذلكَ يقولُه. لا سلطانَ لهُ على لسانِهِ، وأكثرُ ضحاياهُ من أحبَّائه. دائمًا يجرحُ أحبَّ الناسِ إليْهِ بحمقِ المراهقينَ وسماجتِهم. ساخرٌ بطبعِهِ حتَّى من نفسِهِ، وسخريتُهُ تغلُظُ مع عمقِ ألمِه. وحدُها بصيرةُ حياةَ حدستْ ما عميَ عنهُ كلُّ مَنْ حولَهُ، فرأتْ طفلًا يتيمًا منكمشًا داخلَ

الكهلِ المُتَنمِّرِ، وأدركتْ أنَّ ذلكَ الطفلَ ما ينبغي أنْ يُؤاخذَ بلَغْوِهِ لأنَّهُ مذعورٌ مُهَدَّد.

لكنْ يبدو أنَّ الطفلَ أحنقَها هذهِ المرَّةَ إلى حدٍّ أنَّها قررتْ أنْ تُسْلِمَهُ إلى ملجأ. دقَّ عليْها مرَّاتٍ ولمْ تجِبْ– لكنْ كانَ بوسعِها إغلاقُ الموبايلِ لوْ قرَّرتْ بصدقٍ قطعَ ما بينَهما– لذا ظلَّ يحاولُ وأخيرًا استجابتْ فبادرَها بمزحةٍ لكسرِ غضبِها:

"الربعُ الذي لي في قلبِكِ، أما زالَ ربعًا؟"

"لمْ أقسْهُ اليوم!"

"أراهِنُ أنَّهُ انكمش!"

"بلْ أصبحتُ بلا قلب!"

"سوفَ أشتري لكِ قلبًا من أحدثِ طِراز!"

"اسمعْ: لا بُدَّ من أنْ أنامَ الآنَ، يكادُ رأسي ينفجرُ!"

"خمسَ دقائقٍ، دعيني أشرحُ.."

"فلنُرجئ الشرحَ لأنِّي لنْ أفهم"

"لنْ أذوقَ النومَ إنْ بتِّ غاضبةً عليَّ. لا يرضيكِ ألَّا أنام. لا بُدَّ من أنْ أحدِّثَكِ، انصتي فقطْ ولا تردِّي بشيءٍ، ليسَ أسهلَ من هذا!"

"كلُّ كلمةٍ تخرجُ من فمِكَ تهدِمُ شيئًا"

"أنا أحمقُ، تدركينَ أنِّي أحمقُ لا أدري ما أقول!"

”بلْ لا تقولُ شيئًا إلَّا وتعنيه!“

”إنِّي موسوسٌ فاعذريني“

”وما ذنبي، لستُ طبيبةً نفسيَّة؟!“

”تحمَّليني لآخرِ مرَّةٍ“

”أحسُّ أنِّي طُعِنت!“

”لا يا حبيبتي!“

”أنْ تتوهمَ أنَّ الحبيبَ يعرفُكَ، ولأنَّهُ يعرفُكَ لنْ يظلمَكَ، ثم تُفجعُ بأنَّهُ أجهلُ الناسِ بكَ وأظلمُهم لك..“

”بلْ لأنِّي حبيبُكِ لا أعرفُكِ. الحبُّ أعمى حقًّا، لمْ يصِفوهُ بالعمى جُزافًا. لوْ كنتِ أخبثَ الناسِ لنْ أرى، ولوْ كنتِ أطيبَهم لنْ أرى. لا أرى سِوى حبِّي. حبِّي غَشاوةٌ فوقَ عيْنيَّ“

”ولِمَ أراكَ أنا بلا غَشاوة؟“

”لأنَّكِ صاحبةُ بصيرةٍ، لوْ لمْ تكنْ لديْكِ بصيرةٌ لما صدَّقتِني. لكنَّها موهبةٌ لمْ يُنعَمْ عليَّ بها“

”أجلْ لأنَّ موهبتَكَ الظلمُ!“

”لا تؤاخذيني بما ليسَ لي بهِ يدٌ. إنَّني لا أتوقعُ إلَّا الأسوأَ، هذا طبعي:

أسيءُ الظنَّ حتَّى بنفسي!"

"بلْ لا تسيءُ الظنَّ إلَّا بي. نفاقٌ منكَ أنْ تحبَّ مَنْ ليستْ أهلًا لثقتِك؟!"

"ثقتي بكِ مطلقةٌ.."

"مللتُ هذا الكليشيهَ من فَرطِ تَكرارِه. بلْ لا تثقُ بي ذرَّةَ ثقةٍ، وتتوهَّمُ أنِّي أخونُكَ أوْ سوفَ أخونُكَ دونّ أنْ تسألَ نفسَكَ: متى أخونُكَ ويومي كلُّهُ معكَ، وحينَ نأوي إلى فراشَيْنا نتحدَّثُ بالموبايل حتَّى يغلقَ النعاسُ جفونَنا؟! بلْ وأتطوَّعُ- لطمأنةِ وساوسِكَ- بتقديمِ تقريرٍ يوميٍّ عن كلِّ لحظةٍ لمْ أقضِها معك. إنِّني لا أدخلُ الحمَّامَ دونَ أنْ أستأذَنك!"

"إنِّني مجنونُ حبِّكِ، ليتكِ تتخيلينَ ما أنا فيهِ من رعبِ أنْ أفقدَكِ.."

"ليسَ حبًّا، أجلْ تظنُّ أنَّهُ حبٌّ لكنَّهُ ليسَ حبًّا. إنَّنا لا نحبُّ مَنْ نحتقرُهم، وأنتَ تحتقرُني لأنَّكَ تدينُني. في قرارةِ نفسِكَ أنا امرأةٌ سهلةٌ عليْكَ ألَّا تغفلَ عنها طرفةَ عينٍ وإلَّا استسلمتْ لأوَّلِ عابرٍ يغمِزُ لها!"

"بلْ أُجلُّكِ فوقَ كلِّ المُقدَّساتِ لأنِّي كنتُ ميِّتًا وأحييْتِني"

"الأفضلُ أنْ أرحلَ"

"عَمَّ تتحدثين؟"

"لا بُدَّ من أنْ أبتعدَ، سوفَ أعودُ إلى الوطن.."

"الهربُ أوَّلُ ما يخطرُ لكِ"

"ماذا تقصدُ؟"

"لا تكوني هشَّةً!"

"لستُ هشَّةً.. إلامَ تلمِحُ بأنَّ الهربَ أوَّلُ ما يخطرُ لي؟"

"هربتِ من حبيبٍ قبلي.."

"ليْسَ حبيبًا. لمْ أحبَّه. أنتَ مجنونٌ. ليْتني ما حكيتَ لكَ أيَّ شيء. إنَّكَ لا تقدِّرُ الصدقَ"

"ألا تدركينَ أنَّكِ لوْ هجرتِني تقتلينَني؟"

"لا أحدَ يموتُ لرحيلِ أحدٍ. دعني لحالي: هذا أكرمُ لي ولكَ!"

كانَ جالسًا على حافةِ السريرِ فانثنى على نفسِهِ كأنّهُ طُعِنَ في بطنِه. ثم لمْ يُطقِ الجلوسَ ساكنًا فراحَ يذرعُ الشقَّةَ ذهابًا وإيابًا وفي دوائرَ- والدموعُ تنهمرُ من عينيْهِ المُحتقنتيْنِ وتبلِّلُ مواقعَ خطوِهِ، إلى أنْ خارتْ ساقاهُ فانهارَ أرضًا وظلَّ جالسًا لا يقوى على النهوضِ، وهوَ يلطمُ خدَّيْهِ ويشدُّ شعرَهُ وينطِحُ الحائطَ، وما لبِثَ البكاءُ أنْ انقلبَ إلى نُواحٍ تتخللُهُ شهقاتٌ وأنَّاتٌ، وما أنْ استعادَ بعضًا من عافيَتِهِ وأمكنَهُ النهوضُ حتَّى ارتدى أوَّلَ ثيابٍ طالتْها يدُهُ وفَرَّ من البيْتِ الذي لمْ يعدْ يسعُ خُطاه.

* * *

دوّاماتٌ رمليَّةٌ ذرَّاتُها متناهيةُ الصغرِ كبرادةِ الحديدِ لا تراها لكنْ تـدركُ أنَّكَ استنشقتَها حينَ تشعرُ بشَفَراتٍ حادةٍ تمزِّقُ رئتيكَ معَ كلِّ نَفَس. الأرضُ مفروشةٌ بالجرادِ، بعضُهُ ميِّتٌ من الإعياءِ والبردِ منقلِبٌ على ظهرِهِ، والبعضُ حيٌّ يختلِجُ لكنَّهُ عاجزٌ عن الطيرانِ، لحظـاتٌ ويلحـقُ بإخوتِـهِ ويهمَد. تلـكَ الأسرابُ الهائلةُ تجشَّمتْ وَعثاءَ الـسفرِ أميالًـا وأميالًـا كـيْ تمـوتَ هنـا، فيـا للسخفِ! فجأةً مزَّقَ الصمتَ ضجيجٌ رهيبٌ حسِبَهُ زئـيرَ طـائرةٍ، لكـنَّ تَقَطُّـعَ الهزيمِ وتَكرارَهُ والوميضَ في السماءِ أنبـؤوهُ بـأنَّ المطـرَ سـينهمرُ. انـشقَّ أديـمُ السماءِ فانصبَّ مخزونُها اللا نهائيُّ مطرًا ثقيلًا بـاردًا تـصفعُ زَخَّاتُـهُ الخـدَّيْنِ والعينيْنِ كأكُفٍّ من الثلجِ. هامَ على وجهَـهِ يضربُهُ المطرُ ويندحُ مـاءً ولا يتَّخـذُ ملاذًا من الماء. في دقائقَ صارَ طريقُ السياراتِ بينَ الرصيفيْنِ نهًرا هادرًا.

"لوْ زلَّتَ قدمي سيجرفُني السيلُ. ليتَها تزِلُّ! ولِمَ لا ألقـي بنفـسي؟ غـيرَ أنِّي لستُ فيرتار، إنَّني كهلٌ، والانتحارُ لا يليقُ بكهلٍ. قد يُقبَل من مراهـقٍ أرعنْ، أوْ شابٍ دماؤهُ تغلي، أوْ شيخٍ مكتئبٍ سجينِ الوحدة. لكنَّهُ لا يُقبَلُ من كهل: الكهلُ في عنقِهِ مسئولياتٌ. الكهلُ لا يعـيشُ لنفـسِهِ ولا يختـارُ موتَـه. سُحقًا!"

وجدَ نفسَهُ أمامَ لافتةٍ تشيرُ إلى طريقِ المدينةِ المقدَّسةِ حيـثُ الـصَرْحُ الـذي

شدَّ الرِحالَ إليْهِ في أوَّلِ عهدِهِ بالمنفى. راوَدتْهُ فكرةُ الرحيلِ إلى الصَرْحِ لا بُغيةَ التوبةِ بلْ طلبًا للنسيان. ثم رنَّ الموبايل:

"ما هذا الصوْتُ؟ أينَ أنت؟"

"بالخارجِ، أمشي!"

"تمشي؟! الآن؟! خشيْتُ ذلكَ لعلمي بأنَّكَ مجنون!"

"لمْ أُطِقْ البقاءَ في البيْت!"

"عُدْ وكفى جنونًا. البردُ قارس!"

"لا أشعرُ ببردٍ أوْ حرٍّ!"

"عُدْ قبلَ أنْ تمرضَ"

"ليتني أُقتَلُ يا حياة!"

"لا تتكلمْ كطفلٍ!"

"لماذا لمْ تنامي؟"

"أيقظني الرعدُ.."

"حقًّا؟"

"كلّا، عجزَتُ عن النوم.."

"بسببي؟"

"كلَّا!"

"بسببِ حبًّ جديد؟"

"ليسَ هذا من شأنِك!"

"سوفَ أبقى إذنْ تحتَ المطرِ حتَّى أتجمَّدَ أوْ يجرفَني السيْل!"

"سأخبرُكَ بما حالَ دونَ النومِ على أنْ تعودَ فورًا. لا بُدَّ من أنْ تقسمَ أوَّلًا أنَّكَ ستعود"

"أقسمُ باسمِكِ أنِّي سأعود!"

"حالَ بيْني وبيْنَ النومِ مجنونٌ!"

"لا مجنونَ سِوايَ في هذهِ الأنحاء!"

اكتشفَ أنَّهُ بعيدٌ جدًّا عن البيتِ، في أقصى المدينةِ، لكنَّهُ لمْ يُشفِقْ على نفسِهِ من دربِ العودةِ الطويلِ تحتَ المطرِ لأنَّ جناحيْنِ نبتا لهُ وسوفَ يطير. كفَّ المطرُ فجأةً كما انسكبَ فجأة. أنفاسٌ من الشمسِ مازجتْ الظلمةَ فميَّعتها، وبدتْ الموجوداتُ بألوانٍ مدهشةٍ غيرِ حقيقيَّةٍ لا تكتسي بها سِوى في مثلِ تلكَ اللحظاتِ حينَ يكونُ المشيُ في الطرقاتِ مثلَ المشيِ في حلم. الصباحُ يشعرُكَ بأنَّكَ قويٌّ وآمنٌ، الليلُ يشعرُكَ بأنَّكَ ضعيفٌ ومُهدَد. الزوابعُ تعبثُ

بكلِّ شيءٍ هذا الصباحِ، وتدوِّخُ أوراقَ الشجرِ الساقطةِ في دوَّامات. زوابعُ مثلُ حبِّهِ، غيرَ أنَّ حبَّهُ أعتى جدًّا.

* * *

مُستنزَفان. احترقا حتَّى صارا رمادًا. كأنَّهما مُلاكمانِ أوسعا بعضَهما ضربًا وفي نفسِ اللحظةِ سقطا فوقَ أرضِ الحلبةِ عاجزيْنِ عن النهوض. سادَ سلامٌ مثلُ الهدنةِ التي يتَّفقُ عليْها المحاربونَ في زمنِ الأعياد. لمْ يحتفِ أحدٌ بتلكَ الهدنةِ الهشَّةِ ليقينِهما بأنَّها سوفَ تُنتَهكُ، غيرَ أنَّها أرحمُ من الاقتتالِ لا أكثرَ.

لكنَّ حربَهُ مع نفسِهِ ظلَّتْ مُستعِرَةً. لا ضمانةَ بأنَّ لسانَهُ لنْ يزِلَّ ويهينَ حياةَ إهانةً لا تُغتفرُ وتكونَ القطيعةُ الأبديَّةُ. حتى دونَ إهانةٍ لا تُغتفرُ، لا تطيقُ امرأةٌ دوامَ النكدِ حتَّى من حبيبِها.

وللنكدِ بذرةٌ واحدةٌ: الغيْرةُ، لكنَّهُ سيحاولُ أنْ يُحسِنَ الظنَّ خِلافًا لطبيعتِهِ، وأنْ يئدَ الشكَّ في مَهْدِهِ خلافًا لطبيعتِه. لا بُدَّ من أنْ يُفسِّرَ كلَّ ما يريبُهُ لصالحِها حتَّى لوْ كذَّبَ عينيْهِ وأذنيْهِ وكلَّ حواسِه. غيرَ أنَّ الهُدَنَ ظلَّتْ تُنتَهَكُ وتُعقدُ، وتراكمتْ نسخٌ مُتماثلةٌ أوْ مُحوَّرةٌ من الشجارِ والصُلح.

ثمَّ– منذُ شهرينِ فقطْ– حلَّ سلامٌ دائمٌ ليْسَ مردُّهُ إلى أنَّ حياةَ أُرهِقَتْ– أجلْ أُرهِقَتْ ويئستْ– بلْ إلى إدراكِها أخيرًا أنَّها إذا أصرَّتْ على تحديهِ

سوفَ تعمِّقُ جنونَهُ الذي لا دواءَ له. سوفَ يـوقنُ بـأنَّ وسواسَـهُ صـادقٌ وهـذا اليقينُ سوفَ يُشقيهِ، وهي لا تريدُهُ أنْ يشقى لأنَّهُ حبيبُها حقًّا. بدلًا من اسمِهِ سجَّلتْهُ في الموبايلِ تحتَ لقبِ: حبيبي! يقينُهـا الآنَ نهـائيٌّ بأنَّـهُ حبيبُهـا، وفوقَ اليقينِ زهوٌ بأنَّهُ مجنونُها. وذلكَ ما صارَ إليْهِ حقًّا: صارَ مجنـونَ حيـاةٍ مثلَ أخويْهِ القيْسيْنِ: مجنونِ ليلى ومجنونِ لبنى.

في البدءِ كانَ يقولُ إنَّها قهوةُ الصباحِ لا يعتدلُ مِزاجُهُ إلَّا بها. ثم أضـحتْ هيروينَهُ الذي بدونِهِ يُجَنُّ، وهيَ الآنَ دواءُ قلبِهِ إنْ لمْ يتناولْهُ هَلَـك. واظبـتْ حياةُ على منحِهِ الدواءَ- شفتيْها- كلَّ صباحٍ. يدعوها كما يـدعو ذكـرُ الحمـامِ أنثاهُ فتوافيهِ، وتسقيهِ رحيقَ شفتيْها في سخاءٍ وحُنُوٍّ. ما عادَ بوسعِ شـيءٍ أنْ يكدِّرَ صفوَ ما بينَهما. إنَّهما مخمورانِ منتـشيانِ لا يـرى أحـدُهما في الوجـودِ غيرَ صاحبِه.

"هذا عيبُ السعادةِ: زادَ وزني مُجدَّدًا"

"ليتكِ تصيرينَ في حجمِ الفيل!"

"يالَها من أمنيةٍ لِمَنْ تحبُّ!"

"لوْ صِرتِ كالفيلِ سأزِنُكِ بالذهبِ"

"لا أريدُ ذهبَك!"

أكثرُ النـاسِ يعيـشونَ ويموتـونَ دونَ أنْ يَحيـوا. الحيـاةُ الحقَّـةُ، الحيـاةُ الخِصبةُ- التي تونعُ فيها الروحُ ولا تَذوي- أنْ تخالِلَ مَنْ روحُهُ مثلُ روحِك. إنْ كنتُ طيِّبًا خالِطْ طيِّبًا، أوْ كنتَ خبيثًـا خـالِطْ خبيثًـا، ولا تخـالِطْ- ولـوْ في الفِردوْسِ- مَنْ ليسَ مثلَك. إنَّهُ يحيا لأوَّلِ مرَّةٍ منذُ وُلِدَ. لا يفيقُ مـن النـشوةِ، ويكادُ لا يصدِّقُ أنَّ لديْهِ موهبةَ الفرحِ بهذا القدْر. لا شكَّ في أنَّها ظلَّتْ مطمورةً كلَّ ذلكَ العمرِ تحتَ وَهْمِ أنَّهُ نَكِدٌ، وأنَّ النكدَ سُنَّةُ الدنيا.

غيرَ أنَّ رعبَهُ من مُباغتةِ الفِراقِ الآتي لا محالةَ ظلَّ ينهشُ قلبَه.

* * *

"سأزورُكَ الليلةَ!"

بُهِتَ. انقضتْ شهورٌ منذُ اللقاءِ الأوحدِ دونَ أنْ يـدعوَ أيٌّ منهمـا صـاحبَهُ صراحةً أوْ إلماحًا إلى لقاء.

شَهَقَ من بياضِ ثدييْها واستدارتِهما الكاملـة. لمْ تـضاجعْهُ وحـسبُ بـلْ أرضعتْهُ رحيقَ كيانِها مثلَ عصفورٍ يطعِمُ أفراخَهُ في مناقيرِها. سكبتْ روحَهـا بسخاءٍ في فمِهِ. قبَّلتْ وجهَهُ.. رقبتَهُ.. صدرَهُ.. كتفيْـهِ.. التـصقتْ بـهِ وظلَّـت تفرَكُ وجهَها بوجهِهِ، أنفَها بأنفِـهِ، جبهتَهـا بجبهتِـهِ، خـدَّيْها بخدَّيْـهِ.. حطَّت شفتيْها القويتيْنِ المزمومتيْنِ على شفتيْهِ في قبلةٍ مثلِ قُبلِ الأطفالِ لكنَّها طويلةٌ ضاغطةٌ، بلْ ساحقةٌ. ثم تراجعتْ لـتُمعِنَ النَظَـرَ في وجهِـهِ مثـلَ رسَّامٍ

يختزنُ الملامحَ قبلَ الشروعِ في استعادتِها فوقَ لوحـةٍ، إلّـا أنَّ نظراتِهـا متيمـةٌ جَزِعَةٌ مُلتاعةٌ تقطرُ حسرةً. غاصَ قلبُه.

أومضَ في الهواءِ أمامَ ناظريْهِ هذا البيتُ كأنَّما رُسِمَ باللايزَر :

قَضَى وَطَرًا مِنْكَ الحَبِيبُ المُوِدِّعُ

وَحَلَّ الذي لا يُسْتَطَاعُ فيُدْفَعُ

"كأنَّكِ توَّدِعينَني، هكذا يفعلُ المُوَّدِعون!"

"أيَّامنُا معدودةٌ إلى حدِّ البخلِ!"

"لا تحدِّثيني بالألغازِ فقلبي لا يحتملُ"

"يريدُني أنْ أعودَ.."

لمْ يسألْها مَنْ، جَلِيٌّ أنَّهُ الزوجُ..

"سوفَ تعودينَ في الإجازةِ السنويَّة"

"أعودُ فورًا!"

"وهلْ الأمرُ بيدِهِ أوْ بيدِكِ، كلَّنا مرتبطونَ بعقودٍ ولمْ يحِنْ موعدُ إجازتِك؟"

"شرحتُ لهُ ذلكَ، لكنَّهُ أصرَّ.."

"أسعدَكَ بالطَّبعِ إصرارُه"

"لمْ يسعِدْني إصرارُهُ، لكنَّ العودةَ إلى طفلتي تفرحُني"

"وَأنا، ألا يحزنُكِ فِراقي؟"

"لستُ منافقةً: فراقُكَ أليمٌ لكنِّي فرِحةٌ بلقاءِ ابنتي. بوسعِ الإنسانِ أنْ يفرحَ رغمَ ألمِه"

"لوْ خيِّرتُ بينكِ وبينَ عيالي لاخترتُكِ!"

"ليسَ الرجلُ كالمرأةِ، وليسَ الأبُ مثلَ الأمِّ"

تردَّدتْ لحظةً– فيها استجمعتْ عزمَها– ثم قالتْ:

"قدْ لا أعودُ إلى هنا.. لمْ أخبرْ أحدًا بهذا سِواكَ. يظنُّونَ أنِّي ذاهبةٌ في إجازةٍ مبكِّرةٍ. ادّعيْتُ ضرورةَ السفرِ مُتعللةً بمرضِ أمِّي"

"ما هذا الجنونُ؟! لا بُدَّ من أنْ تعودي إليَّ، إنَّكِ بائسةٌ معَهُ"

"سأحاولُ بكلِّ قوَّتي، لكنْ إنْ لمْ أعدْ لا تخفْ فلنْ أنساكَ!"

"بلْ عودي!"

"ليتَ الأمرَ بيدي! هنا أوْ هناكَ سوفَ نلتقي، اطمئنْ!"

"ألا تُشفقينَ عليَّ، ألا تكترثينَ بمصيري؟!"

"سوفَ نلتقي هناكَ، لنْ يتغيَّرَ شيءٌ"

"سوفَ تنسيني، البعيدُ بعيدٌ عن القلبِ!"

"هذا أكذبُ رأيٍ، أوْ لعلَّهُ يصدُقُ على الرجلِ فقط. المرأةُ لا تنسى حبيبَها في قربٍ أوْ بُعد!"

"لا بُدَّ للحبِّ من وجودٍ ماديٍّ كيْ يطمئنَّ أنَّهُ حيٌّ"

"تعلمُ ما في نفسي وأعلمُ ما في نفسِكَ، لا حاجةَ بنا إلى براهين"

"لا حياةَ لي بدونِكِ، أنتِ تذبحينَني!"

"إحساسي يؤكِّدُ لي أنَّكَ سوفَ تعيشُ ونلتقي"

"اطلبي الطلاقَ فورَ عودتِكِ!"

"أطلبُهُ كلَّ يومٍ ويُرفَض"

"اطلبيهِ بقوَّةٍ، لا تليني!"

"لا أريدُ إيلامَ طفلتي، حينَ أُلِحُّ يقسو عليْها انتقامًا منِّي.."

تقولُ حياةُ إنَّ المرأةَ– حينَ تعشقُ حقًّا– لا تزنُ حبَّها بقربٍ أوْ بُعد. لنْ تنسى حبيبَها إنْ غابَ، وسوفَ تُهرولُ إليْهِ لوْ عادَ حتَّى في آخرِ العمر. بلْ حينَ تعشقُ المرأةُ حقًّا لنْ يموتَ حبُّها بموتِ الحبيبِ، وسوفَ تعيشُ على ذكراهُ لا تُشرِكُ بهِ حبيبًا.

* * *

لَا مَرْحَبًا بِغَدٍ، وَلَا أَهلًا بِهِ

إنْ كَانَ تَفْرِيقُ الأَحِبَّةِ فِي غَدِ!

لمْ يَغمُضْ لهُ جَفنٌ في الليلةِ التي رحلتْ في فجرِها. ظلَّ غيْرَ مُصدِّقٍ أنَّها حقًّا راحلةٌ حتَّى انطلقتْ بها السيَّارةُ إلى المطارِ، بلْ حتَّى أخبرتْهُ أنَّهم أمروا المسافرينَ بإغلاقِ الموبايلاتِ لأنَّ الطائرةَ ستقلِعَ. وما أنْ حطَّتْ الطائرةُ حتَّى اتصلتْ بهِ لتطمئنَه. "الوعدُ عهدٌ!" ذكَّرَها، "الوعدُ عهدٌ!" أكَّدتْ له. بعدَ أنْ مرَّتْ من الجوازاتِ كلَّمتْهُ للمرَّةِ الثانية. صوتُها هامسٌ مرتعشٌ كأنَّها ترى الشرطةَ آتيةً لاعتقالِها، لا كأنَّ الأهلَ سوفَ يحتضنونَها.

"إنَّني أراهم الآنَ، وداعًا.."

ثمَّ اختفى الصوت..

اعتصرتْ قلبَهُ نفسُ اللوعةِ التي اعتصرتْهُ يومَ ماتتْ أمُّه. الضياعُ والعجزُ كريشةٍ في مهبِّ الريحِ، والتعبُ والإنهاكُ مثلُ مريضٍ عَرَكَهُ الداءُ دهرًا. ما عادَ الوجودُ محتملًا، والوعيُ صارَ خانقًا إلى حدِّ استجداءِ الموتِ فرارًا من وَطأتِه.

"ماذا سوفَ أفعلُ بأيامي الآتيةِ، لمْ أكنْ أفعلُ شيئًا بالأيامِ سِوى أنْ أحبَّكِ فيها؟!"

الفِراقُ انكسار. لا حولَ لكَ ولا قوَّة. تحسُّ أنَّ الدمعَ ملأَ صدرَكَ وسوفُ

يُهشِّمُ ضلوعَكَ وينبجِسُ من بينِ شظاياها. الآنَ وقدْ رُدَّ إلى الوحدةِ أدركَ عمقَ الشقاءِ الذي ظلَّ من قبلِها يقاسيهِ غيرَ واعٍ بفداحتِه. لمْ يُجبلْ على احتمالِ الوحدةِ، ليسَ ثرثارًا لكنَّهُ يحبُّ أنْ يسمعَ الناسَ من حولِهِ يثرثرون. يحبُّ أنْ يُحاطَ بالبشرِ، بفرحِ الناسِ ومرحِهم رغمَ عجزِهِ عن الفرحِ والمرح. حينَ يظهرُ مُنقذٌ وينقذُكَ من وحدتَكَ التي اعتدتَها ثم يختفي المنقذُ يكونُ من أقسى الأمورِ وأشقِّها أنْ تعتادَ وحدتَكَ مُجدَّدًا. وَمَضَتْ حقيقةٌ أليمةٌ أمامَ عينيْهِ: في كلِّ الأحوالِ سوفَ يخسرُ حتَّى لوْ أوفتْ حياةُ بوعدِ اللقاءِ حينَ يعود. ما من نهايةٍ لحكايتِهما غيْرَ مأساويَّة. أجلْ، ما من نهايةٍ لهذا الأمرِ غيْرَ مأساويَّة.

رُعبُ مَنْ يجوسُ وحيدًا في الظلامِ بينَ القبورِ تحتَ سماءٍ مسدودة. السماءُ المسدودةُ ليستْ كسقفِ الحجرةِ مرئيَّةً، بلْ لا تكتشفُ أنَّها سُدَّتْ إلَّا حينَ تطيرُ وترتطِمُ بها.

* * *

حانتْ اللحظةُ المرتقبة. اللحظةُ الفارقة. حانَ موعدُ إجازتِهِ التي اعتادَ منذُ سنينَ ألَّا يصبوَ إليْها، لكنَّهُ انتظرَها هذهِ السنةَ على أحرَّ من الجمرِ ليرى إنْ كانت حياةُ سوفَ تفي بوعدِها أمْ تحنُث. إنَّها الآنَ خارجُ قبضتِهِ، وبوسعِها ألَّا تحضرَ، وبوسعِها أنْ تغيِّرَ رقمَ الموبايل، وبوسعِها أنْ تختفيَ كأنَّها تبخَّرتْ، ولأنَّها ترى روحَهُ لنْ تخشى أنْ يبحثَ عنها أوْ يطاردَها أوْ

يبتزَّها، وهوَ يقينًا لنْ يفعلَ فلوْ شاءتْ أنْ تتخلَّصَ منـهُ سـوفُ يُخلِّـصُها مـن نفسِهِ، وبالرغمِ من أنَّ اختفاءَها من حياتِهِ سوفَ يحطِّمُـهُ، لـنْ يلومَهـا علـى اتباعِ الحكمةِ المُجرَّبةِ التي تقضي بأنَّ ما وُلدَ بعيدًا لا بُدَّ مـن أنْ يُـدفنَ بعيـدًا. العقلاءُ يفعلونَ ذلكَ: يَمْتَنّونُ للحظِّ الذي ستَرَهم وأنجـاهم بـلا فـضيحةٍ، ثـمَّ يقطعونَ كلَّ خيطٍ يربطِهم بما جرى ويتناسوْنَه.

كيفَ لمْ تتصلْ حياةُ لتطمئنَّ عليهِ يـومَ سـفرِه؟! حيـاةُ الـتي يعرفُهـا لـنْ تُطيقَ ألَّا تطمئنَّ عليهِ. ما لمْ تكنْ غدرَتْ. ما لمْ تكنْ هادنتْهُ وهيَ في قفـصِهِ ثـم فُتِح البابُ فطارتْ. لعلَّها هيَ التي قـرَّرتْ الرجـوعَ دونَ أنْ يـستدعيَها أحـدٌ، قرَّرتْهُ للخلاصِ منه. امتزجَ حَنَقُهُ عليْهـا بـذهولٍ كـذهولِ مرضـى إلزايْمـار. أسقِطَ في يدِه. غامتْ عيْناهُ فلمْ يـرَ شـيئًا مـن الطريـقِ والتاكـسي مـاضٍ بـهِ إلى المطار. المطارُ مُكدَّسٌ كعادتِهِ– عادةِ كلِّ المطاراتِ– وكثيرٌ من الرحلاتِ متأخِّر. ما معنى أنْ يكونَ الطيرانُ أسرعَ وسائلِ السفرِ ثم يُطالَبُ المـسافرونَ بالحـضورِ إلى المطارِ قبلَ موعدِ الإقلاعِ بثلاثِ ساعاتٍ لاجتيازِ إجراءاتٍ مُذِلَّةٍ وتفتيـشاتٍ مهينةٍ– وبرغمِ ذلكَ لمْ تمنعَ إرهابيًّا واحدًا من تنفيذِ جريمتِهِ– ثم قدْ لا تقلِعُ الطائرةُ في موعدِها بعدَ كلِّ ذلكَ الـسخفِ؟! ظلَّـتْ يـداهُ ترتعـشانِ ويتعثَّـرُ في خطاه. سقطَ جوازُ السفرِ ولمْ ينتبَهْ إلى ذلكَ إلَّا حينَ وقفَ أمامَ منـدوبِ شـركةِ الطيران. عادَ أدراجَهُ والتقطهُ بلا حماسٍ فلا مرحبًا بالعودةِ ما دامَ لنْ يلقاها.

عَبَرَ بوَّابةَ الجوازاتِ بعدَ أنْ خلعَ ساعتَهُ وحزامَهُ ووضعَ المفاتيحَ والموبايلَ في ذلكَ الصندوق. دوَّى جرسُ الإنذارِ رغمَ ذلك. أمرَهُ المفتِّشُ بخلعِ حذائيْهِ، وبرَغمِ حَفائهِ دوَّى الإنذارُ مُجدَّدًا. رمقَهُ المفتِّشُ متفحِّصًا ثم قرَّرَ أنَّهُ لا يبدو إرهابيًّا. إنَّهُ كهلٌ والكهولُ أكسلُ وأجبنُ من أنْ يتهوَّروا. باستعلاءٍ أومأَ إليهِ أنْ يمرَّ فدسَّ بعضًا من قدميْهِ في الحذائيْنِ ومضى. يا لعبثيَّةِ هذهِ الوظائف. آلافُ الحقائبِ التي تمرُّ تحتَ الأشعة. آلافُ الجوازاتِ التي تُختَم. آلافُ المسافرينَ الذينَ يُفتَّشون.. كلُّ ذلكَ يتكرَّرُ ويتكرَّرُ بحذافيرِهِ كلَّ يومٍ من أيَّامِ العمر. أكثرُ المهنِ التي يمتهنُها الناسُ مُمِلَّةٌ وعقيمةٌ، ومن الإنسانيَّةِ أنْ يضطلعَ بها روبوتٌ لا بشر. بلْ كلُّ المهنِ مُضْجِرَة. أغلالٌ. الروتينُ يشعِرُ المرءَ بأنَّهُ دجاجةٌ عليْها أنْ تبيضَ في كلِّ يومٍ من أيَّامِ حياتِها. بِمَ أفادَ التحضُّرُ الإنسانَ؟ لا شيءَ. حطَّمَ روحَه. لذا لا يقايضُ البدوُ الرُحَّلُ بحريَّتِهم أيَّ شيءٍ حتَّى لوْ جاعوا.

عندَ بوَّابةِ دخولِ الطائرةِ سيركُ العائدين. نفسُ الأنماطِ المُكرَّرة. بدانةُ النساءِ مُفرِطةٌ، وكروشُ الرجالِ شاسعةٌ. حتَّى الأطفالُ سِمانٌ كالخنازير. العزاءُ الوحيدُ في المنفى هوَ الأكل. الطعامُ للجميعِ، وللرجالِ الفياجرا، وللنساءِ الذهب. ما من امرأةٍ إلَّا وهيَ مثقلةُ الأطرافِ بالذهبِ كأنَّها زوجةُ مَهراجا. ما أنْ يُعلنَ عن دخولِ الطائرةِ حتَّى يتزاحموا ويتسابقوا ويدفعَ

بعضُهم بعضًا بالمناكبِ كأنَّ مَنْ يدخلْ الطائرةَ أوَّلًا يصلْ أوَّلًا، أوْ كأنَّ مَـنْ يقـفْ في آخرِ الصفِّ تقلعْ الطائرةُ بدونِه.

لمْ يكنْ ليستقلَ الطائرةَ اللعينةَ دونَ أنْ يسمعَ صوتَ حياة. قـرَّرَ أنْ يتَّـصلَ بها على الرقمِ الذي أعطتْهُ لهُ وليكنْ ما يكون. لا بُدَّ من أنْ يعلمَ إنْ كانت حياةُ حقًّا امرأةً موجودةً، أمْ عروسَ أحلامٍ لقيْها في منامٍ أوْ أنجبتْها الوحدة. يـشكُّ الآنَ شكًّا عميقًا في أنَّها موجودة. سمِعَ رنَّـةً واحـدةً علـى الطـرفِ البعيـدِ ثـمَّ أُلغيتْ المكالمة. مادَتْ الأرضُ بهِ وبالمسافرين. شعرَ أنَّهُ يهوي من حـالِقٍ. فـورَ زوالِ الصعقةِ الأولى أحسَّ أنَّ دماغَهُ دُمُّلٌ كبيرٌ يريدُ أنْ ينفجرَ.

بعدَ دقائقٍ رنَّ الموبايل:

"لمْ أكنْ وحدي فكانَ عليَّ أنْ أخرجَ لأكلِّمَكَ"

"كانَ عليكِ أنْ تتدبري أمرَ أنْ تكوني وحدَكِ، ألا تعلمينَ بموعدِ الطائرة؟"

"نويْتُ الاتصالَ في موعدِ وصولِها لا إقلاعِها. هـذا هـوَ المنطـقُ: أنْ أطمـئنَّ أنَّكَ وصلتَ لا غادرت!"

رُدَّتْ إليهِ الروحُ لكنَّهُ لمْ يقتنع. لمْ تنوِ الاتصالَ بـهِ حـينَ يـصل. نـبراتُ صوتِها غيرُ مطَمْئنَة. الأرجحُ أنَّها تنوِّمُهُ الآنَ لأنَّهُ باغتَها بهذا الاتصالِ الذي لمْ تتوقَّعْهُ، وسوفَ تغيِّرُ رقمَها فورًا.

كانَ آخـرَ الـداخلينَ إلى الطـائرة. طـائرةٌ صـغيرةٌ حقـيرةٌ ضـيِّقةٌ كـأُنبوبِ الصرفِ الصحيِّ. أقلعتْ بمـشقَّةٍ كأنَّهـا تتـسلقُ جبلًـا، ولمْ تكـفّ لحظـةً عـن الارتجافِ كأنَّها تنوي أنْ تتفسَّخَ. الجوُّ من حولِها أصفرُ معتمٌ فلا ترى سحابًا أوْ بحرًا. لا تبصرُ أيَّ شيءٍ ولا تدري إنْ كنتُ في السماءِ أمْ في مُستنقع. الطائرةُ سيِّئةٌ والطيَّارُ سيِّءٌ. أدركَ ذلكَ بخبرتِهِ من عشراتِ الرحلاتِ، لكنَّ كـلَّ هـذا السوءِ لا يزعجُهُ هذهِ المرَّةَ بلْ يُفرحُه. ألا ليْتَ الطائرةَ اللعينةَ تتشظَّى ويتناثرُ كلُّ مَنْ فيها في الجوِّ، بما في ذلكَ الأطفال!

أجيبتْ دعوتُه. كأنَّ ماردًا اقتنصَ الطائرةَ وراحَ يلقي بها في الهواءِ من يـدٍ إلى يدٍ، أوْ كأنَّها تتدحرجُ هابطةً جبلًا كلُّهُ صخورٌ ناتئةٌ ومنحنياتٌ حـادة. في احتقارٍ ومَقْتٍ ظلَّ يقلِّبُ بصرَهُ فـيمَنْ حولَـهُ يرتجفـونَ ويلـهثونَ ويـصرخون. منهم مَنْ ألصقَ رأسَهُ بظهرِ المقعدِ الذي أمامَهُ، ومَنْ تـشبَّثَ كالخفَّـاشِ بـذراعِ جـارِهِ، ومَـنْ يتقيَّـأُ في كـيسٍ أوْ في قفـا الجـالسِ أمامَـهُ، ومَـنْ يـئنُّ كـالطعينِ المُحتضَرِ، ومَنْ يتلو صلاةً أخيرةً ويستجدي الرحمة. كانت المضيفةُ قدْ وضعتْ صينيَّةَ الوجبةِ أمامَهُ قبلَ أوَّلِ رَجَّةٍ ولمْ يلتفتْ إليْها. الآنَ فضَّ الورقَ المعـدِنيَّ الذي حفظَ الوجبةَ دافئةً، وباستمتاعٍ لمْ يحدثْ مـن قبـلُ الـتهمَ كـلَّ مـا فـوقَ الصينيَّةِ بما في ذلكَ الأطعمةُ التي امتنعَ عنها في الأعـوامِ الماضـيةِ حفاظًـا علـى الصحَّةِ مثلُ الحلوى والأرز. التهمَها وهو يتوسَّلُ إلى الطائرةِ ألَّا تسقطَ قبـلَ أنْ

يأتيَ على الفتاتِ الأخير:

"وجبةٌ ملكيَّةٌ. عساها تكونُ آخرَ الزاد. ما أروعَ الموتَ الخاطف!"

تلكَ أمنيتُهُ حقًّا منذُ شهِدَ سَحْقَ المرضِ أبيهِ لسنينَ وسنين: أنْ يخطفَهُ الموتُ خطفًا ولا يطولَ تمنِّيهِ وهو مُقعَدٌ أوْ طريح.

الضوضاءُ فظيعةٌ والفوضى جهنميَّة. حاولَ النومَ لتفادي رؤيةِ هؤلاءِ الحمقى المتشبِّثينَ بحياتِهم التافهةِ، لكنَّ الترجرجَ ظلَّ يوقظُه. انتابتْهُ نوبةٌ عاتيةٌ من الضحك. ظنَّ القلائلُ الذينَ انتبهوا إليهِ وسطَ الهرجِ والمرجِ أنَّهُ منهارٌ أطارَ الرعبُ صوابَهُ، رغمَ أنَّهُ لمْ يكنْ رابطَ الجأشِ في حياتِهِ مثلما كانَ في تلكَ اللحظة.

* * *

أغلقَ البابَ وبَسَطَ لها راحتيْهِ المُرتعشتيْنِ مِن فَرْطِ الإثارةِ والتوتُّر:

"تعاليْ يا صاحبتي!"

أقبلتْ عليْهِ بشفتيْها القويَّتيْن. لا تعصى لهُ أمرًا. يا لشوقِهِ إلى شفتيْها المكتنزتيْن. لمْ يصبرْ حتَّى يدخلَ بها حجرةَ النوم. باشرَها واقفيْنِ في وضعِ العشَّاق. رُدَّتْ إليْهِ روحُه. الآنَ اطمأنَّ أنَّها لهُ.

سألتْهُ أنْ يضطجِعا. لمْ يُفلِتْها ولمْ يفرِّطْ في التحامِهِ بها. قادَها وهي تمشي بظهرِها إلى الفراشِ مُنتويًا أنْ ينيخَها برفقٍ لتضطجِعَ وهوَ فوقَها، لكنَّها

استمهلتْهُ لتتجردَ. ما أنْ حرَّرتْ ثدييْها حتَّى نفرَ كلُّ واحدٍ في جِهــةٍ كأنَّهمـا خَصمانِ أبهجَهما الفِراق. ظلَّا يترجرجانِ لحظاتٍ، ثم سَكنَا على هيئةِ هرميْنِ أحدُهما في الشرقِ والثاني في الغربِ. عاريةً استلقتْ على ظهرِها دافئةً لاهثة. شاهقةَ البياضِ رَبيلةً صبيَّةً، مثلَ فينوسِ تيتزيانو.. مثلَ أميرةِ جويـا.. مثـلَ نساءِ خاجوراهو.

وَالبَطْنُ ذُو عُكَنٍ، لَطِيفٌ طَيُّهُ،

وَالإِتْبُ تَنْفُجُهُ بِثَدْيٍ مُقْعَدِ

مَحْطُوْطَةُ المَتْنَيْنِ، غَيْرُ مُفَاضَةٍ،

رَيَّا الرَوَادِفِ، بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ

سَقَطَ النَصِيفُ– وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ–

فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِاليَدِ

غيرَ أنَّ حياةَ تعمَّدتْ إسقاطَ النصيفِ ولمْ تتناولْـهُ، بـلْ الأرجـحُ أنَّ امـرأةَ النُعمانِ نفسِها فعلتْ مثلَ حيـاةَ مـن أجـلِ الـشاعر. وبـرغمِ أنَّ النابغـةَ أقـسمَ للنعمانِ أنَّهُ لمحَ المُتجرِّدةَ عفوًا، ولمْ يتمعَّنْ فيها– ويقينًـا لمْ يـدنُ منهـا– فـإنَّ التفاصيلَ المِجهريَّةَ التي تغزَّلَ بها تشي بألَّا عفويَّةَ في الأمـرِ، وبأنَّـهُ لمْ يلمحْ امرأةَ النعمانِ عفوًا بلْ دَرَسَها على مَهَلٍ درسًا مُتَمَعِّنًا مِرارًا وتَكرارًا وعن كاملِ

رِضا، وأنَّ النصيفَ لمْ يسقطْ بلْ أُسقِطَ، وأنَّها لمْ تتناولْهُ ولمْ تتقِ، وأنَّ العُـريَ لمْ يكنْ عُريَ ثدييْنِ وحسبُ، بلْ عُريًا حتَّى الأرضِ، وأنَّ الأمرَ تجاوزَ النظـرَ إلى الحواسِ الخمسِ جميعًا، وسيدِّها اللمسِ. لـذا لا بُـدَّ للمـرءِ مـن أنْ يعـذرَ الملوكَ في أنَّهم لا يصدِّقونَ أحدًا، ولا يثِقونَ بأحد.

بعدَ حرثٍ لمْ يَطُلْ تشكَّتْ من ألمِ كتفيْهـا. رفـعَ كفَّيْـهِ عنهمـا فوجـدهما احمرًّا من ثقلِهِ، ولأنَّها مرمريَّةٌ بدا الاحمرارُ كأنَّهُ حرْق. إشفاقًا عليْها سألَها أنْ تعتليه. حذَّرتْهُ:

"أنا ثقيلة!"

"أريدُ أنْ أُسحقَ!"

في حياءٍ اعتلتَه. بدأتْ بطيئةً متعثِّرةً، لكنَّهـا تحـسَّنتْ بـسرعةٍ، ومـا أنْ استمرأتْ الوضعَ وتمكَّنتْ منهُ حتَّى ازدادَ أداؤها عنفًا وعمقًا فأوغلـتْ بـهِ في أعماقٍ لمْ يطأْها من قبلُ ولمْ يحسبْ أنَّ بوسعِ أحدٍ بلوغَها. تأوَّهتْ عاليًا جـدًّا. كأنَّها تعولُ وتنوح. ظلَّـتْ تـصرخُ حتَّـى النهايـة. آهاتُهـا أعـذبُ مـن أغنيـةِ الآهات! نفَّذتْ المشهدَ الهمجيَّ الذي حلمَ بهِ من قبلُ وعجزَ عن تنفيذِهِ كأنَّهـا حضرتْ لتلقِّنَهُ درسًا. لمْ تقنعْ بالمتعارفِ عليْهِ فراحتْ ترتجلُ لتسطُرَ تاريخًا لمْ يُسطَرْ مثلُه. ظلَّتْ تحرِقُ نفسَها بلا رحمةٍ ودونَ أنْ تتراخى لحظةً، وتكِـدُّ

وتتفانى كأنَّها تودُّ اعتصارَ اللقاءِ لآخـرِ قطـرة. احترقـتْ سـاعتيْنِ لمْ تتنـازلْ فيهما عن القيادةِ والسيطرةِ، بشَبَقٍ وغِلٍّ ونَهَمٍ كأنَّ يومًا آخرَ لنْ يُتاحَ لها معهُ أوْ كأنَّها تعوِّضُ حرمانَ عمر. استهلكتْهُ واستنفذتْه. دكَّتْهُ دكًّا بلا هوادةٍ حتَّى استغاثَ وقدْ غلى ماؤهُ وفارَ منبجِسًا من أعماقِ أعماقِهِ في نشوةٍ وألمٍ ودهشة.

متعةُ هذهِ المرَّةِ صافيةٌ رائقةٌ، متمهِّلةٌ غايةَ المَهَـلِ، عميقـةٌ أبعـدُ العمـقِ، حادةٌ كأنَّها شَفرة. نشوةُ مَنْ ضاجعَ ألفَ امرأةٍ معًا، كلًّا تتفـنَّنُ وتتفـانى لتبُـزَّ الأخريات. يغفو دائمًا فورَ أنْ يقذفَ كأنَّهُ حقِنُ وريديًّا بمُخدِّرٍ، لكنْ الآنَ وهوَ على ظهرِهِ- وحياةُ بـينَ ذراعيْـهِ متـشبِّثةٌ بـهِ وخـدُّها الأسيلُ فـوقَ صـدرِهِ- خاصمَهُ النعاسُ وجافاهُ رعبًا مـن اليـومِ المـشؤوم ِالـذي فيـهِ يُحـرمُ أبـديًّا مـن ضِجاعِها كما هوَ محتَّمٌ في حالِهما.

"رغمَ أنَّني الظالمُ وهوَ المظلومُ أحسدُهُ لأنَّهُ هوَ الذي معكِ!"

"الوجودُ معًا لا يعني أيَّ شيءٍ: السجناءُ يوجدونَ معًا!"

"لا شكَّ في أنَّهُ أسعدُ الناسِ لأنَّكِ عدتِ.."

"كلانا تَعِس!"

"لكنَّهُ لمْ يُطِقْ فِراقَكِ.."

"لمْ يُعدْني لأنَّهُ لمْ يُطِقْ فِراقي، أعادَني لأنَّ ابنتَنا أرهقتْـهُ كمـا يـزعمُ. لمْ

يُطِقْ أنْ يتكبَّدَ مشقَّةَ العنايةِ بها!"

* * *

في التليفونِ بدتْ منتشيةً. ظلَّتْ تعاتبُهُ أيَّامًا على عنفـهِ، وهوَ يتساءلُ: أنا؟! قالتْ إنَّ عظامَها مُهشَّمةٌ- كأنَّ مقطورةً سحقتْها- بلْ وتعرجُ أيضًا، غيرَ أنَّ ابتسامةً تلازمُ شفتيْها، وكلُّ مَنْ حولَها حائرونَ في سرِّ ابتسامتِها.

حالُهُ أنكى من حالِها. مُستلقٍ على ظهرِهِ وابتسامةٌ مخمورةٌ فوقَ شفتيْه. عيناهُ مفتوحتانِ، لكنْ لا تبصرانِ شيئًا في الحاضرِ، لا تبصرانِ سِوى الذكرياتِ، ذكرياتِهما معًا، ليستْ لهُ ذكرياتٌ شيِّقةٌ إلَّا معها. أجهزتْ عليْـهِ هذهِ المرَّة. فتنتهُ وسحرته. قدْ ينقلِبُ الحبُّ جنسًا، وقدْ ينقلِبُ الجنسُ حبًّا، لكنْ حينَ ينعجِنُ الحبُّ بالجنسِ والجنسُ بالحبِّ يولدُ العِشقُ وتوأمُهُ الجنون. ظلَّ منتشيًّا كأنَّها أوَّلُ امرأةٍ ضاجعتْهُ وأذاقتْهُ الكأسَ المحرَّم. حتَّى امرأتُهُ العنكبوتيَّةُ كليتيمنيسترا ضاجعَها بشهيَّةٍ ليسَ لها بلْ للجنسِ نفسِه. ضاجعَها بغِلٍّ بنيَّةِ تسيُّدِها، بنيَّةِ وطئها بمعنى أنْ تقهرَ الموطوءَ وتستعليَ عليْه. تملَّكُهُ غرورُ القوَّة. لقدْ عادَ فحلًا. ماردًا. مُمَجَّدًا. مَجْدَ أنْ تملِكَ امرأتيْنِ، إحداهما استحلَّتْ ما لا يَحِلُّ كيْ ترضيَكَ، وذبحتْ رجلَها على مَذبَحِك.

ثمَّ كانَ عليْهِ أنْ يرحلَ ويفارقَ امرأتيْه. سألَ حياةَ أنْ تعاهدَهُ أنْ تلقاهُ في

العامِ المُقبل. تلقاهُ ولا تنساهُ. ولا ترى في الوجودِ سِواهُ مثلَما لنْ يرى في الوجودِ سِواها. رجتَهُ أنْ يجعلَ عودتَهُ كلَّ ستَّةِ أشهرٍ لا كلَّ سنةٍ فلنْ تُطيقَ فراقَهُ سنة. اعتذرَ لاستحالةِ أنْ يرضى سيِّدُهُ صاحبُ العمل. لمْ تفوِّتْ حياةُ يومًا من أيَّامِ السنةِ التاليةِ دونَ أنْ تتصلَ به. في نفسِ اللحظةِ من الصباحِ يصدحُ الموبايلُ بلحنِ مونامورَ الذي قرنَهُ باسمِها.

* * *

أتى لقاءُ تلكَ السنةِ في يومِ شتاءٍ قارصِ البرد. ظلَّتْ تسعلُ. سعالُها رقيقٌ هامسٌ مثلُ صوتِها، لكنَّهُ أليمٌ مُحزِن. وحينَ تعرَّتْ راحتْ ترتجفُ فأشفقَ عليْها ورجاها أنْ تضعَ على جسمِها شيئًا.

كانت مُنهكةً وبائسةً. سنةٌ في أسرِ ذلكَ الرجلِ حطَّمتها. إنَّها سقيمةٌ منطفئةٌ بعدَ أنْ كانت نضرةً

متألِّقة.

"ما كانَ ينبغي أنْ تحضري وأنتِ على هذا الحال!"

رَمَقتْهُ بنظرةٍ معناها: ما كنتَ لتغفرَ لي!

"إنِّي بخيرٍ، اطمئن.."

"أهملَكِ ولمْ يعتنِ بكِ.."

"لا ذنبَ لهُ. أنا أهملتُ نفسي"

"منذُ متى وأنتِ هكذا؟"

"منذُ شهور"

"حدَّثتِني يوميًّا لعامٍ وكتمتِ عنِّي!"

"لعلمي أنَّ أهونَ الأمورِ تزعجُكَ"

انهارَ باكيًا.

"ليتني مُتُّ ولمْ تسعلي مرَّة!"

ربتتْ على خدَّيْهِ براحتيْها، فحوَّلَهما إلى شفتيْهِ وأمطرَهما قُبَلًا. بلَّلتْهما الدموعُ الدافقةُ من عينيْه.

لمْ يكنْ اللقاءُ عنيفًا. كانَ ناعمًا. لمْ يجدْ في قلبِهِ أوْ جسدِهِ عنفًا. بَدَتْ حياةُ هشَّةً كدُمْيَةٍ من السُكَّر. خافَ أنْ تتهشمَ تحتَ وطأتِه. لمْ تقوَ على الصراخِ أوْ حتَّى التأوُّهِ بلْ همستْ.

"إنَّهُ مؤلمٌ.. لمْ أعتدْ هذا الألم.. جعلتَني أكرهُه!"

"اكرهيه.. لا تحبِّي سِوايَّ يا حياتي، يا عشيقتي، يا مُهرتي!"

"لا أحبُّ سِواكَ، أحبُّكَ وحدَك!"

"رَدِّديها!"

"أحبُّكَ وحدَك! أحبُّكَ وحدَك!.."

رحلتْ مُمتنَّةً وقدْ رُدَّ بعضُ البريقِ إلى عينيْها. من أجلِها استوعبَ كلَّ أوضاعِ الجِماعِ المذكورةَ على النتِّ، وحفِظَ الكاما سوترا (كيفَ عاشَ ذلكَ العمرَ ولمْ يسمعْ بكاما سوترا وخاجوراهو؟!) على النتِّ لنْ تفشلَ في العثورِ على مانيوال للتلاعبِ بجسدِ مَنْ تعشق. كتبُ المهاراتِ الجنسيَّةِ لا تُحصى، أكثرُ من كتبِ المعارفِ الإنسانيَّةِ مُجتمِعةً، ومؤلِّفوها (أوْ مؤلِّفاتُها) واثقونَ (أوْ واثقاتٌ) بأنَّهم (أوْ بأنَّهنَّ) يمتلكونَ (أوْ يمتلكنَ) أسرارَ الإشباعِ والإبهارِ والإخضاعِ إلى حدِّ الاسترقاق. لنْ تستطيعَ تنفيذَ أكثرَ تلكَ الأوضاعِ ما لمْ تكنْ الأوَّلَ على صفِّكَ في اليوجا، علَّقَ أحدُ المتصفحينَ مُحِقًّا. لكنْ مَنْ يوصونَ بتلكَ الأوضاعِ يقسمونَ أنَّ الأورجازمَ الذي تحدِثُهُ يزلزلُ الدماغَ، ومَنْ سوفَ يكذِّبُهم ما دامتْ تلكَ الأوضاعُ مستحيلةً أصلًا؟! اضطُرَّ إلى دراسةِ تلكَ المراجعِ الشبقيَّةِ لأنَّ الجميعَ يستذكرونها. هذهِ مَزِيَّةُ العشَّاقِ: إنَّهم مجتهدونَ لوَعيهم بالمنافسةِ الدائرة. الأزواجُ خاملونَ لأنَّهم غافلونَ عنها.

غيرَ أنَّهُ ينسى الأوضاعَ كلَّها ما أنْ تحضنَه!

* * *

لا يشرُدُ خيالُهُ سِوى فيها. صورتُها ترتسِمُ دومًا أمامَ عينيْهِ، برضاهُ

وبرغمِه. لا يعي في الوجودِ سِواها. العالمُ وعاءٌ يحتويهـا، ولمْ يُخلَـقْ لغـرضٍ غيرِ هذا. الشمسُ والقمرُ والسماءُ والبحرُ والجبالُ والأشجارُ وكلُّ مـا يتـنفَّسُ وما لا يتنفَّسُ خُلِقَ لأجلِها، واستمدَّ وجودَهُ منها. لنْ يـتردَّدَ لحظـةً في إفنـاءِ العالمِ فداءَها. ليتَهما التقيا في كونٍ مُوازٍ، وهي عزبـاءُ وهـوَ أعـزب! أوْ ليتـهُ يكتشفُ أنَّهُ كانَ يحلمُ بأنَّها عشيقتُهُ وهيَ في الواقعِ زوجتُهُ، وحـينَ يـستيقظُ يكتشفُ أنَّها حقًّا زوجتُهُ، والأخرى– التي توهَّمَ العمرَ أنَّها زوجتُهُ– عـابرةُ سبيلٍ تمرُّ تحتَ نافذتِهِ. ليْتهما التقيا في المستقبلِ البعيدِ ألفَ سنةٍ من اليـوم. في المستقبلِ لنْ يكونَ زواجٌ، بلْ حبٌّ أوْ زِنا. بالحـبِّ يتقـدَّسُ الاتحـادُ، وبـلا حبٍّ أيُّ اتحادٍ زِنا.

كلَّ يومٍ يقسمُ لها في التليفون:

"أحيَا بصوتِكِ!"

وحينَ يكتئبُ يشكو:

"مُتُّ شَوْقًا إليْكِ! حينَ لا نكونُ معًا أشكُّ في أنِّي حيٌّ، وفي أنِّي وُجِدتُ!"

"بلْ أنتَ مأمني وملاذي، بدونِكَ أتيتَّمُ.."

"تتيتَّمينَ، هلْ تومئينَ إلى كهولتي؟!"

"لستُ أبحثُ عن أبٍ. أنتَ حبيبي!"

"لقدْ هرِمتُ يا حياة!"

"لنْ تهرمَ أبدًا!"

"وأصبحتُ قبيحًا حقًّا!"

"بلْ أنتَ من الرجالِ الذينَ كلَّما مضى بهم العمرُ زادَهم ائتلاقًا"

تُرى ماذا تفعلينَ في هذهِ اللحظةِ يا حياة؟ تُرى بِمَ تفكرينَ في هذهِ اللحظةِ يا حياة؟ تُرى على أيِّ نحوٍ تجلسينَ أوْ تستلقينَ في هذهِ اللحظةِ– أوْ في أيِّ لحظةٍ من اللحظاتِ– يا حياة؟

في تلكَ اللحظةِ ذاتِها غرَّدَ الموبايلُ لحنَ مونامور. انسابَ صوتُها أعذبَ من اللحن. صبَّح اللهُ مخترعَ الموبايلِ ومسَّاهُ بكلِّ خيرٍ: فضلُهُ على العشَّاقِ لا يُنكرُ ولا يُجحد! يا لَحظِّنا السعيدِ أنَّنا شهِدنا زمنَ الموبايل، ما أكثرَ قصصِ الحبِّ التي أُسدِلُ عليْها الستارُ في الماضي لأنَّهم كانوا بلا موبايل أوْ إنترنت!

"أينَ أنتَ الآنَ؟ وماذا تفعل؟"

تيليباثي، كأنَّهُ تخاطَبَ معها روحيًّا على بعدِ قارةٍ وسمِعتْهُ برغمِ الجبالِ والبحار! فكَّرتْ فيهِ لحظةَ فكَّرَ فيها، وسألتْ نفسَها عنهُ نفسَ الأسئلةِ التي سألَها عنها!

إنَّهُ مساءٌ وهيَ لمْ تتصلْ بهِ منْ قبلُ في المساءِ.

"أأنتِ بخير؟ لمْ تتصلي من قبلُ في هذا الوقت!"

"وقتٌ غيرُ ملائم؟"

"طمئنِّيني أوَّلًا أنَّ مكروهًا لمْ يصِبْكِ!"

"متشائمٌ دوْمًا!"

"أجلْ من كثرةِ الصدمات"

"اطمئنْ. احتجتُ إلى سماعِ صوتِكَ، هكذا فجأة!"

"كنتُ أتساءلُ في هذهِ اللحظةِ عمَّا تفعلين"

"أنا أيضًا تساءلتُ عنكَ ولهذا اتصلت"

سمعَ صوتَ طفلتِها التي استيقظتْ: "ماما، مَنْ تحدِّثين؟"

"صديقتي"

"بلْ خطيبَك!"

* * *

لمْ يفهمْ أشعارَ الغزليين إلَّا بعدَ أنْ أحبَّ حياة. توَّهمَ أنَّهُ فهِمَها، وتوَّهمَ أنَّها نُظِمتْ تَرَزُّقًا مثلَ المدائح. الآنَ أيقنَ بصدقِ كلِّ حرفٍ. والأروعُ أنَّهُ يعيشُ في حبِّها كلَّ ما عاشَهُ شعراءُ الغزلِ في كلِّ العصور. لقدْ وصفوا مَا عانوهُ حقًّا، ولمْ يكنْ ما أنشدوهُ ارتزاقًا، فالذي قالَ:

تَكَادُ يَدِي تَنْدَى إذَا مَا لَمَسْتُهَا

وَيَنْبُتُ فِي أَطْرَافِهَا الوَرَقُ النَضِرُ

صادِقٌ

والذي قالَ:

فَوَدَدْتُ تَقْبِيْلَ السُيُوْفِ لأَنَّهَا

لَمَعَتْ كبَارِقِ ثَغْرِكِ المُتَبَسِّمِ

صادِقٌ!

والذي قالَ:

وَأَفْنَيْتُ عُمْرِي بانْتِظَارِي عَهْدِهَا

وَأَبْلَيْتُ فِيْهَا الدَهْرَ وَهْوَ جَدِيْدُ

صادِقٌ!

والذي قالَ:

إنَّ الزَمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا

أُنْسًا بقُرْبِهِمُ قَدْ عَادَ يُبْكِيْنَا

صادِقٌ

والذي قالَ:

لَا أَمْسِ مِنْ عُمْرِ الزَمَانِ وَلَا غَدٌ

جُمِعَ الزَمَانُ فَكَانَ يَوْمَ رِضَاكِ

صادِقٌ!

والذي قالَ:

وَأُحِبُّهَا وَتُحِبُّنِي

وَيُحِبُّ نَاقَتَهَا بَعِيْرِي

صادِقٌ!

مِنْ قبلِها لمْ يصدِّقْ أنَّهُ محبوب. نساءٌ لمْ يكترثنَ لهُ، ونساءٌ ادَّعيْنَ حبَّهُ، وفي لحظةِ الاختيارِ اخترنَ أنفسهنَّ. وحدُها حياةُ عشِقتْهُ، حتَّى أمُّهُ ما أحبَّهُ كلَّ هذا الحبِّ. حياةُ تحبُّهُ كأنَّها ما خُلِقتْ إلَّا لتحبَّهُ، كأنَّ قدرَها يقهرُها على حبِّهِ، حتَّى حينَ اتهمَها وظلمَها ظلَّتْ تحبُّه. حينَ كانت معَهُ كانت تأتيهِ كلَّ بضعةِ أيَّامٍ بطعامٍ صنعتْهُ لأجلِه. بعدَ ساعاتِ عملِها الطوالِ بدلًا من خلودِها إلى الراحةِ كانت تقتطِعُ من سُويعاتِ نومِها لتعدَّ لهُ طعامًا يكفي قبيلةً، مختلفَ الأشكالِ والألوانِ، طيِّبًا مثلَها. بعدَ عُمرٍ ظنَّ طِوالَهُ أنَّهُ مَغبونٌ، أقنعتْهُ بأنَّهُ محظوظٌ، بلْ الأوفرُ حظًّا بينَ البشرِ.

بعدَ طولِ انتظارٍ ويأسٍ، هبطَ عليهِ ملاكٌ أُرسلَ إليهِ رحمةً مُهداةً. إنَّها في عينيْهِ أقدسُ من كلِّ القدّيساتِ، رغمَ أنَّها اصطلاحيًّا عشيقتُه. لقدْ عوَّضتْهُ عنْ كلِّ حرمانٍ قاساهُ وشفتْ كلَّ عقدِه. بلْ بدَّلتْ نظرتَهُ إلى النفيِّ نفسِهِ فما عادَ يراهُ محنتَهُ ولعنتَهُ، إذْ لوْ لمْ يُنفَ ما لقيَ حياة:

"على الجمرِ والشوكِ سِرتُ طولَ عمري، لكنْ مباركةٌ طُرُقُ الجمرِ والشوكِ ما دامتْ أفضتْ إليْكِ!"

تَأَمَّلْنَا الزَمَانَ فَمَا وَجَدْنَا
إلى طِيْبِ الحيَاةِ بِهِ سَبِيْلَا
وَزُلْنَا بِالغَلِيْلِ وَمَا ارْتَوَيْنَا
وَغَايَةُ كلِّ شَيْءٍ أنْ يَزُوْلَا
وَلَوْ لَمْ أَلْقَ غَيْرَكِ فِي اغْتِرَابِي
لَكَانَ لِقَاؤكِ الحظَّ الجَزِيْلَا

قرأَ في شبابِهِ روايةً تحكي عن عاشقيْنِ يلتقيانِ مثلَهما كلَّ عام. سخرَ حينئذٍ من الروايةِ ومن كاتبِها ومن بطليْها، والآنَ أدركَ أنَّ سخريتَهُ كانت تصديقًا للقولِ: ليسَ مَنْ يدُهُ في الماءِ كمَنْ يدُهُ في النار. لوْ وُصِفت لقاءاتُهما بصفةٍ مفردةٍ لكانت اللهفةَ. تلقاهُ بلهفةِ أسيرةٍ فُتِحَ بابُ سجنِها، ويلقاها

بلهفةِ مَنْ أُنقِذَ منَ الدفنِ حيًّا. إنَّـهُ مخلِّـصُها، وهـيَ مخلِّـصتُه. البـشرُ دائمًـا ينتظرونَ مخلِّصًا، ويعرفونهُ إذا جاءَ. هكذا عرفتْهُ وعرفَها، آمنـتْ بـهِ وآمـنَ بها، تبعتْهُ وتبعَها. لمْ يُدِنْ أيٌّ منهما صاحبَهُ لانتهاكِهِ وصايا القبيلةِ لأجلِهِ، بلْ امـتنَّ لـهُ وأجَلَّـه. لا يوصـفُ لقـاءُ مـرةً في الـسنةِ بأنَّـهُ علاقـةٌ. لـنْ يقنـعَ شهوانيَّانِ لستَّةِ أعوامٍ بحديثٍ تليفونيٍّ دونَ أنْ يتلامسا سِوى مـرَّةٍ كـلَّ سـنةٍ فالشهوةُ نَهَمٌ لا يقنعُ بهذا النُزُرِ اليسيرِ من القُرب. الأجدى أنْ يجـدَ كلاهمـا شريكًا في متناولِ اليدِ كلَّ الوقت.

لكنْ ما دامَ حبًّا لا علاقةً فما الداعي للقاءِ الجسد؟ إنَّ اللقاءَ رمـزٌ. تجديـدُ عهدٍ، وتمرُّدٌ على سجنٍ، ودليلٌ على أنَّ الفِراقَ لا يغلِبُ الحبَّ. وهوَ فوقَ كـلِّ شيءٍ المكافأةُ التي يعيشانِ في انتظارِها ومن أجلِها، محتمِليْنِ ما يُفرضُ عليْهما من سَخَفٍ وقَرَف. لمْ يتساءلا قـطُّ إنْ كـانَ ذلـكَ اللقـاءُ عبثيًّـا، ومـا إذا كانـت عبثيَّتُهُ– لا الفِراقُ– هيَ سرُّ الضياعِ الذي غرِقا فيه؟ لمْ يخطرْ ببالِهما (51) أنَّ اللقاءَ السنويَّ قدْ لا يكونُ معناهُ أنَّ حبَّهما لمْ يفتُرْ رغمَ فِراقِ سنةٍ، بـلْ أنَّهما أطاقا الفراقَ سنةً.

ومَنْ قالَ إنَّهُ يُطيقُ؟ إنَّ حسرتَهُ على فِراقِها تستنفدُهُ، تسُلُّهُ، تنخَرُ فيـه. إنَّهُ هالكٌ لا محالةَ. في أروعِ البقاعِ، بدلَ الابتسامِ تـدمعُ عينـاهُ لأنَّهـا ليـستْ

معه. كلُّ ما يُفترَضُ أنَّهُ سرورٌ ينقلِبُ إلى غمٍّ في غيابِها. حتَّى اللُقيماتُ التي يقتاتُ بها وهوَ زاهدٌ فيها ذاهلٌ عنها يعُدُّها خيانةً بدونِها. ذلكَ الجرحُ الذي لا يكفُّ عن النزفِ: ألَّا تحيا معَ مَنْ تحبُّ رغمَ يقينِكَ بأنَّهُ يحبُّك. سُمُّ غيابِها عنهُ، وحضورُها معَ غيرِه. ناهيكَ عن الرعبِ: كلُّ لقاءٍ يُنغِّصُهُ رعبُ أنْ يكونَ الأخيرَ. والذلُّ: ذلُّ عجزِكَ عنْ أنْ تبوحَ بسرِّكَ المُهلِكِ لَمَنْ يرَوْنَ حالَكَ ويسألونَكَ عمَّا بك. الحُبُّ أَهْوَنُهُ شَدِيْدٌ: يقولُ قيْس. الحبُّ سمٌّ بطيءٌ، وأحيانًا زُعافٌ:

يَا وَيْحَ أَهْلِي أَبْلَى بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ

وَيَدْرُجُ المَوْتُ فِي جِسْمِي وَأَعْضَائِي

وَيَنْظُرُونَ لِجَنْبٍ لَا هُدُوءَ لَهُ

عَلَى الفِرَاشِ، وَلَا يَدْرُونَ مَا دَائِي!

* * *

في تلكَ السنةِ انقطعتْ مكالماتُ حياةَ خمسةَ أيَّامٍ متتاليَّةٍ دونَ سابقِ إنذار. انتظرَ وانتظرَ، لكنَّها لمْ تتصلْ. لا يُعقلُ ألَّا تتصلَ مهما كانت الظروفُ، حياةُ لا تفعلُ ذلكَ بِهِ. أينَ أنتِ يا حياة؟ ماذا حدث؟ هلْ أصابتها نوبةُ ربْو؟ كانت لتتصلَ بِهِ لتطمئنَهُ حتَّى لوْ كانت عاجزةً عن التقاطِ أنفاسِها. ما لمْ تكنْ في غيبوبة. ما لمْ يكنْ ما بها يحولُ دونَ الكلامِ، بلْ والحركة. لا شكَّ في أنَّ

مصيبتَها أسوأُ منَ المرض. هلْ قُتِلتْ في حادثِ سيَّارةٍ، حوادثُ الطرقِ في الوطنِ قاعدةٌ؟ ذُعِرَ. أُسقِطَ في يدِهِ. ماذا عساهُ يفعلُ، ليْسَ لديْها فيسبوك رغمَ أنَّهُ ألحَّ عليْها كثيرًا بضرورتِهِ لكنَّها قالتْ إنَّها تكرهُ الإنترنت؟ يخشى أنْ يرسلَ رسالةً على الموبايل أوْ الإيميل فتقعَ في يدٍ غيرِ يدِها. لوْ أنَّها ميِّتةٌ لنْ يشوِّهَ ذكراها بوقوعِ رسالةٍ من مجهولٍ في يدِ أهلِها. يَعلمُ رقمَ زوجِها لأنَّها اتصلتْ بهِ مرَّةً من ذلكَ الموبايل. سوفَ يكونُ مشهدًا سيرياليًّا لوْ اتصلَ بهِ قائلًا: مساءَ الخير. أنا عشيقُ امرأتِك. ليتكَ تتكرَّمُ وتطمئنِّي عليْها لأنَّها لمْ تكلِّمني منذُ خمسةِ أيَّامٍ والقلقُ نهشَنِي ومزَّقَني؟!

الغدرُ ليْسَ شِيمتَها، لكنْ لوْ أنَّ احتمالَهُ واحدٌ في المِليونِ فالاتصالُ بها تليفونيًّا غيرُ واردٍ لشبهةِ الابتزازِ والمطاردةِ التي يحمِلُها. لنْ يُشعِرَ حياةَ أبدًا بأنَّهُ تهديدٌ أوْ نقطةُ ضعف. لنْ يكونَ كابوسَها بلْ مأمنَها. لذا لمْ يسألْها يومًا أينَ تقيمُ أوْ تعملُ حتَّى لا تأتيَ إليْهِ لا لشيءٍ إلَّا لخوفِها منْ أنْ يذهبَ إليْها. في ستَّةِ أعوامٍ- بأيَّامِهم الرابيَةِ على الألفيْنِ- لمْ تُخلِفْ يومًا بلا اتصالٍ، لذا أغرقتْهُ الأيَّامُ الخمسةُ من الصمتِ في جنونٍ وذهولٍ وصارَ حالُهُ مثلَ حالِ المجاذيبِ الذينَ يهيمونَ في الطُرُقاتِ حُفاةً عُراة. يا لَهُ من لغزٍ عصيٍّ على الفهمِ مثلِ لغزِ خلقِ الكون! أينَ أنتِ يا حياةُ، ليتني أضمُّكِ ضمةً أخيرةً ثم أموتُ، أضمُّكِ ولوْ للحظةِ؟! أوْ لا أضمُّكِ، حسبي أنْ أعلمَ بأيِّ سبيلٍ أنَّكِ

بخير. لوْ بقِيتْ في العمرِ أمنيةٌ واحدةٌ أختارُ ألا يَمَسَّكِ سوءٌ، ولأهلكْ ويهلَكْ كلُّ أهلِ الأرض.

ليلُهُ ونهارُهُ بكاءٌ، حتَّى في أحلامِهِ يبكي. اللحظاتُ التي يغفو فيها من الإنهاكِ مكتظَّةٌ بالكوابيس. متزاحمةٍ متداخلةٍ بلا معالمَ أوْ معنى. مبهمةٍ لكنَّها مؤلمة. يدركُ أنَّ ما يراهُ كابوسًا دونَ أنْ يميِّزَ لِمَ هوَ كابوس. يعلمُ وحسبُ أنَّهُ سقطَ في شَرَك كابوسٍ يأبى أنْ يُفلتَه. كلُّ إغماضةٍ- ولوْ دامتْ هُنيْهةً- تُغرَقَ في كابوسٍ عميقٍ ثقيلٍ حتَّى السحق. سفينةُ العقلِ الباطنِ ناءتْ بحِملِها، وتغوصُ حثيثًا إلى القاعِ الأسودِ، والغرقى يتلوُّونَ مثلَ أسماكٍ في شبكة.

انقلبَ عدمُ الفهمِ- وقدحُ زنادِ الفكرِ في محاولةِ الفهم- إلى ذهولٍ مثلِ ذلكَ الذهولِ الذي يُغْرَقُ فيهِ الآباءُ لوْ اختفى أبناؤهم دونَ أنْ يدروا هلْ همْ أحياءٌ أمْ أموات. اشترى سجائرَ وراحَ يشعلُ سيجارةً من سيجارةٍ رغمَ أنَّهُ أقلعَ عن التدخينِ منذُ عِقديْن. ليسَ لدخانِها طعمٌ سِوى المرارةِ المُغثيةِ فكيفَ استمتعَ بها من قبلُ، وما زالَ البعضُ يستمتعون؟!

ثم غرَّدَ الموبايلُ بلحنِ مونامورَ في اليومِ السادس. ارتجفتْ أصابعُهُ وأفلتتْ الموبايلَ- الذي ظلَّ في راحتِهِ خمسةَ أيَّامٍ لا يرفُع عينيْهِ عنهُ بانتظارِ الفرجِ-

فسقطَ على المكتبِ، ولحسنِ الحظِّ لم يُعطَب:

"أنتِ بخير؟ حمدًا للهِ أنَّكِ بخير، لقدْ ذبحتِني!.. كيفَ فعلتِ بي ذلكَ كيف؟!.. ظننتُ أنَّكِ مُتِّ!"

"كِدتُ أموتُ فعلًا. دونَ مقدِّماتٍ، كأنَّ خنجرًا طعنَني في بطني وتهاويتُ على الأرضِ شبهَ غائبةٍ. في المستشفى اكتشفوا أنَّني محمومةٌ رغمَ أنِّي لمْ أحسّ بحُمَّى، وحينَ حلَّلوا دمي وجدوني مصابةً بالتيفود. أكلِّمكَ من المستشفى. أنا طريحةُ الفراشِ لا أقوى على النهوض.

أسرتي لا تفارقني. يتناوبونَ عليَّ. انتهزتُ أوَّلَ وقتٍ غادروا فيهِ الحجرةَ لأطمئنَكَ، لكنْ سريعًا ما يعودون. لقدْ عادوا.."

في لقاءِ تلكَ السنةِ، لمْ تكنْ الفياجرا كالعهدِ بها، خذلتْهُ، وما أنْ قذفَ– بعدَ ربعِ ساعةٍ لا أكثرَ– حتَّى ارتخى إلى الأبدِ وقضيَ الأمر. لكنَّ حياةَ طمأنتْهُ إلى أنَّ ذلكَ هو كلُّ المطلوبِ لأنَّها منهكةٌ، وتحسُّ منذُ أصابَها التيفودُ بأنَّها أصبحتْ حطامًا، وأتتْ كيْ تراهُ وتكونَ معَهُ لا أكثر. زَعمَ أنَّها أكثرُ تألُّقًا من أيِّ مرَّةٍ رآها فيها. كذِبَ عليْها للمرَّةِ الأولى منذُ عرفَها. لمْ تكنْ متألِّقةً، كانتْ كسيرةً كأرملةٍ أمِّ أيتامٍ تسعى من مكتبٍ إلى مكتبٍ لصرفِ معاشِ فقيدِها، وعلى غيرِ العهدِ بها جنسيًّا كسولًا باردةً شاردةً كأنَّها محترفةٌ تتعمَّدُ أداءَ

المهمَّةِ بأقلِّ جَهد. في عينيْها انطفاءٌ لمْ يعهدْهُ، ومودَّةٌ بـلا شـغفٍ كأنَّهـا مـن أجلِ خاطرِ سالفِ الأيَّام. خمدتْ النارُ في عينيْها مخلِّفةً رمادًا في الجَفنيْن.

الجِنْسُ كَانَ مُخَدِّرًا جَرَّبْتُهُ

لَمْ يُنْهِ أَحْزَانِي وَلَا أَزَمَاتِي

أجلْ، شيءٌ كهذا. هذا قريبٌ لكنَّهُ ليسَ هوَ، فـالجنسُ يقينًـا يَـشفي، لا سيَّما مع حياةَ فإنَّهُ تِرياق. غيرَ أنَّنا الذينَ نشيخُ ونتبلَّـدُ فـلا نـستمتِعُ بـهِ ولا نُمتِع. لا يسري هذا أيضًا على حياةٍ فلـوْ ضـاجعتْ ميِّتًـا لأحيَتْـهُ، لكـنَّ تلـكَ الهامدةَ بجوارِهِ ليستْ حياةَ بلْ جَدَّتَها. لعلَّهُ يومُ نحسِهِ ونحسِها.

ليكتملَ الشؤمَ، رنَّ الموبايل: زوجَها..

"أينَ أنتِ؟"

قالتْ برباطةِ جأشٍ:

"عندَ صديقة"

طلبَ أنْ يكلِّمَ الصديقةَ ليحيِيَها.

"ليستْ الآنَ في الحجرة. لكنِّي لنْ أطلبَ منها أنْ تكلِّم زوجي: سوفَ تظنُّ أنَّهُ يريدُ أنْ يتأكَّدَ من أنَّني لا أكذبُ عليْه!"

يا للبديهةِ!

لكنَّهُ يومُ نحسٍ وشؤمٍ حقًّا!

"ما دمنا فاشليْنِ جنسيًّا وميؤوسًا منَّا، لنحتفلْ في مطعمٍ كيْ ننسى خيبتَنا!"

جلسا وحدَهما في المطعم. الكسادُ على أشدِّهِ، وسِوى مائدتِهما كلُّ الموائدِ الأخرى شاغِرة. البطالةُ تُحلِّقُ فوقَ كلِّ الرؤوس. تلمحُ وطأةَ تهديدِها في وجوهِ طاقَمِ المطعمِ، القلقُ محفورٌ في الجباهِ والعيونُ تقطرُ حَيْرة. في الماضي كانَ عليكَ أنْ تحجزَ سلفًا للجلوسِ في ذلكَ المطعمِ، لكنَّ كلَّ الأعمالِ على كفِّ عِفريتٍ الآنَ، ولا أحدَ يدري مَنْ سيغلقُ غدًا. الدعارةُ وحدُها ازدهرتْ، والمخدِّراتُ بالطبعِ سوقُها لا يكسَد.

ظلَّتْ حياةُ غائبة. عيناها زائغتانِ لا يمكنُ اقتناصُهما، كأنَّهما تتحاشى لقاءَ العيونِ كيْلا يقرأَ روحَها ويطَّلِع على سِرٍّ لنْ تبوحَ بِهِ. تأمَّلَها في حسرة:

"تذبُلينَ عامًا بعدَ عام!"

"يا لَها من تحيَّةٍ تُلقى على امرأةٍ، منذُ قليلٍ قلتَ إنَّني أجملُ مِمَا مضى!"

"تعلمينَ فجاجتي. ما زلتِ أجملَ امرأةٍ في الوجودِ، لكنَّكِ تذبُلين. مثلَ وردةٍ رائعةٍ ذابلة. كأنَّهُ يستنزفُ روحَكِ"

"هذا فِعلُ المرض.."

"لا مرضَ يفعلُ هذا. ليْسَ طيِّبًا كما ادَّعيْتِ؟!"

"كلَّا، ليْسَ طيِّبًا!.."

"آذاكِ؟ كانَ دائمًا يؤذيكِ؟"

"أجلْ، أجلْ!"

"كيف؟"

"لنْ أقول!"

"كيفَ يؤذيكِ؟"

"لنْ أقول!.."

"طالَ انتظارُنا أنْ يأتيَ الزمنُ بحلٍّ وخذلَنا، لا بُدَّ من إنهاءِ هذهِ المهزلـةِ اليوم!"

"كيفَ نُنهيها اليومَ، نهربُ فوقَ صَهوةِ جواد؟! لا هروبَ ولا أمل!"

"حياةُ أربؤُ بكِ عن هذا النفاقِ: قلبُكِ معي وجسدُكِ معَه!"

"وماذا ترى، كلُّ الحلولِ مستحيلة؟!"

"من أينَ أتيتِ بكلِّ هذا اليأس؟"

"من النضجِ، أنتَ طفل!"

"فلنحلمْ إذنْ بمعجزةٍ، لِمَ لا تحلمينَ أبدًا؟"

"لمْ أتعلَّمْ كيفَ أحلُم!"

"سأعلِّمُكِ!"

"فاتَ الأوان!"

"إذنْ سوفَ أعثرُ عليْكِ بعدَ الموتِ وأظلُّ معكِ.. في النار!"

"لِمَ تحسبُني في النار؟"

"أشقيْتِ أقوامًا بحسنِكِ!"

"قدْ لا يوجدُ شيءٌ بعدَ القبر!"

بَهتتْهُ جسارتُها. حقًّا إنَّهُ لا يؤمنُ، لكنَّهُ لا يجاهِرُ بذلكَ فليسَ كلُّ ما يُعرفُ يُقالُ، وإيمانُهُ وكفرُهُ ليْسا من شأنِ أحد. لمْ تزعجْهُ لا أدريَّةُ حياةَ، المفزعُ حقًّا جبلُ اليأسِ الذي فوقَ عاتقِها.

قالَ لنفسِهِ: إنَّني أتعامى عنْ جوهرِ الأزمة. الناسُ لا يهدِمونَ بيوتَهم التعسةَ، ولا ينسلخونَ من جلودِهم المُهترئةِ، ولا يتخلَّوْنَ عن أسرِهم الجاحدةِ، ولا يعتزلونَ وظائفَهم المقيتةَ كيْ يهربوا إلى تاهيتي مثلما فعلَ جوجان. لا أحدَ يجازفُ. لا أحدَ يجرؤُ. يفضِّلونَ تعاسةً آمنةً على سعادةٍ خطِرة.

"هلْ تحبِّينَهُ، زوجَكِ؟"

"ما هذا السؤالُ المتناقِضُ، كيفَ أحبُّهُ وأحبُّكَ؟!"

"الحبُّ ألوان.."

"حاولتُ طويلًا أنْ أحبَّهُ بأيِّ لوْنٍ، غيرَ أنِّي فشلتُ"

"لمْ تحبِّيهِ حتَّى والزواجُ في أوَّلِه؟"

"لمْ أحبّه في أيِّ وقت!"

* * *

في لحظةٍ مجيدةٍ شهِدَ معجزةً. حياةُ هيَ المعجـزةُ، معجـزةُ الحـبِّ الـتي جعلتْهُ يتشبَّثُ بالوجودِ لأنَّهـا فيـه. لا يُـلامُ مَـنْ ارتحلـوا إلى المجاهـلِ وإلى أقاصي الأرضِ بحثًا عنْ عَيْنِ الحياةِ أوْ يَنبوعِ الشباب. لا يُلامُ حتَّى مَنْ ذبحوا أضاحٍ بشريَّةً وانتزعوا قلوبَها النابضةَ أوْ أكبادَها الدافئةَ ومضغوها كيْ ينـالوا الخلودَ– ناهيكَ عمَّنْ ربطوا إحدى الخصيتيْنِ أملًا في استعادةِ شبابِهم كالشاعرِ ييتسْ– إذْ ليسَ عدلًا أنْ يُسلبَ الشبابُ هكذا غدرًا.

يستجدي النومَ فرارًا من وعيهِ، من الخوفِ واليأسِ والحيْرة. مـن سـؤالٍ ينخرُ كيانَهُ كالحفَّارِ: ما النهايةُ؟ أنا وحياةُ: ماذا تخبِّئ لنا الأيام؟ لأنَّ حياةَ أكثرَ الوقتِ لا تبدو لهُ حقيقةً، بلْ حلمًا رآهُ دونَ أنْ يكونَ لقيَهـا حقًّـا، ودونَ أنْ تكونَ سافرتْ فعلًا، وربما دونَ أنْ تكونَ موجـودةً أصـلًا. في النـومِ رأى أنَّـهُ

عادَ إلى الوطنِ وبقيَ ولمْ يرحل. لمْ يفرحْ في الحلمِ ولمْ يحزنْ، كانت مشاعرُهُ ميِّتةً. تمرَّدَ القلبُ على تتابعِ دوراتِ الفِراقِ واللقاءِ فقرَّرَ قطعَ السلسلةِ والكفَّ عن الحزنِ والفرحِ معًا. قرَّرَ ألَّا ينتظرَ شيئًا. ألَّا يخشى الفِراقَ أوْ يتلهَّفَ على اللقاء. ألَّا يتفادى الحزنَ أوْ يتطلَّعَ إلى الفرح. أنْ يتجمَّدَ كما تُجمَّدُ أجسادُ المرضى الميؤوسُ من شفائِهم على أملِ دواءٍ في المستقبل. أجلْ قدْ يعودُ آخرَ المطافِ ويجلسُ في بيتِهِ بينَ أهلِهِ، لكنَّهُ لنْ يفرحَ بتلكَ العودة. سوفَ تكونُ أفضلَ من الغربةِ والوحدةِ، لكنَّها لنْ تشفيَ القلبَ من جروحِ النفيِ الغائرةِ ويقينًا لنْ توقظَهُ منَ التجميد. ليستْ سِوى سيِّءٍ أفضلَ من أسوأ. أُرجئتْ العودةُ طويلًا جدًّا إلى أنْ ضمرتْ المشاعرُ التي نفرحُ بها أوْ نستمتع. خُصِيَ عاطفيًّا. لمْ يبقَ لهُ ولأمثالِهِ إلَّا المأكلُ والمشرَبُ كما تأكلُ وتشربُ الدوابُ المخصيَّة. لا شيءَ إنسانيًّا في هذا العبثِ سِوى حياة.

يتذكَّرُ حياةَ حتَّى قبلَ أنْ يفتحَ عينيْهِ في الصباح. حدثَ تبادلٌ للذواتِ فأصبحَ يذكرُها قبلَ أنْ يذكرَ نفسَهُ- رغمَ أنَّ المرءَ يذكرُ مَنْ هوَ أوَّلَ يقظتِهِ قبلَ كلِّ ما في الدنيا ومَنْ فيها- فكأنَّها حلَّتْ في عقلِهِ الباطنِ محلَّ ذاتِه. يفتحُ عينيْهِ ويقبِّلُ الخاتَمَ الذي أهدتْهُ إليْه. يلثُمُ رمزَ الأبديَّةِ المنقوشَ على صفحتِه. لأنَّها لمستْ الخاتمَ ذاتَ مرَّةً لنْ يفارقَ إصبعَهُ حتَّى آخرِ العمرِ، ولوْ علِمَ أنَّ زوجتَهُ بَشَرٌ لأوصى بأنْ يدفنَ معَهُ، لكنَّهُ لوْ أوصى بذلكَ سوفَ يكونُ أوَّلَ ما

تَنزعُهُ عنه. في الليلِ– قبلَ أنْ يُغمِضَ عينيْـهِ– يعيـدُ تقبيـلَ الخـاتم. فِراقُها شريانُهُ الذبيحُ الذي لا يكفُّ عن النزف. كلَّ صباحٍ يبقى مصعوقًا إلى أنْ يسمعَ صوتَها فيستردَّ بعضَ صوابِهِ، ثم يظلُّ يرنو إلى الموبايلِ بقيَّةَ اليومِ على أملِ أنْ يغرِّدَ بلحنِها. لحنِ التي يعشقُها جسدًا وروحًا: الروحَ التي تسكنُ جـسدَها، والجسدَ الذي يؤوي تلكَ الروحَ، ولوْ شاخَ جسدُها لـنْ يكـفَّ عـنْ عـشقِهِ وهـوَ شائخٌ لأنَّهُ مأوى الروحِ التي لا تشيخ. مضى العامُ كالسلحفاةِ، وها هوَ عادَ ولا حلمَ في خيالِهِ سِوى أنْ تمتلأَ ذراعاهُ ثانيةً بجذعِها الريَّان.

"ليسَ بوسعي الحضورُ هذا العامَ، لنلتقِ العامَ المقبل"

أحسَّ بأنَّ الحجرةَ ارتجَّتْ بعنفٍ، وجدرانَها تريدُ أنْ تنقضَّ فوقَه.

"لا أفهم!.."

حقًّا لا يفهمُ ما قالتْه. لعلَّهُ أخطأَ فهمَ ما قيل. مـستحيلٌ أنَّهـا قالـتْ: لـنْ أحضر!

"سوفَ نلتقي مرَّةً أخرى: لستُ مطمئنَّةً هذهِ المرَّة"

"لا بُدَّ من أنْ تأتي، تعلمينَ مغزى ذلكَ اللقاء"

"إحساسي لا يخيب. أحسُّ بأنَّ مكروهًا سوفَ يقعُ لوْ أتيتُ"

"أتدركينَ أنَّنا بـذلكَ لـنْ نلتقـيَ لعـاميْنِ، هـذا إنْ عـشتُ لألقـاكِ في العـامِ

المقبل؟"

"سوفَ تعيش.."

صقيعُ صوتِها نخرَ أذنَه. صوتُها لا يشبهُ صوتَها، إنَّها امرأةٌ أخرى. لوْ قالتْ ما قالتْهُ بنبرةِ حزنٍ، أوْ حسرةٍ، أوْ حتَّى اعتذارٍ لأوهمَ النفسَ بصدقِها، رغمَ يقينِهِ بأنَّ العذرَ الوحيدَ الذي يمنعُ حياةَ التي يعرفُها عن لقائهِ هوَ الموت. لكنَّ تلكَ المرأةَ ليستْ حياة!

كأنَّهُ أوثِقَ بحجرٍ عملاقٍ يهوي من السماءِ السابعةِ إلى الأرضِ السابعة. هلْ قالتْ لنفسِها أخيرًا إنَّ اللقاءَ عبثيٌّ؟ لمْ يخالجْهُ شكٌّ في أنَّ العلاقةَ حتمًا سوفَ تنتهي ذاتَ يوم. حبُّهُ سوفَ يدومُ، أمَّا العلاقةُ فلنْ تصمدَ: يومًا ما لنْ تأتيَ إلى موعدِه. غيرَ أنَّهُ لمْ يتخيَّلْ أنْ يكونَ ذلكَ اليومُ يومًا من هذهِ السنة.

"كيفَ لمْ تأتِ للقائي؟! وإن كانَ الهجرُ ما انتوتْ، كيفَ لمْ تأتِ لوَداعي؟! لوْ خُيِّرتُ بينَ أنْ ألقاها وأموتَ– وبينَ أنْ أخلدَ ولا ألقاها– لعانقتُ موتي لألقاها، فلِمَ الغدر؟!"

تتوهَّمُ بعدَ أنْ تضاجعَ امرأةً أنَّكَ امتلكتَها، غيرَ أنَّ النساءَ سرابٌ وأعصى من سراب. ما ينبغي لهُ أنْ يستجديَها لأنَّ قرارًا كالذي اتَّخذتْهُ لا يكونُ وليدَ اللحظةِ، بلْ الأرجحُ أنَّها تأمَّلتْهُ مَليًّا وتدبَّرتْهُ طويلًا، ولذلكَ بدتْ شاردةً في

اللقاءِ الأخير. لقدْ عـادتْ إلى صـديقِها علـى الأرجـحِ، هـذا مـا حـدث. لـستِّ سنينَ– منذُ رحلتْ أوَّلَ مرَّةٍ– ظلَّ ينتظرُ تلكَ الطعنـةَ الـتي أدركَ أنَّهـا لا بُـدَّ آتيةٌ. آجلًا أوْ عاجلًا سوفَ ينتزِعُها رجلٌ تراهُ كلَّ يومٍ من رجلٍ تراهُ كلَّ سنة.

أحسَّ بأنَّ قبضةً من حديدٍ– مثلَ تلكَ الكرةِ الحديديَّةِ الـتي يقوِّضـونَ بهـا الأبنيةَ– نكزتْهُ في صدرِهِ وهشَّمتْ عظمةَ القَصِّ.

* * *

مَا كانَ أجرُ شـهرٍ في الـوطنِ ليبقيَـهُ ليلـةً في هـذا المستـشفى الفـاخرِ لـولا السفرِ، لولا المنفى الذي تبيعُهُ حياتَـكَ جديـدةً لتعـودَ فتـشتريَها مـستعملةً. انسدَّ شَريانُ القلب. لمْ يلُمْ حيـاةَ في سـريرتِهِ: عَفَـا اللهُ عَـنْ لَيْلَـى وَإِنْ سَـفَكَتْ دَمِي!. لمْ تروِّعْهُ مداعبةُ حاصدِ الأرواحِ الفجَّةُ لأنَّـهُ يحتقـرُ ذعـرَ البـشرِ مـن غاصبٍ لنْ يعلموا بأنَّهُ سلبَهم– في وجودي لا يوجدُ موتٌ، وفي وجودِ الموتِ لنْ أوجدَ– ولأنَّهُ تشبَّثَ بالوجودِ لأنَّ فيهِ حيـاةَ والآنَ الوجـودُ خـواء. لمْ يحزنْـهُ الرحيلُ إلَّا لأنَّ حياةَ سوفَ يؤلِمُها رحيلُهُ، ولوْ لأنَّهُ حبُّهـا الـذي تجاوزتْـه. سوفَ يضعونَ في الـشَريانِ دَعامـةً، لكـنَّهم أدخلـوهُ العنايـةَ المركَّـزةَ أوَّلًـا لأنَّ ضغطَهُ 120/180

"هلْ أهملتَ في تناولِ دواءِ الضغط؟"

عاتبتْهُ أمُّهُ الميِّتةُ الغاضبة.

"أبدًا واللهِ، بلْ أصبحتُ أحتاجُ نوعيْنِ منهُ وأبتلعُهما بانتظام!"

أقسمَ لأمِّه.

(كيفَ علِمتْ بأنَّهُ مصابٌ بارتفاعِ الضغطِ وهوَ لمْ يُصبْ بهِ إلَّا بعدَ موتِها؟!)

بعضُ الجروحِ لا تُشفى، أعصاها موتُ الأمِّ، ويُخلِّفُ عاهةً لوْ مضتْ دونَ أنْ تراها وهي تمضي أوْ تحضرَ دفنَها مثلما حدثَ له. متى كانتْ الجِنازةُ التي لمْ يحضرْها؟ منذُ دهر. لمْ يزرْ قبرَ أمِّهِ حتَّى الآن. لمْ يسعِفْهُ وقتُ الإجازةِ الضيِّق. في الشتاتِ يَعُدُّ المرؤُ نفسَهُ بارًا لوْ حضرَ جِنازةَ أمِّهِ، ومحظوظًا لوْ حضرَ زِفافَ ابنتِه. ينبغي لِمَنْ ينوي الزواجَ أوْ الموتَ أنْ يضبطَ ذلكَ معَ الإجازاتِ السنويَّة.

منَ المحالِ بعدَ اليومِ أنْ يحتفظَ بحياةَ مهما تشبَّثَ بها، لقدْ سبقَها فراسخَ على دربِ الموت. الموتِ الذي يسعِفُ العاني بالراحةِ والرحمةِ، لكنَّ الطريقَ إلى الرحمةِ مفروشٌ بالجمر. لم يُقدَّرْ لهما أنْ يعيشا معًا، فلا أقلَ من أنْ تشهدَ احتضارَهُ وتعلمَ أينَ قبرُهُ، لكنَّ العبثيَّةَ أنَّ حياةَ لنْ تعلمَ بموتِهِ في ساعتِهِ، ولنْ تجدَ قبرَهُ أبدًا لوْ علِمت. سوفَ تزورُهُ وتحزنُ عليْهِ حتَّى لوْ كانتْ خانتْه. يعرفُ قلبَها الطيِّب. لكنَّها لنْ تجدَ القبرَ أبدًا. سوفَ تحرصُ

زوجتُهُ على ذلكَ لأنَّها لا تريدُ أنْ يعطفَ عليْهِ أحدٌ حتَّى وهوَ ميِّت. العبثُ نفسُهُ لوْ ماتتْ حياة. لنْ يجدَها. رسميًّا هما غريبانِ في الحياةِ وفي الموتِ، وليسَ أظلمُ من هذا شيء.

"أعتذرُ يا حياة. يبدو أنَّ الموتَ سوفَ يجبرُنِي على فراقِكِ، وقد لا يوجدُ شيءٌ بعدَ القبرِ– كما قلتِ– فلا ألقاك!"

شمسُ وجودِهِ تغوصُ نحوَ المغيبِ، وهوَ يلهثُ في ركضٍ محمومٍ كيْ يلوذَ بكهفٍ قبلَ أنْ تُغرَقَ السماءُ والأرضُ في السواد. ليسَ الفناءُ ما يخشاهُ بلْ الاحتضارُ، ذلكَ التعذيبَ المقترنَ بإزهاقِ الروح. وما بعدَ الاحتضارِ: يكفُّ القلبُ عن الخفقانِ فيموتُ المخُّ بعدَ خمسِ دقائقَ من انقطاعِ الدمِ عنهُ، لكنْ يا لرعبِ تلكَ الدقائقِ الخمسِ التي يعي المرءُ فيها أنَّهُ ميِّت. الأبشعُ أنَّ نشاطَ المخِّ الكهربائيِّ لا يتوقَّفُ إلَّا بعدَ يومٍ كاملٍ من توقُّفِ القلبِ فما أفظعَ أحلامَ ذلكَ اليوم. وماذا لوْ أنَّ أجسادَ الموتى تحسُّ وهم يمرُّونَ بكلِّ مراحلِ التيبُّسِ ثم التحلُّل؟ ينبغي أنْ تُجرى تجاربُ لحسمِ هذا السؤال، وإنْ ثبتَ أنَّ الموتى حقًّا يتألَّمونَ فلا بُدَّ من إيجادِ وسيلةٍ لإماتتِهم ميتةً أعمقَ، أوْ تخديرِهم بحيثُ لا يشعرون. المرءُ يقاومُ ويراوغُ ويفِرُّ طالما هوَ حيٌّ، لكنَّهُ بلا حولٍ ولا قوَّةٍ وهو ميِّتٌ، ولنْ يسعَهُ أنْ يقاومَ أوْ يراوغَ أوْ يفِرَّ من الفزعِ المتربِّصِ بهِ. أدخلوا

الدَعامةَ من جانبِ بطنِهِ. لمْ يبالِ بالمرضِ وبالألمِ وبتهديدِ الفناءِ، غيرَ أنَّهُ رفضَ أنْ يُسيغَ بطولةً على لا مبالاتِه. لا بطولةَ في المرضِ أوْ في مداواتِهِ، لا بطولةَ في الصبرِ على أوجاعِهِ، أوْ حتَّى في التماسكِ أمامَ الموتِ المُنقَضِّ في أعقابِه. البطولةُ لا تكونُ إلَّا في الأفعالِ التي نسعى إليْها لا في ردودِ الأفعالِ إزاءَ ما يسعى إليْنا، في الأفعالِ التي نختارُها لا التي تختارُنا.

العنايةُ المركَّزةِ بأسرَّتِها الجافةِ الضيِّقةِ التي يمقتُها ويفضِّلُ عليها أنْ يُطرَحَ أرضًا. كلَّما اتَّصلتْ حياةُ تعجَّبتْ من صوتِهِ الخفيضِ المنهكِ فيتعلَّلُ بأنَّ الإنفلونزا هي السبب. لوْ علمتْ بالدَعامةِ لحضرتْ ولوْ قامتْ القيامةُ. سوفُ تُهرَعُ إليهِ حتى لوْ كان سِرُّ إخلافِ الموعدِ أنَّها خانتْه. لا تقفزُ حياةُ من سفينةٍ غارقةٍ، بلْ تقفزُ في سفينةٍ غارقةٍ لوْ ظنَّتْ أنَّ بوسعِها إنقاذُ قِطٍّ. ليسَ في دمِ حياةَ قطرةُ حقارة. لهذا عشِقَها ولمْ يعشَقْ في العمرِ سِواها: لأنَّها نبيلة. لمْ يلحظْ على أبنائهِ حينَ زاروهُ أيَّ جزعٍ أوْ حزنٍ أوْ حتَّى انزعاج. ظلُّوا مُنكبِّينَ على موبايلاتِهم كالعهدِ بهم. من بابِ حفظِ ماءِ الوجهِ افترضَ أنَّهم قلقونَ دونَ أنْ يبدوَ عليهم القلق. الأبناءُ؟ الأبناءُ بعضٌ منكَ حقًّا، لكنَّكَ لستَ بعضًا منهم، لذا لا تستجدِ عطفَهم.

امرأتُهُ دخلتْ بلا سلامٍ ولا كلام، وجلستْ كالصنم. بعدَ انقضاءِ دهرٍ

سألتْ ببرودٍ عن حالِهِ كأنَّها تمُنُّ عليه. كأنَّها بخيلٌ أعطى سائلًا لحوحًا على مضض وبعدَ تردُّدٍ. ليتها تبكي الآنَ، أوْ تدَّعي البكاء. أليسَ هذا أنسبُ ظرفٍ للبكاءِ وزوجُها في العنايةِ المركَّزة؟ أمْ سوفَ تنتظرُ موتَهُ لتذرفَ بضعَ قطراتٍ من الماء؟ لكبريائها البغيض وغِلظةِ طبعِها، لمْ تسألْهُ قَطُّ عن حالِهِ ولوْ مرَّةً في العمرِ، وأرضعتْ أبناءَها ذلكَ العقوقَ والبخل. بعضُ الناسِ لمْ تُقَدّْ قلوبُهم من معدِنِ الرحمةِ، وحتَّى لوْ سألوكَ عن أحوالِكَ- أوْ تمنَوْا لكَ السلامةَ والعافيةَ- لا يبدونَ مُقنِعين.

لمْ ينظرْ إليها. ظلَّ ينظرُ إلى الأمام. لمحَها بطرفِ عينِهِ على الرغمِ منه. مثلُ بطلةِ مسرحيَّةِ تشيكوفَ التي لا ترتدي سِوى السوادِ لأنَّها في حدادٍ على حياتِها، الجالسةُ بجوارِ سريرِهِ- رغمَ أنَّها لا ترتدي السوادَ- تعطي انطباعًا دائمًا بأنَّها ترتديه. طِوالَ عشرتِهما ظلَّ يراها مُتدثِّرةً بسواد. غمغمَ:

وَمِنْ نَكَدِ الدُنْيَا عَلَى الحرُّ أَنْ يرَى

عَدُّوًا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

سألتْ بتحفزٍ:

"ماذا؟"

"صلاة!"

"ومتى آمنتَ؟!"

في لحظةٍ آتيةٍ سوفَ تنفضُّ هذهِ الشركةُ الكابوسيَّةُ: لحظةِ موتِهِ، عِتقِهِ. وإلى أنْ يُعتَقَ لنْ تُسعِفَهُ الأرملةُ السوداءُ كليتيمنيسترا بقطرةِ رحمة. لعلَّ أكرمَ مصيرٍ أنْ يفارقَ الدنيا الآنَ انطلاقًا من هذا المستشفى الفخم. استأنفَ صمتَهُ، واستأنفتْ صمتَها. الصمتُ معها من ذهبٍ حقًّا. ما جدوى الكلام؟ ألكيْ يستأنفا المسامرةَ المنقطعةَ منذُ عشرةِ أعوام؟ ألكيْ يثرثرا ثرثرةَ مَنْ يروقُ بعضُهم لبعضٍ ويتكلَّمونَ من أجلِ أنْ تتعانقَ العيونُ وتتحرَّكَ الشفاهُ بأصواتٍ لا ينصتُ إليْها أحدٌ؟ أيُّ حديثٍ وكلٌّ لا يطيقُ صاحبَه؟ الحديثُ كأنَّكَ تنكأُ قشرةَ جرحٍ عميق. لنْ يعجبَهُ كلامُها، ولنْ يعجبَها كلامُه. أيُّ حديثٍ جديدٍ سوفَ يضاعفُ الحَنَقَ والاحتقارَ المتجذِّريْن. ما الذي يُؤمَلُ إصلاحُه؟ لمْ يكنْ بينهما طيِّبٌ وفَسَدَ.

* * *

لا أحدَ ينتظرُهُ في المطارِ وهوَ عائدٌ كلَّ سنة. يستقلُّ التاكسي، ويصعدُ الدرجَ ويسمعُ من خلالِ البابِ الموصدِ نحيبَها العالي احتفالًا بعودتِهِ- أوْ حدادًا عليْها- هكذا تستقبلُهُ كلَّ عام. وكلَّ عامٍ تمنَّى أنْ يصفعَها صارخًا: لِمَ تبكينَ يا لبؤة؟! غيرَ أنَّهُ لمْ يصفعْها ولمْ يسألها. سنواتٍ إثرَ سنواتٍ لا ينتظرُهُ أحدٌ، ومن خلفِ البابِ يسمعُ عويلَها. لعلَّها- لوْ سألَها- لاعتذرتْ

بأنَّها تبكي مثلما يبكي طفلٌ تائهٌ أعادوهُ إلى أبيه. تبكي لأنَّها صمدتْ وتماسكتْ وأماتتْ قلبَها طيلةَ العامِ وحانَ وقتُ التهالُكِ والانهيارِ والانفجار. تبكي لتوقظَ قلبَها من بَياتِهِ الشتويِّ مثلما تُصدَمُ القلوبُ الهامدةُ بالكهرباءِ لإنعاشِها. لكنَّهُ لمْ يشأْ أنْ يسألَها، لمْ يشأْ أنْ يبرِّئَها، لمْ يشأْ أنْ يغفرَ لها بكاءَها يومَ عودتِهِ مهما كانَ العذر.

الإجازاتُ التي دمَّرتها من مطلعِ الصبح. التي تبدَّدتْ في نكدٍ، وبدلًا من أنْ تنعشَ الروحَ بارحتْها هشيمًا منبتًّا. العطلاتُ التي ودَّ اعتصارَ كلَّ لحظةٍ فيها حتَّى آخرِ قطرة. لنْ يغفرَ لها تبديدَ يومٍ واحدٍ مما بددتْ، وهوَ يرقبُ محسورًا ضوءَ النهارِ يخفتُ وينطفئُ، اليومَ يُسلَبُ، الشمسَ تذوبُ وتتلاشى كشمعة. لنْ يغفرَ تبديدَ ساعةٍ أوْ دقيقةٍ أوْ لحظة. تلكَ الأوقاتُ كانَ ينبغي لها أنْ تُسعِدَ، ونقيضًا لذلكَ أشقت. ذلكَ العمُر الذي أحرقتْهُ ولمْ تشفقْ عليْه..

في النقاهةِ فُرِضَ عليهِ ضيفٌ ثقيلٌ اسمُهُ الإنهاك. بطاريَّةُ الجسمِ نفذَ شحنُها. بلْ أعطِبتْ ولا يُرجى أنْ تستعيدَ عافيْتَها ولوْ وُضِعتْ في الشحنِ سنة. صوتُهُ هامسٌ ومهما حاولَ لا يستطيعُ رفعَهُ، والمضحكُ أنَّهم نهوهُ عن الصراخِ كأنَّهُ يستطيع. قلبُهُ مُهترئٌ ولوْ صرخَ سينشقُّ مثلَ ذلكَ الزِقِّ العتيقِ الذي حذَّرَ المسيحُ من أنْ تُخزَنَ فيهِ خمرٌ جديدةٌ، ذلكَ التشبيهُ من عندِهِ لا من

(62)

الأطبَّاء. أُعيدَ إلى بيتِه. مثلما يُصوَّرُ هاملتُ متأمِّلًا جمجمةً، يتأمَّلُ هوَ ذلكَ الفازَ الثمينَ الذي اقتناهُ بثمنٍ باهظٍ وأخفى عنْ امرأتِهِ ثمنَهُ لأنَّها كانتْ لـتملأَ الدنيا عويلًا ونواحًا لوْ أخبرَها. إنَّهُ نفيسٌ وهشٌّ ذلكَ الفازُ الكريستالُ الذي لوْ أفلتَهُ وارتطمَ بالأرضِ سيتشظَّى، ولوْ كانَ خشبًا لما تأذَّى. الحياةُ هـشَّةٌ مثلُـهُ وأثمنُ منه.

لكنْ ليسَ بوسعِهِ أنْ يمرضَ أوْ ينقهَ أطولَ من هذا. تلكَ رفاهيةٌ لنْ يتسامحَ سيِّدُهُ إزاءَها. لوْ طارَ الخبرُ إلى المنفى بأنَّهُ أجـرى قـسطرةَ قلـبٍ سـوفُ يُـدمَغُ غيرَ لائقٍ للعمل. في أعقابِ الدَعامةِ بدأتْ امرأتُـهُ تحـومُ بخبـثٍ حـولَ فكـرةِ السفر. مهَّدتْ بأنَّ البلدَ مقبلٌ على أيَّامٍ عصيبةٍ، ثم أثنتْ بالحديثِ البالي عـن أنَّ في عنقِهِ مسئولياتٍ، وسوفَ يقوِّيهِ اللهُ ليضطلعَ بها. ثم بشَّرتْهُ بأنَّ ابنتَـهُ– تنسِبُ الأبناءَ إليْهِ وحدَهُ كلَّما وقعتْ واقعـةٌ– سـوفَ تُخطَـب. عمرُهـا تـسعةُ عشرَ عامًا فيا للهول! فيما بينَهما اتفقتْ الابنةُ مع أمِّها على أنْ تُخطَبَ حضرَ أوْ لمْ يحضر. حينَ كانَ في المستـشفى زارَهُ شـابٌ مهـزولٌ فـوقَ عينيْـهِ نظَّـارةٌ طبيَّةٌ، قدمتْهُ ابنتُهُ بوصفِ الزميلِ والصديق. تمنَّى ألَّـا يكـونَ الخاطـبُ زائـرَ المستشفى، لكنَّ الرياحَ عصفتْ بأمانيه:

"أتذكرُ الشابَ الذي زاركَ في المستشفى؟ إنَّهُ مَنْ يريدُ خِطبةَ ابنتِك"

"كلاهما قصيرُ النظرِ وسوفَ ينجبانِ لنا أحفادًا عُميًا!"

اختلى بابنتِهِ وسألَها:

"هلْ أنتِ واثقة؟"

"واثقةٌ بأنَّهُ طيِّبٌ ويحبُّني"

"نجرمُ بحقِّ أنفسِنا إذا تزوَّجنا الناسَ لا لشيءٍ إلَّا لأنَّهم طيِّبونَ ويحبُّوننا!"

"أليسَ هذا كافيًا؟"

"يقينًا لا يكفي. أواثقةٌ بأنَّهُ سوفَ يعجبُكِ بعدَ سنين؟ ألنْ تندمي يومًا على أنَّكِ تزوَّجتِ أوَّلَ خاطب؟"

"لوْ ندمتُ لنْ أستمر.."

"ليستْ لعبةً، حياتُكِ ليستْ لعبة: هذهِ الأخطاءُ لا يمكنُ إصلاحُها!"

"الأمرُ ليسَ بهذا السوءِ فلسنا مثلَكم. نحنُ جيلٌ لا يطيقُ النفاقَ، والإصرارُ على التشبُّثِ

بالزواجِ بعدَ موتِ الحبِّ نفاقُ مصالح"

"أشتمُّ رائحةَ انتهازيَّةٍ فيما تقولينَ، مسمعُهُ غيرُ أخلاقيٍّ!"

"لأنِّي لا أؤمنُ بالديمومة؟ جيلُكم يؤمنُ بأنَّ كـلَّ شـيءٍ إلى الأبـدِ، وجيلُنـا يعلمُ ألَّا شيءَ إلى الأبـدِ ولا يـرى مأسـاويَّةً في ذلـك. أنـتم تـصلِحونَ الأجهـزةَ القديمةَ، ونحنُ نرميها"

وكأنَّ الوطنَ أبى إلَّا أنْ يودِّعَهُ بركلةٍ أخيرةٍ: في امتحانِ التأهُّلِ للجامعةِ لمْ يحقِّقْ ابنُهُ الدرجاتِ المأمولةَ رغمَ أنَّهُ كانَ يعُدُّ تفوُّقَ ابنِهِ من المُسلَّمات.

"إنَّهُ نبيهٌ فكيفَ أخفقَ هذا الإخفاق؟!"

"تعمَّد ألَّا يحقِّقَ درجاتٍ مرتفعة!"

"تعمَّدَ؟!"

"أجلْ، هذا ما يقول"

"لماذا، هلْ هوَ مجنون؟!"

"كلَّا، إنَّهُ يعاندُك. أعترفَ لأختِهِ بأنَّهُ يبحثُ عمَّا يزعجُكَ ويفعلُه!"

"يعاندُ نفسَهُ، لقدْ دمَّرَ مستقبلَه"

"لنْ نلقيَ بهِ في إحدى الكليَّاتِ التافهةِ وبعدَ التخرُّجِ يجلـسُ عاطلًـا علـى قهوة. لا بُدَّ من أنْ يدرسُ ما يحبُّ مهما كلَّفَ الأمر"

نظرَ إلى السقفِ وهتف:

"لمَ تضطهدُني وحدِي: أنا أبني وأنتَ تهدم؟!"

رأى في منامٍ أنَّهُ معَ أسرتِهِ على شاطئِ نهرٍ، وبالشاطئِ حفرٌ عميقةٌ يمشونَ بينَها ويكادونَ أنْ يسقُطوا فيها. ورأى في منامٍ أنَّهُ يهوي من قمَّةِ جبلٍ، غيرَ أنَّهُ يظلُّ يهوي ويهوي بلا نهايةٍ إلى حدِّ أنَّهُ تمنَّى أنْ يرتطمَ بالأرضِ ويُسحَقَ لينتهيَ الانتظار.

مَا أنْ يرحلَ إلى منفاهُ حتَّى يعاودَهُ خيالُ الأرضِ التي سوفَ يبني فوقَها بيتًا. تلكَ سَلواهُ: ما أنْ (64)

يحِزَّ نصلُ الغربةِ حلقَهُ حتَّى يطيرَ في خيالِهِ إلى تلكَ الأرضِ ويُحلِّقَ فوقَها فيَذهَلَ عن نزفِهِ. ذلكَ البيتُ هوَ العزاءُ والأمل. لا بُدَّ من أنْ يكونَ لكلِّ إنسانٍ أرضٌ فوقَها بيْت. مَنْ حُرِمَ هذا يحسُّ أبدَ الدهرِ أنَّهُ شريد.

* * *

أخبرتْهُ حياةُ بأمرٍ ليسَ في الحُسبان. أخبرتْهُ بتعاقدِها للسفرِ مجدَّدًا. سوفَ تأتي. وَجَمَ..

"كأنَّما أحزنَكَ أنِّي آتية!"

ما عادَ في عشقِهِ فرحٌ ولا حزن. لا راحةَ في بعدٍ أوْ قرب. رعبٌ في كلِّ الأحوال.

إِذَا وَعَدَتْ زَادَ الهوَى لانْتِظَارِهَا

وَإِنْ بَخَلَتْ بالوِعْدِ مِتُّ عَلَى الوَعْدِ

وَإِنْ قَرُبَتْ دَارًا بَكَيْتُ، وَإِنْ نَأَتْ
كَلِفْتُ، فَلا بِالقُرْبِ أَسْلُو وَلَا البُعْدِ

ما زالتْ تحدِّثُهُ بعشمٍ كأنَّها لمْ تغدرْ بـه. بعـضُ مَـنْ تعاشِـرُهم تعـرفُهم ويعرفونكَ معرفةَ حُضورٍ وشُـهود. إنَّـكَ العـارفُ بهـم- مثلمـا يـدَّعي بعـضُ الصوفيَّةِ أنَّهُ العارفُ باللهِ- والذينَ تعرفُهم على هذا النحوِ لا تساورُكَ شـكوكٌ حولَ دوافعِ سلوكِهم، بلْ تعلمُ علمَ الـيقينِ لِـمَ فعلـوا ولِـمَ لمْ يفعلـوا، ويقينُـهُ الجازمُ أنَّ إخلافَ الموعدِ لمْ يكنْ لأنَّها خافتْ، بلْ لأنَّها خانتْ.

تمالكَ جَيَشانَ المشاعرِ المتصارعةِ في صدرِه:

"بلْ أذهلني النبأُ السعيدُ وألجمَ لساني. متى تصلُ الطائرةُ كيْ ألقاكِ؟"

"لنْ تلقاني، مقرٌّ عملي في المدينةِ المقدَّسة"

"كفى سخفًا!"

"بلْ قُضيَ الأمرُ وسوفَ أقيمُ في المدينةِ المقدَّسة"

"إنَّها على بعدِ ألفيْ ميل!"

"عُدنا في القارةِ ذاتِها، وهذا إنجاز"

"إنجازٌ بأيِّ معيار؟!"

"بمعيارِ الحبِّ، هلْ تستكثرُ ألفيْ ميلٍ لتلقاني؟"

"أصعدُ إلى القمرِ كيْ ألقاكِ، لكنْ ألمْ يكـنْ أفـضلَ جـدًّا أنْ تعـودي إلى هنـا لنكونَ معًا كلَّ يوم؟"

"هكذا أفضل"

"أفضلُ لِمَنْ؟!"

"لك.."

كَفَّ عن الجدلِ لشعورِهِ بأنَّ مجادِلتَهُ ليستَ حياةَ بلْ امرأتَهُ، بكلِّ عنادِها وتحفُّزِها وتصيُّدِها للخلافِ والشِقاق.

"نويْتُ زيارةَ الصرحِ المقدَّسِ والتوبةَ فيه"

"لكنَّكِ كافرة!"

"لستُ كافرة!"

"قلتِ إنَّهُ قدْ لا يوجدُ شيءٌ بعدَ القبر.."

"وما زلتُ لا أدري، لكنْ ما الضررُ في أنْ أتوبَ فقدْ يوجدُ شيء!"

"هذا نفاقٌ، ولمْ أعهدْكِ منافقة!"

"لكنَّني حقًّا لا أدري!"

استعادَ ذكرى رحلةِ التوبةِ التي أفسدَها. بعدَ الـسفرِ الطويـلِ لا بُـدَّ قبـلَ دخولِ المدينةِ المقدَّسةِ من اجتيازِ غابةِ الأشجارِ المتحجِّرةِ والمبيتِ فيها لجمعِ

أوراقِ الشجرِ المتساقطةِ، وهي بالطبعِ أوارقٌ متحجِّرةٌ مثلُ أشجارِها، والعثورُ عليْها جِدُّ عسيرٍ لأنَّكَ لا بُدَّ من أنْ تلتقطَها في الظلامِ، ولأنَّها تتناقصُ عامًا بعدَ عام. تلكَ الغابةُ التي كانت خضراءَ يومَ وطأَها الصالحونَ، والتي ما زالَ انطباعُ أقدامِهم المباركةِ محفوظًا في أديمِها المتحجِّرِ، ويقالُ إنَّها سوفَ تخضرُّ ثانيةً وتورقُ أوراقًا حيَّةً حينَ يجتازُها مبارَكٌ بحقٍّ، وباخضرارِها ينتهي الزمن. شيءٌ لسعَ كاحلَهُ لسعةً بُثَّ فيها ألمٌ بارقٌ وكهرباءُ وارتعاش. لمْ يبصرْ ما لدغَهُ في الظلام. احمرَّ الكاحلُ وتورَّمَ تورُّمًا هائلًا فعجزَ لشهريْنِ عن ارتداءِ حذاء. أكانَ ثعبانًا أمْ عقربًا أمْ نباتَ القرَّاص؟ لمْ يجدْ في كاحلِهِ أثرَ نابٍ أوْ ذَنَبٍ أوْ شوكةٍ، ولنْ يفهمَ أبدًا ما حدث.

حذَّرَ حياةَ من الغابةِ الحجريَّةِ، لكنَّها اجتازتْها سالمةً دونَ أنْ تُلدَغ. عليْها الآنَ أنْ تصعدَ الصَرْح. الصرحُ مكوَّنٌ من مئاتِ الحلزوناتِ الصاعدةِ بلا نهايةٍ، وعلى التائبِ أنْ يواصلَ الصعودَ حتَّى تخورَ قواهُ، وكلَّما كانَ ارتقاؤهُ أعلى عُدَّتْ توبتُهُ أصدق. ظلَّ يتواصلُ مع حياةِ بالموبايلِ ويشجِّعُها ويشدُّ من أزرِها. السالفونَ تسلَّقوا الصرحَ دونَ موبايلْ أوْ جي بي إسْ فضلَّ كثيرونَ طريقَهم وهلكوا دونَ أنْ ينتبهَ إليهم أحد. استغاثةٌ من الموبايلِ كانت لتنقذَهم، أوْ كانَ الجي بي إسْ ليهديَهم، غيرَ أنَّ هذهِ التكنولوجيا لمْ تتحْ للآباءِ والأجداد. لمْ تتحْ إلَّا في هذا الزمن. رغمَ ذلكَ ظلَّ حرسُ الصرحِ

يكابرونَ، ويحرمونَ التائبينَ من طوقِ النجاةِ هذا بزعمِ أنَّ مَنْ لمْ يهدِهِ ضميرُهُ فما لهُ من هاد. غيرَ أنَّ الحرسَ ما لبثوا أنْ رضخوا وسمحوا باصطحابِ الموبايل بعدَ أنْ رسَّخَ نفسَهُ كعضوٍ من أعضاءِ جسمِ الإنسان.

"في أيِّ حلزونٍ أنتِ؟"

"السادسِ والعشرين"

"ارتقي أعلى من هذا"

"كَلَّلتُ، وخارتْ قواي"

"تجلَّدي وتحمَّلي"

"هناكَ جثث!"

أجلْ هناكَ جثثٌ لا مناص. في صعودِهِ تعثَّرَ في جثثٍ كثيرة. مَنْ زلَّتْ أقدامُهم فهووا من حالقٍ، ومَنْ تدافعوا فسحقَ بعضُهم بعضًا لطمعِ كلٍّ منهم في الارتقاءِ أعلى من غيرِه. البعضُ قتلَهم الإنهاكُ، والبعضُ لمْ تحتملْ قلوبُهم الارتقاء. والبعضُ داستْهم الأقدامُ في الهرجِ والمرج. الترحيبُ بالموتِ من شروطِ التوبة.

"أعجزُ عن التقاطِ أنفاسي. صدري مثلُ مروحةِ هليكوبتر. ليسَ بوسعي مواصلةُ الصعود. لوْ ارتقيتُ درجةً أخرى سينفجرُ قلبي!"

"لا تصعدِي، اهبطِي!.."

* * *

هنَّأَها صادقًا:

"إنَّكِ الآنَ تطالعينَ صفحةً ناصعةَ البياضِ من وجودِك. لا تعاودِي التقليبَ في الصفحاتِ الماضية. انزعيها من الدفترِ واحرقِيها"

"ليسَ في دفتري سِوى صفحتِك!"

"يا ملاكي!"

"والآنَ سوفُ أخرجُ مع رفيقاتِ السكنِ لنحتفل"

"هلْ تُبْنَ أيضًا؟"

"أجلْ"

"كيفَ سوفَ تحتفلن؟"

"وهلْ من احتفالٍ هنا سِوى التسكُّعِ في المولاتِ والتبضُّعِ لِمَنْ معهم نقودٌ؟"

"سأرسلَ لكِ نقودًا"

"إيَّاكَ أنْ تفعل!"

"إلى أنْ تتسلَّمي راتبَكِ، أعلمُ أنَّكِ مفلسة.."

"لستُ مفلسةً، ولا أحتاجُ شيئًا"

"طمئنيني عليكِ وأنتِ تحتفلين"

"لا أدري إنْ كنتُ أستطيعُ، لنْ أكونَ وحدي.. أجلْ، سوفَ أحاولُ.."

إرضاءً لوسواسِهِ كلَّمتْهُ بعدَ ساعة. سمِعَ ضوضاءَ المولِ في الخلفيَّة. نبرتُها رسميَّةٌ، لعلَّ ذلكَ لأنَّها تتحدثُ والرفيقاتُ يرمقنها. لكنَّ بصوتِها أيضًا مِسحةَ ضَجَر. كأنَّ المكالمةَ أداءُ واجبٍ وحسب. كأنَّها ناقمةٌ لأنَّهُ حرمَها من الاستغراقِ في احتفالِها.

هبطَ الليلُ وهيَ تحتفل. لساعاتٍ ظلَّ يغالبُ الوسنَ والوسنُ يغلبُهُ حتَّى غرَّدَ الموبايلُ– مونامور– فانتفضَ منتعشًا. يموتُ حينَ يغيبُ صوتُها، وحينَ يناديهِ الصوتُ يُبعث. لكنَّ انتظارَ البعثِ طالَ جدًّا، لمْ تذكرْهُ حياةُ إلَّا بعدَ منتصفِ الليل. استغرقَ الاحتفالُ تسعَ ساعات. أكدَّتْ أنَّها عادتْ إلى البيتِ في الثامنةِ، غيرَ أنَّها تناولتْ مع صديقاتِها دجاجَ كِنتاكي اشتريْنَهُ، ثم رُحنَ يتفحَّصنَ مشترواتِهن. ثيابٌ لأطفالِهنَّ في المقامِ الأوَّلِ، ولأنفسِهنَّ في المقامِ الثاني، وظللنَ يقِسنَها ويستعرضنها ويُعِدن قياسَها واستعراضَها، وأنتَ تعلمُ كيفَ تنسى النساءُ أنفسَهنَّ حينَ يتعلَّقُ الأمرُ بالثياب. بعدَ ذلكَ انشغلنَ بمشاهدةِ المسلسلِ التليفزيونيِّ، وبعدَهُ بفيلمِ حبٍّ قديمٍ. أعقبَ ذلكَ انغماسهنَّ في نوبةٍ طويلةٍ من الرقصِ والضحكِ بفعلِ النشوةِ التي بثَّتها في عروقِهنَّ

رومانسيَّةُ الفيلم. ثمَّ في نوبةٍ أطولَ من البكاء. ثم الاستحمامُ وتمشيطُ الشعرِ ودهانُ الكريماتِ الملطِّفةِ للبشرةِ، وما أنْ انفردتْ بنفسِها حتى كلَّمْته. أحسَّ أنَّهُ تاهَ في دَغْلٍ من الأعذار.

"كلُّ ذلكَ في تسعِ ساعاتٍ فقط؟!"

"أجلْ.. لا بُدَّ من أنْ أنامَ الآنَ وإلَّا لنْ أستيقظَ في الصباح!"

"لمْ تكلِّميني سِوى لحظات!"

"ليسَ بوسعي فتحُ عيْنيَّ!"

في اليومِ التالي اتَّصلتْ بهِ ثلاثَ مرَّاتٍ: في الصباحِ والعصرِ والليلِ. وجدَها أوسعَ صدرًا، فاتَّصلَ حبلُ الكلامِ كالعهدِ الماضي.

"رفاقُ عملِكِ الجديدِ طيِّبونَ أمْ خبثاء؟"

"كلُّهم طيِّبون"

"طيِّبونَ على أيِّ نحو؟"

"مُحترمون"

"ألا يمُدُّونَ أيديهم بالعَوْن؟"

"بلْ ناسٌ لحالِهم"

"حقاً؟"

لمْ تجب. منذ وصولِها إلى المدينةِ المقدَّسةِ تنتهجُ نهجًا جديـدًا في كلامِها معهُ: التحفُّظ. قرَّرتْ ألَّا تخبرَهُ بكلِّ ما قد يؤدِّي إلى جدل. إجاباتُها مقتـضبةٌ لا تتعدَّى ثلاثَ كلماتٍ، وأكثرُها لا يتعدَّى كلمةً واحدةً: نعـمْ أوْ لا. وأحيانًا يكونُ ردَّها الصمتُ. لا تزيدُ كلمةً رابعةً إلَّا حينَ تتهكم:

"رفيقاتُ سكنِكِ طيِّبات؟"

"يبدونَ طيِّباتٍ– لكنْ هلْ منْ طيِّبٍ حقًّا؟!"

"ورفيقةُ حجرتِك؟"

"تقولُ إنَّها تحبُّنِي"

"لعلَّها تتملَّقُكِ كيْ تجدي لها زوجًا"

"افترقتْ عن زوجِها بعدَ زواجِ سنة"

"طُلِّقتْ؟"

"كلَّا، رحلَ زوجُها طلبًا للرزق"

"هنا أيضًا؟"

"كلَّا، في بلدٍ آخرَ"

"هلْ لها حبيب؟"

"لأنَّها صديقتي؟!"

"ماذا؟"

"لأنَّ لي عشيقًا لا بُدَّ أنْ يكونَ لصديقتي عشيق!"

كثيرًا ما يقشعِرُّ بدنُهُ ما أنْ تفلتَ من لسانِهِ الأسئلةُ، لأنَّ أسئلتَهُ- ما لمْ يتفهَّمْ مُحدِّثُهُ أنَّهُ لا يُدينَ أحدًا لأنَّهُ لا يؤمنُ بأنَّ هناكَ صوابًا وخطأً، ويضعُ نفسَهُ تلقائيًّا في صفِّ المُذنِبينَ- تبدو سخريةً بلا قلب. حقًّا تقيمُ حياةُ في المدينةِ المقدَّسةِ، لكنَّ ظروفَ عملِها وسكنِها مُزرية. السكنُ شقَّةٌ صغيرةٌ مأهولةٌ بستِّ نساء، كلِّ اثنتيْنِ في حجرةٍ ضيِّقةٍ قذرةٍ موبوءةٍ بجحافلَ من البَقِّ- أوْ من البَقِّ على الأرجحِ لأنَّها تقرصُ ولا تُرى- وكلُّهنَّ مثلُ حياةَ ورفيقةِ حجرتِها زوجاتٌ بلا أزواج. زوجاتٌ شاباتٌ ما بينَ الرابعةِ والعشرينَ والثالثةِ والثلاثينَ فمن الوقاحةِ أنْ يطالبَهنَّ أحدٌ بألَّا ينحرفنَ، ومن الحمقِ أنْ يتوقَّعَ منهنَّ أحدٌ الاستقامةَ- إنْ وَصمنا مَنْ يَأبى أنْ يُسلبَ حقُّهُ في الحياةِ بأنَّهُ منحرفٌ، ومَدحنا مَنْ يرضخُ ويديرُ خدَّهُ الأيسرَ بأنَّهُ مستقيمٌ- ناهيكَ عنْ أنَّ تلكَ الزيجاتِ المُعَطَّلةَ محطَّمةٌ تعِسةٌ حتى من قبلِ السفرِ من جرَّاءِ الفقر. لذا كنْ واقعيًّا. ما من ملائكةٍ بيْنَ البشر. لوْ كانَ في الأرضِ ملائكةٌ يمشونَ مطمئنِّينَ لنزَّلنا عليْهم من السماءِ مَلَكًا رسولًا. النساءُ أسيراتُ عالمٍ ملطَّخٍ من الانتهاكِ، يُلزِمْنَهُ بالحصارِ والتهديدِ والإغواءِ، ولدى أدنى بادرةِ

تمرَّدٍ يُمَثِّلُ بهن. هذا ما عَنَاهُ حينَ سألَ إنْ كانَ لرفيقةِ حياةِ حبيب.

"لمْ أقصِدْ التعريضَ بأحدٍ، كما أنِّي لستُ عشيقَكِ بلْ حبيبَكِ، حبُّنا استثناء.."

"ولماذا هوَ استثناءٌ، حبُّنا مثلُ أيِّ حبٍّ؟!"

أيقنَ الآنَ فداحةَ خطئهِ لأنَّهُ ما زالَ يعاملُ حياةَ بعفويَّةٍ وبلا تحفُّظٍ متوهِّمًا أنَّها ما زالتْ تفهمُهُ أوْ ما زالتْ تريدُ أنْ تفهمَه. ما كانَ ينبغي لهُ أنْ يعاملَها وكأنَّ شيئًا لمْ يكنْ، رغمَ أنَّ كلَّ شيءٍ تغيَّرَ يومَ أخلفتْ موعدَه. لمْ يكنْ ذلكَ الإخلافُ إلَّا عَرَضًا من أعراضِ كفرِها بهِ وتمرُّدِها عليه. لقدْ فقدَ سلطانَهُ عليها، وما الإخلافُ إلَّا إعلانُ عِصيان. إنَّها ليستْ حياةَ القديمةَ ولا تتحدَّثُ مثلَها. إنَّها مثلُ أولئكَ الذينَ تحتلُّ الكائناتُ الفضائيَّةُ أجسادَهم وتتغذَّى على أرواحِهم، مع الإبقاءِ على الجسدِ كوِعاءٍ وَحسْب.

* * *

"ألنْ تطلعيني على سِرِّ سفركِ غيرِ المتوقع، هلْ اختنقتِ ثانيةً؟"

"بلْ تحتَ ضغطِ ضائقةٍ ماليَّةٍ"

"لا أصدِّقُ أنَّهُ استغني عنكِ بعدَ أنْ أجبرَكِ على العودةِ قبلَ انتهاءِ عقدِك!"

"البلدُ في كربٍ عصيبٍ وشبهُ مفلسة. الناسُ يفرُّونَ منها كأنَّ بها

الطاعون!"

"هلْ كانَ السفرُ فكرتَه؟"

"ليسَ حرفيًّا، وجدتُهُ يتشكَّى فاقتنصتُ الفرصة"

"ولماذا لا يسافرُ هوَ؟"

"لا عملَ في الخارجِ لَهُ"

"هلْ بحثَ عن عملٍ ولمْ يجدْ؟"

"بحثَ بلا حماسٍ لأنَّهُ لا يحبُّ السفر"

"أما أنتِ فاشتقتِ إلى النفي؟"

"أليسَ في المنفى التقيْنا، وفي المنفى نتحدَّثُ طيلةَ الوقتِ بلا رُقباء؟"

"لكنَّنا لسنا معًا حقًّا.."

"بلْ معًا، لمْ تعدْ تفصلُنا بحار"

"كانَ ينبغي لكِ أنْ ترجعي إلى هنا"

"حاولتُ.. مَنْ يدري لعلَّ في هذا الخيْر!"

"لأنَّكِ لستِ تحتَ عيْنيَّ؟!"

"لا أخفي عنكَ شيئا"

"حقًّا؟!"

"لوْ قرَّرتُ أنْ أخدعكَ سأخدعُكَ وأنا تحتَ عينيْك"

يعلمُ صدقَ هذا القوْل. أجلْ، لوْ قرَّرتْ حياةُ أنْ تخدعَهُ لما طرفتْ لها عينٌ أوْ اختلجَ فيها عِرق. لمْ يُفلِح ولوْ مرَّةً في قراءةِ وجهِها حينَ لا تريدُهُ أنْ يقرأَه.

في سكنِها السابقِ كانتْ لحياةِ حجرتُها الخاصةُ فكانتْ تغلقُها على نفسِها وتظلُّ تكلِّمُهُ ما دامتْ مستيقظةً، أمَّا الآنَ فلها شريكةٌ في الحجرةِ وليسَ بوسعِها أنْ تكلِّمَهُ في وجودِها. من حسنُ الحظِّ أنَّ بعضَ ساعاتِ عملِ الشريكةِ لا تتطابقُ مع ساعاتِ حياة، لكنَّ أكثرَها يتطابقُ مِما جعلَ الوقتَ الذي تكونُ فيهِ حياةُ بمفردِها يتقلَّصُ جدًّا. التفافًا حولَ هذا التنغيصِ كرَّرَ اقتراحَهُ الذي رفضتْهُ من قبلُ بأنْ تنضمَّ إلى فيسبوك ليمكنَ التواصلُ عبرَ التشاتِ حتَّى لوْ لمْ تكنْ

وحدَها في الحجرة. لِمَ لا يفعلانِ مثلَ أبنائهِ الذينَ في حالةِ تشاتٍ لا ينقطعُ؟

"كلَّا لا أريد!"

"لا أحدَ في الكونِ ليسَ لديْهِ فيسبوك سِواكِ!"

"أكرهُ فيسبوك"

"احتمليـهِ تحـسُّبًا لطـارئٍ يحـولُ دونَ الاتـصالِ الـصوتي. كانـت رسـالةٌ لتنقذَني أيَّام التيفودِ لكنِّي تُرِكتُ لأجنَّ"

"لنْ أمرضَ ثانيةً!"

"إذنْ لتعلمي بموتي حينَ أموت"

"وكيفَ أعلمُ؟"

"سوفَ أكفُّ عن الكتابةِ بالطبع. لا شكَّ كذلكَ في أنَّ بعضَ الأوفياءِ سـوفَ ينعونَني أوْ يكتبونَ شيئًا يُفهَمُ منهُ رحيلي"

"سوفَ أموتُ قبلَكَ"

"انضمِّي إذنْ لأعلمَ.."

"من أسهلِ الأمورِ اختراقُ الحساباتِ على النتِّ فكأنَّنا نتعرَّى على الملأ.."

انضمَّتْ إلى الفيس باسمٍ مستعارٍ، وبلا صورةٍ شخصيَّة. لوْ وضـعتْ صـورةً لانهالتْ عليها الملايينُ من طلباتِ الصداقة. في اليومِ الأوَّلِ لمْ يكنْ لديْها سِوى صديقيْن: هوَ، ورفيقةِ الحجرة. وفي اليـومِ الثـاني صـارَ لـديْها ستَّةُ أصـدقاءٍ بإضافةِ زوجِهـا ، وشـقيقيْها، ووجـهٍ سـادسٍ مـا أنْ أبـصرَهُ حتَّـى أدركَ أنَّـهُ الصديقُ وحسب. ظنَّتْ أنَّهُ لنْ يكتشفَهُ، وغابَ عنها أنَّها أخبرتْهُ مرَّةً باسمِه. أخيرًا رآه.. رأى وجهَهُ الصفيقَ ذا الشاربِ.. رآهُ.. كانَ ليكتشفَهُ حتَّـى لـوْ لمْ

تخبرْهُ باسمِه. عيْنانِ هائمتانِ هيامَ عيونِ المراهقينَ وهم يستمنون. مفعمتانِ بنشوةِ داعرٍ يعاينُ امرأةً مواتيةً من قمَّةِ شعرِها إلى إخمصيْها. ابتسامةٌ فاجرةٌ تقولُ: أنا أعلمُ، وأنتِ تعلمينَ أنَّهُ يعجبُكِ! أنا أعلمُ وأنتِ تعلمينَ أنَّكِ تشتهينَه! أنا أعلمُ وأنتِ تعلمينَ أنَّكِ ستأخذينه!

مادتْ الأرضُ بهِ واحترقَ قلبُه. سقطتْ الكارثةُ من الفيسبوك على أمِّ رأسِه. لا شَكَّ في أنَّها كانت مع الداعرِ حينَ ادَّعتْ أنَّها أصيبتْ بالتيفودِ وأُدخلتْ المستشفى. الآنَ أيقنَ بأنَّها خانتْه. ما كانَ لها أنْ تصمدَ في البعد. نجحَ ذو الشاربِ بالمثابرةِ في إغوائها، أوْ لعلَّهُ أغواها منذُ البدءِ دونَ جَهدٍ أوْ مثابرةٍ ولمْ يكنْ يومًا صديقًا وحسب.

"لماذا أضفتِ ذلكَ الوغدَ، قلتِ إنَّ ما بيْنكما انتهى؟"

"أيَّ وغد؟!"

"ذلكَ الصديقُ وحسب!"

"لا لسببٍ، ظهرَ لي على قائمةِ مَنْ قدْ أكونُ أعرفُهم"

"فأرسلتِ إليهِ طلبَ صداقة؟"

لمْ تردْ..

"رغمَ أنَّ ما بينكما انتهى؟!"

"بلْ لأنَّهُ انتهى"

"قلتِ لي إنَّهُ صديقٌ وحسب"

"وحتَّى الصداقةُ انتهتْ لأنَّهُ أدركَ أنَّني أتجاهلُه"

"وهلْ طَلَبُ صداقتِهِ تجاهُل؟"

"فعلتُ ذلكَ بحسنِ نيَّةٍ لأنَّهُ صديقٌ قديم"

"بلْ ظننتِ أنِّي لنْ أعرفَه!"

صمتتْ..

"ألغي الصداقةَ فورًا، لا أريدُ أنْ أرى تلكَ السِحنةَ على صفحتِك!"

"سوفَ يكونُ ذلكَ إهانةً لشخصٍ كانَ طيِّبا معي"

"إمَّا أنا أوْ هوَ على صفحتِكِ، وفي حياتِكِ كلِّها!"

بعدَ لحظاتٍ اختفى الوجهُ الصفيقُ من صفحتِها. للحظةٍ أطربَهُ امتثالُها. أكَّدَ لهُ ذلكَ ما كانَ يؤمنُ بهِ– ثم فقدَ إيمانَهُ– من أنَّها إزاءَ اختيارٍ أوْحَدَ سوفَ تختارُهُ هوَ ولوْ خسِرتْ كلَّ رجالِ الدنيا.

استعادتْ تلكَ الواقعةَ الاتزانَ بينَها. ضبطَها مذنبةً. لكنَّ عودةَ الاتزانِ على ذلكَ النحوِ لمْ تسعدْهُ، بلْ كانَ اقتلاعُ عينيْهِ من محجريْهما ليسعدَهُ أكثر. قالتْ لهُ فيما بعدُ إنَّ زوجَها نفسَهُ لمْ يعترضْ على وجودِ ذلكَ الرجلِ فوقَ

صفحتِها. غيرَ أنَّهُ يعلمُ ما لا يعلمُهُ الزوج. يعلمُ أنَّ ذلكَ الوغدَ- إنْ لمْ يكنْ أغواها- مستميتٌ في إغوائِها. وحتَّى بفرضِ أنَّ ما بينَها وبينَ ذلكَ الوغدِ- صداقةً كانَ أوْ علاقة- قد انتهى، فإنَّ طلبَها صداقتَهُ على فيسبوك دعوةٌ لا لَبسَ فيها إلى تجديدِ ما كانَ بتركِ البابِ مواربًا. كأنَّها تقولُ للوغدِ: لا تقطعْ الأمل! وما أدراهُ بأنَّها حينَ حذفتْ الوغدَ الآنَ من صفحتِها- معتذرةً إليْهِ على الأرجحِ بأنَّ زوجَها تذمَّرَ- لمْ تنشئْ لهُ صفحةً وحدَه؟!

* * *

اندلعتْ النارُ في قلبِهِ وعقلِه:

"لماذا أخلفتِ موعدي؟ لماذا حقًّا فإنِّي لا أصدِّقُ خوفَكِ المزعومَ من مكروهٍ كانَ ليحيقَ بنا لوْ التقيْنا، أنتِ لا تعرفينَ الخوف؟"

"هلْ سوفَ نضِيعُ عمرَنا في سرِّ إخلافِ موعد؟ ألا تملُّ هذا السؤال؟"

"حياتي وموتي معلَّقانِ بهذا السؤالِ فارحميني!"

"شعرتُ بأنَّ حياتَكَ ليسَ لي فيها مكان.. "

"يا للنساءِ: كيفَ واتاكِ ذلكَ الشعورُ وأنتِ حياتي؟!"

"أحاديثُكَ معي صارتْ بلا روح!"

"بلا روح؟ إنَّهُ البؤسُ الذي حفرَهَ الفِراقُ في روحي!"

"واصطحبتَني إلى ذلكَ المطعمِ للتخلُّصِ منِّي بأسرعَ ما يُمكن!"

"كنتِ مريضةً، وأردتُ أنْ أثبتَ لكِ أنَّ الجنسَ لا يهمُّ!"

"وحينَ اعتذرتُ عن لقائِكِ لمْ تضغطْ عليَّ لألقاكَ كأنَّ اعتذاري أراحَكَ!"

"الضغطُ في تلكَ الأحوالِ ابتزاز"

"ابتزاز؟!"

"أجلْ، حينَ تهجرُ النساءُ عشَّاقَهنَّ يتوسَّلونَ إليْهنَّ أوَّلًا بالحُسنى، وإذا لمْ يرجعنَ هدَّدوهنَّ تلميحًا ثم تصريحاً. تلكَ بلطجةٌ فالحبُّ ليسَ بالإكراه!"

"هذا من جهلِكَ بالنساءِ: لا تعودُ المرأةُ إلى رجلٍ كرهِتْهُ حتَّى لوْ هُدِّدتْ بالذبح. غيرَ أنَّكَ لمْ تهدِّدْ ولمْ تتوسَّلْ ولمْ تحاولْ على أيِّ نحو. صَمَتَ!"

همَّ بأنْ يحكيَ لها عن الدَعامةِ ثم كبحَ لسانَه: وَلَكِنَّ مِثْلِي لَا يُذَاعُ لَهُ سِرٌّ..

"لمْ أستوعبْ الكارثةَ إلَّا لاحقًا، أمَّا لحظةَ الصدمةِ فأُسقِطَ في يدي وبُهِتُّ. لمْ يخطرْ ببالي قَطُّ أنْ تتخلَّي عنِّي، من بيْنِ كلِّ الناسِ لمْ أتوقعْ منكِ غدرًا!"

"لمْ أغدرْ، ظننتُ أنَّ الحياءَ يمنعُكَ من أنْ تصارحَني بأنِّي عِبءٌ فسهَّلتُ الأمرَ عليْك"

"سهَّلتِ الأمر؟ لقدْ ذبحتِني.. ظننتُ أنَّكِ عدتِ إلى صديقِك!"

"ما زلتَ مجنونًا!"

"وأنَّهُ أفضلُ منِّي.."

"لأنِّي أتيتُ إليكَ لنْ أمانعَ في الذهابِ إلى أيِّ رجل!"

"العاشقُ المهجورُ لا يتوقَّعُ سِوى أمرٍ واحدٍ: أنَّ معشوقتَهُ هجرتْهُ إلى عاشقٍ أفضلَ، تدركينَ معنى أفضل!"

"ما أضيقَ عقولَ الرجالِ، لا تفكِّرونَ إلَّا في ذلكَ الأمر!"

"والنساءُ لا يفكِّرنَ؟"

"لا يهمُّهنَّ ذلكَ الأمرُ في شيء"

"لَمْ تأتي إلى موعدي لوهمِكِ ألَّا مكانَ لكِ في حياتي؟! هذا أسخفُ ما سمعتُ، ولا أظنُّكِ تصدِّقينَه. صارحيني بالسرِّ الذي يقفُ بيْننا كالسدِّ فالأسرارُ تفسدُ الحبَّ"

"السرِّ؟! السرِّ المشينِ بالطبع! لا تتحدَّثْ بالألغاز، أفصِحْ!"

"هلْ قلتِ لنفسِكِ ولوْ مرَّةً إنَّ حبَّكِ إيَّايَ لا يتناقضُ معَ أنْ تلاطفي غيري؟"

"لنْ أجيبَ هذا السؤالَ الفَجَّ!"

يبدو فجًّا لكنُّهُ واردٌ فالخونةُ من النساءِ والرجالِ يعوِّلونَ دائمًا على أنَّ الخيانةَ- وإنْ كانت أليمةٌ مخزيةٌ إن افتضِحتْ- لا تضرُّ أحدًا ما لم تنفضِحْ وهوَ الأغلبُ الأعمُّ، مُتذرِّعينَ في كلِّ الأحوالِ بأنَّها نزوةٌ عابرةٌ لا معنى لها

ولا تهدِّدُ واقعَ العلاقاتِ الدائمةِ الراسخة.

"بصمتِكِ تقتلينَني"

"لا أحدَ يموتُ من أنَّهُ لا يعلمُ جوابَ سؤالٍ وقح!"

"شقائي وطمأنينتي معلَّقانِ بأنْ أعلم"

"لمْ أقلْ ذلكَ لنفسي قطُّ، رغمَ وقاحةِ السؤال"

"ألمْ يحاولْ التودُّدَ إليكِ بعدَ أنْ عُدتِ؟"

"حاولَ، غيرَ أنَّهُ شعرَ منذُ رآني بأنِّي تغيَّرتُ وأنَّ قلبي مثلُ صخرة"

"وسألكِ بالطبعِ لِمَ تغيَّرتِ، وقلتِ بالطبعِ إنَّكِ لمْ تتغيري؟"

"سألني فلمْ أردَّ، وشعرَ أنَّني لا أرحِّبُ بالأحاديثِ فتحاشاني.."

"وأغاظكِ ذلكَ بالطبع؟"

"بالطبع!"

"حقًّا؟"

"أجلْ ما دُمتَ تعرفُني أكثرَ مِمَا أعرفُ نفسي!"

"لا أعرفُ أيَّ شيءٍ حتَّى نفسي!"

"صدقتَ"

"ما الحقيقةُ إذنْ، أخبريني؟"

"كانَ ذلكَ الرجلُ أمامي قبلَ أنْ ألقاكَ ولمْ أنظرْ إليْه"

"ألمْ يلمسْكِ على أيِّ نحو؟"

ضحكتْ بغيْظ.

"ماذا يضحكُكِ؟"

"أنَّ زوجي الذي خنتُهُ يثقُ بي أكثرَ من الرجلِ الذي خنتُ لأجلِه!"

"من الحمقِ ألَّا يغارَ المرءُ عليكِ!"

"تقصِدُ: من الحمقِ أنْ يثقَ بي!"

"لا أثقُّ إلَّا بكِ"

"كذبٌ، بلْ رأيُكَ أنَّ بوسعِ أيِّ رجلٍ إغوائي، مِمَا يعني أنَّكَ لا تدري عنِّي شيئًا وتجهلُ عنِّي كلَّ شيء. لِمَ أحببتَني إذنْ، أمِنْ أجلِ ذلكَ الذي تخشى أنْ أهبَهُ لأيِّ رجلٍ يدعوني؟ يبدو أنَّكَ ما أحببتَني إلَّا لذلك!"

"أنتِ موقنةٌ بأنِّي لمْ أحبْكِ لغرض. لستُ ذلكَ الرجل. كنتُ أبعدَ الرجالِ عن ذلكَ وترفَّعتُ عنهُ طولَ عمري!"

"أمَّا أنا فخُضتُ فيهِ طولَ عمري!"

"لمْ أقلْ هذا!"

"استجواباتُكَ توحي بأسوأَ منه. لوْ لمْ أكنْ مستحيلةً لما اغتربتُ. كنتُ بقيْتُ مكاني ونثرَ الرجالُ الذهبَ تحتَ قدميَّ، هذا أسهلُ طريق!"

"لا تشبِّهي نفسَكِ ذلكَ التشبيهَ ولوْ لإغاظتي!"

"لكنَّ تلكَ الصفقةَ تُعرضَ فعلًا على كلِّ مليحةٍ، قوَّةُ النساءِ أنَّهنَّ لا يرضخْن!"

"بعضُهنَّ يرضخ!"

"السوادُ الأعظمُ يأبى!"

"بوركتْ النساءُ!"

"لا تهزأْ، لوْ قِستُ بميزانٍ غيرِ ميزانِ القلبِ لما اخترتُك!"

"شكرًا!"

"لِمَ؟!"

"لأنَّكِ اخترتِني رغمَ أنِّي الأسوأ!"

"لا تمزحْ فأنتَ ثقيلُ الظلِّ!"

"هذهِ أعلمُها!"

"لِمَ لا تغارُ أبدًا من زوجي، أليْسَ الأدعى أنْ تغارَ مِنه؟!"

لمْ يجبْ، رغمَ أنَّ الجوابَ حاضر. كلَّما تخيَّلَ زوجَها فوقَها جلدَهُ سوطٌ

من نارٍ فوقَ عينيْه. غيرَ أنَّهُ لا يريدُ أنْ يسمِّمَ وجودَها بلَوْمٍ على ما لـيْسَ لهـا بهِ يَدٌ وليْسَ بوسعِها أنْ تدفعَه. لنْ يلومَها في نفسِهِ لوْ اغتُصِبتْ، أمَّا أنْ تلـهوَ بإرادتِها معَ غيرِهِ في حين أنَّهُ حرَّمَ على نفسِهِ النظـرَ إلى غيرِهـا فـذلكَ مـا لا يغفرُه. لكنَّ هذا ليسَ حقًّا ما تسألُهُ حياةُ، إنَّها تقولُ: يا منافقُ ما دُمتَ تدركُ منذُ البدايةِ أنَّني لستُ خالصةً لكَ ورضيتَ بالشركةِ، مَا يغـضبُكَ إذا داعـبَني ذلـكَ الرجـلُ أوْ ذاك؟! لا منـاصَ مِـنْ أنْ تحـبَّني وفقًـا للـشرطِ الأصـليِّ الـذي ارتضيْتَهُ: أنَّكَ شريكٌ فيَّ ليسَ إلَّا!

"عدتِ إذنْ ووجدتِ أنَّ ذلكَ الشخصَ ما زالَ حيًّا رغمَ أنَّهُ لا يطيقُ الحيـاةَ في بعدِك؟!"

"كذلكَ وجدتُكَ، ألستَ حيًّا؟"

عاودَهُ إغراءُ إخبارِها بالدَعامةِ، لكنَّهُ يكرهُ الميلودراما..

"لماذا تركِكِ ترحلينَ بعدَ أنْ عدتِ إليْه؟"

"مَنْ؟"

"ذلكَ الصديق"

"لمْ أعدْ إليْهِ لأنِّي لمْ أكنْ معه، لوْ أحببتُ غيرَكَ لما هجرتُهُ وعدتُ"

"لكنَّكَ ترحلينَ دائمًا عمَّنْ تحبِّينَ: رحلتِ عنِّـي منـذُ ستَّةِ أعـوامٍ وكنـتِ

تحبِّينني"

"كنت؟!"

"كيفَ ترككِ ترحلين؟"

"لوْ شئتُ لتبعَني كظلِّي، ولوْ أشرتُ لطارَ إليَّ!"

"لماذا يطيرُ رجلٌ من قارةٍ إلى قارةٍ بإشارةٍ من امرأةٍ ما لمْ تكنْ عشيقتَه؟"

"قلتُ إنَّهُ يحبُّني، وأزيدُكَ أنَّهُ عرضَ أنْ يكتبَ شقةً على البحرِ باسمي، وأبيْتُ.."

"يا لَهُ مِن قذرٍ مُنحطٍّ! ماذا كانَ ردُّك؟"

"قلتُ إنَّ ذلكَ لا يكون.."

"لا يكون! لماذا هذهِ الرقَّةُ، الوغدُ ساومَكِ على عفَّتِكِ مثلَ بَغِيٍّ، كانَ لا بُدَّ من أنْ تبصقي في وجههِ؟!"

"نبرةُ الردِّ أحيانًا أقسى من ألفِ بصقة"

قالَ لنفسهِ: هلْ مأساتي مع حياةَ أنَّها تقولُ لي نصفَ الحقيقةِ، أمْ مأساتُها معي أنَّها صادقةٌ في كلِّ حرف؟

"لَمْ ييأسْ ولمْ يبتعدْ كما ادَّعيتِ!"

"لا أرى سببًا لرعبكَ مِنهُ، أنتَ أفضلُ في كلَّ شيء"

"هلْ جرَّبتِهِ في كلِّ شيءٍ لتجزمي بأنِّي الأفضل؟!"

"يا للسؤال! هَبْني فعلتُ، هلْ كنتُ لأخبرَكَ؟"

"ما كانتْ امرأةٌ أخرى لتعترفَ- زوجتي ما كانت لتعترفَ- لكنَّكِ لستِ مثلَ النساء: أنتِ جسورٌ وليسَ فيكِ ذرَّةُ رَوْغٍ"

صَمتتْ. من فضائلِ حياةَ أنَّها تدركُ متى تتحدَّاهُ ومتى تهادنُه، وفي نوباتِ الشكِّ التي تمزِّقُهُ وتكادُ أنْ تفتِكَ بهِ ترأفُ وتحنو مهما كانت الخترفةُ التي يحرِّك الخَبَلُ لسانَهُ بها، لكنَّ شيئًا يُكسرُ ولا يُجبَر.

"أنا مَنْ يحبُّكِ حقًّا. دليلُ الحبِّ ليسَ التضحيةَ بشيءٍ من أجلِ الحبيبِ، بلْ بكلِّ شيء. ليسَ منحَ الحبيبِ بعضِ ما لديْنا، بلْ كلِّ ما لديْنا. لنْ يضحيَ ذلكَ الوغدُ بكلِّ ما لديْهِ لأجلِك. كلُّ ما في الأمرِ أنَّهُ يسعى لضمِّكِ إلى ما لديْهِ، ولوْ خيَّرتِهِ بينكِ وبينَ ما لديْهِ لاختارَ ما لديْه. لقد سحركِ بأبَّهتِهِ، في ذلكَ الشأنِ لا شكَّ في أنَّني الطرفُ الأضعفُ فلستُ ثريًّا بالوراثةِ مثلَه. الوارثونَ يشترونَ عشيقاتٍ، لكنَّهم لا يعشقونَ سِوى أنفسَهم"

"بلْ كانَ مُعدمًا، وحقَّقَ ما لديهِ بالكفاح"

"درايتكِ بهِ عميقةٌ، أنتِ مفتونةٌ به!"

"لا تعذِّبْ نفسَكَ: أنتَ أفضلُ منهُ في كلِّ شيءٍ، لا مقارنة!"

"جرَّبتهِ إذنْ في كلِّ شيء؟!"

"تكرِّرُ السؤالَ الوقحِ: لوْ كنتُ جرَّبتُهُ لما رحلتُ عنهُ مرَّتيْن"

"لعلَّكِ هربتِ في المرَّتيْنِ من فضيحتيْن!"

"أهكذا ترانِي؟"

"هذا ما سوفَ يستنتجُهُ أيُّ عاقلٍ تُحكى لهُ حكايتُكِ، أمَّا أنا فليسَ.."

"بلْ هكذا تراني، هكذا نظرتَ إليَّ دائمًا حتَّى من قبلِ أنْ نزني!"

حياةُ تأبى أنْ تُكنِّيَ عن فعلٍ أوْ تدورَ حولَ معنى. الزنا في قاموسِها زنا بلا كِنايات. لمْ تقلْ مرَّةً: لأنِّي ضحيتُ من أجلِكَ، أوْ استسلمتُ لكَ، أوْ صدَّقتُكَ، أوْ أحببتُكَ، دائمًا تقولُ: زنيْت!

* * *

في الثانيةِ بعدَ منتصفِ الليلِ اتَّصلتْ بهِ:

"هلْ نمتَ؟"

"لمْ أنمْ، دمي يغلي منذُ قلتِ إنَّكِ لوْ استدعيتِهِ سيطير!"

"أغضبتَني إلى حدِّ الجنونِ فأردتُ أنْ أغيظَك!"

"ما عادتْ الإغاظةُ قصرًا على تلكَ السيرةِ، أصبحتِ فظَّةً معي أكثرَ الوقت!"

"صدري يضيقُ بأشياءَ لا ذنبَ لكَ فيها.. سخافاتُ العملِ والسكنِ تحبطُني فهذا المكانُ خانق.. غضبي الحبيسُ ينفجرُ فيكَ، ثم أندمُ على أنِّي كنتُ وضيعةً معك"

"لوْ كنَّا معًا لفجَّرتُ ما بكِ من كبتٍ على طريقتي. لكنَّنا لسنا معًا. لمْ يعدْ لي عليكِ سلطانٌ سِوى الحبِّ. أما زلتِ تحبِّينني؟"

"ليسَ لي سِواك"

"ليْتَنا التقينا قبلَ أنْ نتورَّطَ في زيجتيْنا التعِستَيْن!"

"وهلْ كنَّا لنسعدَ؟ الأرجحُ أنَّنا كنَّا سنشقى: في الزواجِ فيروسُ تعاسةٍ أفتكُ من الآيدز!"

"منَ النبلِ إذنْ أنِّي اختطفتُكِ"

"لمْ تكنْ لتخطفَني ما لمْ أمضِ معك. لستُ مِمَنْ يُلينهنَّ الغزلُ فما أكثرَ ما قيلَ لي ولمْ ألِنْ"

"لماذا لمْ تليني؟"

"لأنِّي لمْ أصدِّق"

"ولماذا صدَّقتِني؟"

"إحساسي!"

"أعني: ما الذي قلتُهُ أوْ فعلتُهُ فحظيتُ بثقتِكِ؟"

"لا شيءَ، لمْ تفعلْ أوْ تقلْ ما لمْ يفعلْهُ ويقلْهُ الآخرون. إحساسي وحدُه!"

سِوى نكدِ ذلكَ الوجهِ الصفيقِ، الإنترنتُّ نعمةٌ. أبقتْهما الإنترنتُّ معًا طوالَ الوقتِ، حتَّى أثناءَ العملِ يكتبُ لها وتكتبُ له. أصبحَ يراها في حجرتِها وفي فراشِها. تحتَ الأغطيةِ حينَ تستيقظُ بكسلٍ في الصباحِ، وفي المساءِ وهيَ منهكةٌ وعيناها نصفُ مُغمضتيْن. بثيابِ البيتِ والنومِ كأنَّها تصبحُ وتُمسي معَه. تستشيرُهُ في كلِّ ما تنوي ارتداءَهُ، وتستبدِلُهُ إذا لمْ يرضَ عنه. يطبخانِ معًا ويأكلانِ معًا. يغسلانِ ويكويانِ الثيابَ معًا. يتعايشانِ لحظةً بلحظةٍ كأنَّهما يقيمانِ معًا. أهمُّ من كلِّ ذلكَ أنَّهُ يرى عينيْها. كلَّما تعانقتْ العيونُ اطمأنْ، ما زالَ الحبُّ الصادقُ يضيءُ عينيْها. أجلْ لا ينجزُ تعاملاتِهِ إلَّا بالنتِّ، لكنْ أنْ تعيشَ في النتِّ وتلهوَ وتسافرَ وتمرحَ وتحبَّ وتخاصمَ وتصالحَ وتأكلَ وتشربَ: ذلكَ ما لمْ يخطرْ لهُ على بالٍ، وعدَّهُ امتيازَ المراهقينَ والأطفالِ لا يحقُّ للكبارِ أنْ يُنازعوهم فيه. جنَّةُ النتِّ الوهميَّةِ التي صارَ من أهلِها جعلتْهُ يفهمُ لِمَ يُستغرَقُ أبناؤهُ فيها وكأنَّها الحقيقةُ ولا عالمَ خارجَها. أجلْ، ما أسهلَ أنْ يصدِّقَ المرءُ الوهمَ ويرتضيْهِ مثلما يصدِّقُ هو وحياةُ أنَّهما معًا حقًّا رغمَ أنَّ ألفيْ ميلٍ تحولُ بيْنهما. وهمٌ لا يبَدِّدُهُ سِوى وجودِ رفيقةِ

الحجرةِ وحينئذٍ يحـرمُ مـن صـوتِ حيـاةٍ ومـن صـورتِها ولا يبقـى لهمـا إلّـا التشات. يُضطرَّانَ إليهِ أيضًا في أعماقِ الليالي كيْلا توقظَ شـريكتَها النائمـةَ، أوْ كيْلا تتنصَّتَ عليهما الشريكةُ إنْ كانت تدَّعي النوم.

على النتِّ لا سبيلَ إلى يقينٍ من ماهيَّـةِ محـاورِك. قـد تـدَّعي امـرأةٌ أنَّهـا رجلٌ، والأعَمُّ أنْ يدَّعيَ رجلٌ أنَّهُ امرأةٌ مليحةٌ ووحيدة. على النتِّ قدْ يحاورِكُ إبليسُ بشخصِهِ متقمِّصًا هيئةَ ملاكٍ نورانيٍّ. لكنَّ ما يراهُ تجهيلًا يـراهُ أبنـاؤهُ نعمةً لأنَّ بوسعِهم إعادةُ خلقِ أنفسِهم وصنعِها على أعيْنِهم، وابنهُ يقـولُ إنَّ هذا التجهيلِ أعظمُ ميْزةٍ، وهوَ للحقِّ أستاذُ تَخَفٍّ ولديْهِ عشرةُ حساباتٍ علـى فيسبوك ثلاثةٌ منها بأسماءِ نساء. لكنْ ما الذي يغري خطيبيْنِ بالتشاتِ وهمـا في موعدٍ غراميٍّ يجلسانِ إلى نفسِ مائدةِ الكازينو وعيونُهما تعانقُ التابلتَ بدلًا من أنْ تتعانقَ عيونُهما؟ أوْ ما الذي يدفعُ أخويْنِ إلى التشاتِ وهما معًا في نفسِ الغرفةِ أوْ في نفسِ المنزل؟ يستغلِقُ ذلكَ السلوكُ على الفهمِ، لكـنْ لعـلَ تـدوينَ التشاتِ على النتِّ يمنحُ وهمًا بأنَّ ما كُتِبَ سوف يخلُد.

* * *

الوقتُ الذي تمضيهِ معَهُ علـى الموبايـلِ أوْ النـتِّ يـتقلَّصُ ويـتقلَّصُ لكثـرةِ خروجِها والتعلُّلِ بتعذُّرِ التواصلِ وهيَ تتجوَّلُ في المولاتِ بصحبةِ صـديقاتِها، حتَّى صارتْ أكثرُ المحادثاتِ تُبتَسرُ على هذا النحو:

"عليَّ أنْ أذهبَ.. لنْ أحدِّثكَ لبضعِ ساعاتٍ لأنِّي سوفَ أخرجُ مع صديقةٍ"

"رفيقةُ حجرتِكِ؟"

"كلَّا، صديقةٌ جديدة.."

بعدَ ساعاتٍ حينَ تعودُ تمضي المحادثةُ على هذا النحو:

"كيفَ كانَ يومُكِ؟"

"نفسَ الأشياء"

"عَدِّدِي بعضَها"

"نفسُ ما عدَّدتُهُ عشراتِ المرَّات!"

"صفي لي أيَّ شيءٍ من أجلِ تدفُّقِ الحوار"

"لا أذكرُ. ليسَ في ذهني أيَّ ذكرى لتفاهةِ ما فعلتُ"

تستغرقُ أيضًا زمنًا طويلًا قبلَ أنْ تكتبَ ردَّ التـشاتِ كأنَّهـا تكاتِبُـهُ وهـيَ منشغلةٌ بشيءٍ آخرَ أهمَّ، أوْ تتعمدُ تـأخيرَ الـردِّ لتـصيبَهُ بالملـل. حتَّـى حـينَ يتكلَّمانِ في الموبايلِ تجيبُ أسئلتَهُ بعدَ لحظاتٍ منَ الصمتِ كأنَّها شاردةُ الذهنِ وليستْ معهُ، أوْ كأنَّها تتأنَّى لاختراعِ كذبةٍ، أوْ كأنَّهـا تـرغمُ نفسِها إرغامًـا على النطقِ فيخرجُ بصوتٍ ينضحُ ضجرًا تعلِّلُهُ بالإرهاق. يقولُ لهـا إنَّ الحـبَّ انتعاشةٌ تبدِّدُ الإرهاقَ، فتقولُ إنَّ الإرهاقَ أقوى من أيِّ حبٍّ.

القهوةُ التي تعدُّها لها رفيقةُ الحجرةِ آخرَ الليلِ هيَ ما يعيدُها إلى الانتعاشِ والبهجةِ.

"هلْ أنتِ واثقةٌ من أنَّ ما تعاطيتِهِ قهوة؟"

"وماذا تكونُ غيرَ قهوة؟"

"هيروينَ، صوتُكِ مثلُ المساطيل!"

"رفيقتي لها صديقةٌ من أهلِ الديارِ تُهديها هذهِ القهوةَ المُتبَّلة"

"لا تبدو مثلَ قهوةٍ بلْ مثلَ مخدِّر!"

"هذهِ القهوةُ تسعدُني، لكنِّي لستُ مخدَّرة. ما ضررُ أنْ يسعدَ الإنسان؟"

"ليستْ سعادةً طبيعيَّة"

"كلُّ السعادةِ استثناء"

"أخشى صديقتَكِ صانعةَ القهوةِ، لا تثقي بها كلَّ الثقةِ فمن المحتملِ أنَّها تستدرجُكِ"

"ما أسوأَ ظنَّكَ بكلِّ البشر! إنهَّا بنتٌ طيِّبةٌ ومغرمةٌ بي. رغمَ أنَّها تصغرُني ببضعةِ أعوامٍ تعتبرُني أمَّها، وفورَ عودتِها تلقي بنفسِها بين ذراعيَّ وتمطرُني قبلًا في خديَّ وفي فمي"

"هذا أيضًا كلامُ مساطيلَ، في فمِك؟!"

"تغارُ منها أيضًا؟"

"أغارُ من ابنتِكِ نفسِها لوْ قبَّلتْكِ في فمِكِ، ولا أظنُّ رفيقتَكِ تقبِّلُ أمَّها الأصليَّةَ في فمِها. ألا تجدينَ ذلكَ مريبًا؟"

"ما المريبُ؟"

"التقبيلُ في الفمِ!"

"بلْ ما أشيعَ أنْ تقبِّلَ النساءُ النساءَ على هذا النحو"

"هلْ صِرتِ سِحاقيَّة؟!"

"حتَّى الآنَ لا أشتهي أيًّا من رفيقاتي"

"ربعُ النساءِ والرجالِ مِثليُّونَ، علموا ذلكَ عن أنفسِهم أوْ لمْ يعلموا"

"بلْ نفعلُ ذلكَ حينَ يستبدُّ بنا الاكتئابُ وتخنقُنا الوحدة"

"ما زلتُ أجدُهُ سِحاقًا، ويقينًا إنَّكِ مخدَّرة!"

* * *

في إحدى الليالي كانت مفيقةً- أيْ لمْ تكنْ منتعشةً بفضلِ القهوةِ الغامضةِ- وراحتْ تسفِّهُ كلَّ كلمةٍ يقولُها وتشكِّكُ فيها كأنَّها كفرتْ بكلِّ ما قالاهُ طيلةَ تلكَ السنينَ، بلْ كفرتْ بحبِّهما نفسِه.

"لمْ أذقْ للحبِّ طعمًا إلَّا معكِ"

"كلُّ الرجالِ يقولونَ نفسَ الكلام!"

"لكِ؟"

"ليسَ لي، لعشيقاتِهم"

"كلُّ الكلامِ الذي قلتُهُ لكِ في سبعِ سنينَ يقولُهُ كلُّ الرجالِ لعشيقاتِهم؟!"

"أجلْ"

"كلُّ الرجالِ، وكلُّ الكلام؟!"

"أجلْ"

"لمْ أحسبْ اللغةَ محدودةً هكذا. أتشُكِّينَ بعدَ كلِّ تلكَ السنواتِ في أنَّ قلبي وجسدي وُلِدا يومَ التقيْنا؟!"

"لكنَّكَ كنتَ تتلهَّفُ على زوجتِكَ قبلَ أنْ نلتقيَ، أنتَ أخبرتَني"

"لمْ تكنْ لهفةً بلْ حاجة. ألا يحسُّ البائسُ بالظمأِ؟ وبعدَ أنْ يرتويَ ألا يظلُّ بائسًا؟"

"لكنَّها تحبُّكَ!"

"الحبُّ الذي يبدو مثلَ الكراهيةِ، الكراهيةُ أنبلُ منه!"

"لعلَّها مِمَنْ يعجزونَ عن التعبيرِ عن حبِّهم"

"تعبِّرُ ببالغةٍ نادرةٍ عن حبِّها نفسِها. لكنْ حتَّى لوْ أنَّها أحنُّ وأعذبُ امرأةٍ

ما كانَ ذلكَ ليغيِّرَ شيئًا : إنِّي أحبُّكِ كالمسحورِ ليْسَ لي مِنْ أمـرِ نفـسي شـيءٌ. هلْ أنتِ ساحرةٌ وسحرتِني؟!"

"بلْ استعنتُ بساحر!"

"ألهذا ما عادَ في قلبي موضعٌ لسِواكِ؟"

"ليسَ من حقِّنا أنْ يحبَّ أحدُنا الآخرَ بكلِّ قلبِهِ ففي أعناقِنا آخرون"

"ليْتَ كلَّ مَنْ لي يمضونَ وتبقين!"

"لا تقلْ هذهِ الأشياءَ المرعبة!"

"مرعبةٌ لأنَّكِ لمْ تحبِّيني بكلِّ قلبكِ كما أحببتُكِ بكلِّ قلبي"

"بلْ لأنَّ لكَ حياةً ولي حياة. إنَّها الحقيقةُ التي تتعامى عنها"

"حياتُنا واحدةٌ، ومكانُكِ معي. لا بُدَّ من أنْ تكونَ لكِ إرادة!"

"نحنُ حقًّا بلا إرادةٍ، إرادتُنا لا تغيِّرُ شيئا!"

"ينقبضُ صدري كلَّما سمعتُكِ تقـولينَ ذلـك. كأنَّـكِ تـبرِّرينَ شـيئًا سـوفَ تُقدمينَ عليْه!"

"أجلْ، سوفَ أخونُكَ. أليسَ هذا ما تلْمِحُ إليْه؟!"

"لا يتمالكُ المحبُّ عقلَهُ مثلُكِ. عقلُكِ ما زالَ في يدِكِ وهـذا يفـزعُني لأنِّـي فقدتُ عقلي"

"حاوِلْ أنْ تستردَّه"

"لا أضمنُ ذلكَ، لكنِّي سوفَ أحاولُ. لا تندمي إنْ وَهَنَ حبِّي!"

"حبِّني بما يتفقُ والواقعُ: واقعي أنا وأنتَ"

"إنَّهُ واقعٌ بشع!"

"لكنَّ بديلَ الواقعِ الوهم. إنَّكَ تعيشُ في الوهم!"

"لا تُردِّدي هذا البرودَ ثانيةً!.. شيءٌ غيَّركِ.. هوَّةٌ سحيقةٌ بيننا منذُ عُدتِ.. بلْ من قبلِ أنْ تعودي.. منذُ رفضتِ لقائي.. ماذا غيَّرَكِ؟ أخبريني بحقيقةِ ما حدث. الغموضُ يقتلُني. لنْ أغضبَ ولنْ ألومَكِ مهما كان. أريدُ أنْ أكونَ على بيِّنةٍ لأعينَكِ على اجتيازِ ما بيننا من هوَّةٍ وطرحَ ذلكَ المجهولِ وراءَنا"

"لا أخفي شيئًا، ولنْ أكرِّرَ إيضاحًا سئمتُهُ ولا تصدِّقُهُ!"

"صِرتِ مثلَ الدنيا كلَّ يومٍ في حال"

"لمْ أصِرْ شيئًا لمْ أكنْ عليْهِ، أنتَ تنشدُ صنمًا من حجرٍ لا امرأةً حيَّةً!"

"بلْ هذا ما صِرتِهِ وأنتِ معي: صنمٌ، ما أفتقدُهُ فيكِ الآنَ هوَ الحياة"

(87)

"إنْ كنتَ تبحثُ عمَّن يدلِّلُكَ ليلَ نهارَ مهما بلغتْ همومُهُ ومشاغلُهُ فأنتَ

تبحثُ عنْ وسيطٍ لتحبَّ من خلالِهِ نفسَك!"

"مهما تفلسفتِ لنْ تقنعيني بأنَّ هذا الانقلابَ طبيعي. هناكَ لغزٌ. بلْ ليسَ لغزًا: إنِّي أعلمُ ما حدث!"

"ماذا برأيكَ حدث؟"

"وأعلمُ أنَّكِ تعلمينَ أنِّي أعلمُ، وفي هذا الكفاية!"

"ولماذا تعذِّبُ نفسكَ؟ أنا كلُّ ما تظنُّني وأسوأُ. هذه حقيقتي، فاقبلْني على ما أنا عليهِ أوْ لا تقبلْني!"

"هكذا ببساطة؟!"

"أجلْ هكذا!"

* * *

داهمَهُ غثيانٌ ما لبثُ أنْ صارَ تقلُّصاتٍ اعتصرتْ معِدتَه. أسلمتْهُ التقلُّصاتُ إلى قبضةٍ فولاذيةٍ جذبتْ قلبَهُ من وشائجِهِ تريدُ اقتلاعَهُ كأنَّ الشَريانَ سُدُّ مُجدَّدًا. أحسَّ بأنَّ جلدَهُ باردٌ كالثلجِ، وتراكمَ الثلجُ فوقَ ظهرِهِ فجعلَهُ يرتجفُ بعنفٍ، بلْ ينتفِض. انخرطَ في نشيجٍ طويلٍ أفضى بهِ في النهايةِ إلى إغماءةِ جريحٍ مُحتضَرٍ، وأفاقَ كأنَّهُ عادَ من موْت.

"وكأنَّ التوبةَ انتزعتْ الرحمةَ من قلبِها وملأتْهُ وحشيَّة! لوْ علمتْ أنَّ في

شريانِ قلبي دَعامة.."

ولكنَّ مثلي لا يذاعُ لهُ سِرٌّ. لمْ يخبرْها حينئذٍ كيْلا تحزنَ، ولـنْ يخبرَهـا الآنَ لأنَّها ما عادتْ حياةَ التي أحبَّتْه. كانتْ من رسـمِ تيتزيـانو وصـارتْ مـن رسمِ بيكاسُّو.

"كأنَّها عادتْ لمرَّةٍ أخيرةٍ لا لـشيءٍ إلَّـا لتـودِّعَني، وفي ذاتِ الوقـتِ لتبـدِّدَ أوهامي بشأنِها. أعلمُ أنَّ أسئلتي الاستفزازيةِ لا يُردُّ عليها إلَّا على ذلكَ النحوِ الاستفزازيِّ، لكنَّ حياةَ ظلَّتْ دائمًا صوتَ التسامحِ والعطفِ فما الـذي جعلـها بهذا التحدِّي وسوادِ القلب؟ أمْ أنَّ علاقتَنا ظلَّتْ دائمًا صراعًا وأنا أظنُّها وفاقًا؟ هلْ أفسدتُها بعدَ أنْ كانت بريئةً؟ أمْ هكـذا تجـري الأمـورُ في العلاقـاتِ غـيرِ المتكافئةِ عمريًّا، نصفُ شعرِ الغزلِ القديمِ اعتذارُ كهولٍ لصبايا عن الشيْب؟"

أنْشَدَ:

أمَّا الصِبَا فَلَقَدْ مَرَّتْ لَيَالِيهِ

فَابْكِيهِ يَا عَفَّةَ الجِلْبَابِ فَابْكِيهِ

وَمَا رَثَيْتِ لِدَمْعٍ كُنْتُ أَذرُرُفُهُ

وَلَا عَطَفْتِ عَلَى جُرْحٍ أُعَانِيهِ

* * *

هلْ انتصرَ الفِراقُ أخيرًا وفصمَ التوأمَ الروحيَّ؟ هلْ تداعى الحبُّ مثلَ المعابدِ العتيقةِ بعدَ ما بدا أنَّهُ صُمود؟ لِمَ نلومُ حبًّا لأنَّ الزمنَ غلبَهُ، والزمنُ يغلِبُ النجوم؟ لا بُدَّ الآنَ من الإجهازِ على تلكَ العلاقةِ البائسةِ لأنَّها- مثلُ المحكومِ عليهِ بالإعدام- مصيرُها الموتُ مهما تأجَّلَ التنفيذُ، والأقلُّ ألمًا أنْ يجهزَ عليها الآنَ ثم يكرِّسُ أيامَهُ الباقيةَ للتعافي، لا أنْ ينتظرَ حتَّى يشهدَ الإعدامَ وهوَ أوهى من أنْ يتعافى. لا بُدَّ من التخلِّي عن الحبِّ المهزومِ مثلَ حاميةِ مدينةٍ أسلمتْها للأعداءِ إثرَ حصارٍ نفذتْ أثناءَهُ المؤن. ليسَ بوسعِ حياةَ هجرَ زوجِها- ولا هيَ تفكِّرُ جِديًّا في هجرِهِ- أكَّدتْ ذلكَ المرَّةَ تِلوَ المرَّةِ وبحُجَّةٍ قويَّةٍ هيَ حرصُها على ابنتِها. بعدَ سنينَ من انتظارِ ما لا يأتي ما كانَ لعاقلٍ إلَّا أنْ يطويَ صفحةَ حياةَ ويرتاح. لا يضِيعُ العاقلُ حياتَهُ المتحقِّقةَ من أجلِ حياةٍ لنْ تتحقَّق.

ما أنْ عقدَ عزمَهَ على هذا النحوِ حتَّى شعرَ بأنَّهُ أقوى مَنْ في الكوْن. رعبُهُ من فقدِ حياةَ كانَ ضعفَهُ الوحيدَ، وسِوى ذلكَ لا يأبهُ لشيء. لمْ تتصلْ بهِ حياةُ في اليومِ التالي، ولمْ يتَّصلْ بها. كلُّ يومٍ قطيعةٍ يقوِّيهِ ويثبِّتُهُ ويرسِّخُ عزمَهُ على الخلاص. كلَّ صباحٍ يفتحُ عينيْهِ فيحسُّ أنَّ العالمَ غُسِلَ أثناءَ نومِه. الشمسُ الدافئةُ وتيَّارُ الهواءِ الحنونِ والأشجارُ عميقةُ الخضرةِ وشقشقةُ الطيورِ، كلُّ ذلكَ يبهرُه كأنَّما يراهُ لأوَّلِ مرَّة. لمْ ينتبهْ إلى شيءٍ من ذلكَ لسبعِ

سنينَ لمْ يرَ فيها سِوى حياة. يسبحُ في نهرِ الحياةِ متنعِّمًا وهو مُمتنّ. صباحٌ بديعٌ، لكنْ أينَ يذهبُ الإنسان؟ لا مكانَ يُذهبُ إليْه. ثم يخطرُ ببالِهِ- بحكمِ العادةِ الطويلةِ المتأصِّلةِ- أنَّ حياةَ لمْ تتصلْ هذا الصباحَ أيضًا، ويستعرضُ كلَّ ألوانِ العِتابِ التي سوفَ يعاتبُها بها حينَ تتصلُ، رغمَ يقينِهِ بأنَّهُ لنْ يسمعَ صوتَها ثانيةً وذلكَ أفضلُ لأنَّهُ سعيدٌ بدونِها. حينَ نسى وجودَها استمتعَ بالطبيعةِ وبكلِّ الوجود. استردَّ راحةَ بالِه. استردَّ نفسَه. إنَّها مَنْ ينغِّصُ عليهِ العالم.

في صباحِ اليومِ الثالثِ غرَّد الموبايلُ بلحنِ مونامور. وكأنَّ اللحنَ صدمةٌ كهربيَّةٌ أنعشتْ قلبَهُ الهامد:

"لمْ تتصلْ بي حينَ لمْ أتَّصلْ بكَ، ولوْ لتطمئنَّ أنِّي لمْ أمتْ!"

"أنا الذي مات!"

صوتُهُ صوتُ ميِّتٍ، إنْ كانَ للميِّتِ صوْت.

"أنتَ مكتئب!"

"على العكسِ: إنَّني أطيرُ فرحًا"

"ما سرُّ فرحِكَ الطائر؟"

"أحسُّ بأنِّي تحرَّرتُ أخيرًا من أسرِ الدنيا: لمْ يبقَ فيها شيءٌ أخشى أنْ

أفقدَه. شعورٌ رائعٌ بالحريَّةِ المطلقة"

"صدقتَ، لا شيءَ في الدنيا يستحقُّ لا سيَّما نساءَها"

"لا تهزئي في موضعِ الجِد!"

"وماذا أنتَ فاعلٌ بعدَ أنْ زهدتَ كلَّ هذا الزهد؟"

"سوفَ أنهي عقدي وأرحلُ. لا بُدَّ من عودتي الآنَ فلنْ أحتملَ فقدَكِ وأنا في المنفى"

"هذا يشي بأنَّكَ لمْ تزهدْ فيَّ!"

"زهدتُ في العَيْش.. سأعودُ لعلَّ أبنائي يُلهونَني عن نفسي، وأظلَّ استقبلُ كلَّ صباحٍ آملًا أنْ يكونَ الأخير!"

"حينَ احتجْتَ عزاءَ التمستَهُ في حياتِكَ الحقَّةِ: أسرتِك"

"لا عزاءَ، بلْ سُكنى على مضضٍ قريبًا من قبري.. لا أريدُ أنْ أُدفنَ غريبًا كما عشتُ غريبًا"

"أنا مَنْ زهَّدكَ في العَيْش"

"بلْ كنتُ ميِّتًا قبلَكِ، وأعودُ بعدَكِ إلى كفني!"

"ولماذا تظنُّ أنَّكَ الآنَ بعدي؟"

"لا ألقى منكِ إلَّا جفاءَ مَنْ عافتْ وملَّتْ"

"لعلَّني أتدلَّلُ!"

"لوْ كنتُ شابًا لرحَّبتُ بدلالِكِ، لكنْ لمْ يبقَ في عمري متَّسعٌ للدلالِ فلا تُهدري اللحظاتِ الباقية!"

"انتويتَ التوبةَ إذنْ؟"

"معضلةُ التوبةِ أنَّ الحالمَ بها يظلُّ يقولُ لنفسِهِ: سوفُ أتوبُ بعدَ هذهِ المرَّة!"

"عينٌ في الجنَّةِ، وعينٌ في النار!"

"لا جنَّةَ، نارٌ فقط!"

"لوْ أنِّي ببابِكَ الآنَ أطرقُهُ، ألنْ تفتحَ لي؟"

"لوْ أنَّكِ ببابي الآنَ؟ يا لَهُ من سؤالٍ مُهيِّج!"

"إنَّهُ سؤالٌ بريء"

"بريءٌ، لِمَ اندلعتْ النارُ إذنْ في أعضائي؟!"

"أنتَ أدرى بنفسِك"

"ليتَكِ ببابي فإنِّي أحترق!"

"أتأذنُ لي بزيارتِك؟"

"لوْ طرقتِ بابي- وكنتُ بلا ذراعيْنِ أوْ ساقيْنِ- سوفَ أزحفُ على بطني

إلى البابِ وأفتحُهُ بأسناني!"

"لا تبدو جاهزًا للتوبةِ!"

"كيفَ أتوبُ وظمأي إليكِ لا يرتوي؟!"

"تحشَّمْ أيُّها التائب!"

"لا بُدَّ من ألتهمَ شفتيْكِ أوَّلًا وثدييْك!"

"قلتُ لكَ: تحشَّمْ!"

"تعالي الآنَ جوعي ينهشُني.. تعالي لأفترِسَك!"

"اصمتْ!"

"لنْ أصمتَ سوفَ نفعلُها الآن!"

"كفى!"

"إنِّني أعتصرُ شفتيْكِ حتَّى الإدماء. إنَّني ألعقُكِ بلساني حتَّى تقشعرَّ كلُّ خليَّةٍ من خلاياك. إنَّني أعجنُكِ وأفردُكِ كما يعجنُ العجَّانُ ويفردُ العجين. سوفَ تتوسَّلينَ إليَّ أنْ أعتليكِ لأريحكَ لكنِّي سوفَ أضِنُّ عليكِ بالراحة. لنْ أحرثَكِ إلَّا في آخرِ الليلِ عندَ مطلعِ الفجرِ، وسوفَ يكونُ ذلكَ أليمًا حقًّا وسوفَ تصرخين. أتذكرينَ ذلكَ الألمَ الذي أحببْتِه، سوفَ أولمكِ أضعافَ ما آلمْتُكِ يومَها؟!"

ظلَّتْ صامتةً كأنَّها غُيِّبتْ.

"أينَ يداكِ الآن؟"

"بجواري"

"لا أريدُهما بجوارِك!"

"ماذا؟"

"تفهمينَ ماذا!"

"اصمتْ!"

"الآنَ أينَ هما؟"

"بجواري"

"كاذبةٌ، لا تبقيهما ساكنتيْن!"

ما عادَ يسمعُ سِوى أنَّاتِها: سطحيَّةً خافتةً أوَّلًا ثم راحتْ تعمُقُ وتتصاعد..

"أنا دواؤكِ وأنتِ دوائي!.. أنا مَنْ ضاجعَكِ في قارتيْن!.. بفحولتي ما ينبغي لي أنْ أعشقَ سِواكِ أيَّتها الشبِقةُ، ولكِ إلَّا أنْ تعشقي فحلًا مثلي!"

توسَّلتْ إليهِ بشبقٍ هامس أنْ يرحمَها، وكأنَّها دعوةٌ للتمادي فتمادى، مستدعيًا كلَّ ما وَعتْهُ ذاكرةُ الفُحشِ على مدى العمرِ، كلَّ ما هوَ داعرٌ وفاجرٌ

في معاجمِ العشوائيَّاتِ والمواخير. أجَّجَها ذلكَ الفحشُ المفـاجئُ فطفِقـتْ تتـأوَّهُ بحُرقةٍ- تجأرُ وتخورُ- وما هيَ إلَّا دقائقُ حتَّـى وَشَـتْ الـصرخاتَ الوحـشيَّةُ المنبعثةُ من الموبايلِ بأنَّها فقـدتْ صـوابَها وغرِقـتْ في الألمِ المحبَّـبِ للرجفـةِ الكبرى. صرخاتُها المحمومةُ أفقدتْهُ زمامَ جسمِه. كـانَ مهيَّئًـا وناضـجًا، وفي لحظاتٍ بدأَ يرتجِفُ ويقذِف.

* * *

"حياةُ: أما زلتِ هناك؟"

"أجلْ يا حبيبي!"

"راضية؟"

"أجلْ، هلْ أنتَ راضٍ؟"

"كلَّ الرضا"

"إنَّنا مجنونان!"

"أنتِ شيطاني وأنا شيطانُك!"

"أَ يفعلُ أحدٌ ما فعلناه؟"

"على الأرجحِ كلُّ من لديْهم موبايل!"

"لمْ أتخيَّلْ أنْ يحدثَ لي ذلكَ في التليفون!"

"ولِمَ لا، أنتِ كتلةُ هورموناتٍ متفجِّرة؟!"

"لا يفجِّرُها سِواكَ مهما بلغَ حَنَقي عليك!"

"التحدِّي والتحفُّزُ الذي سادَ علاقتَنا مردُّهُ إلى أنَّكِ تشتهينَني وأشتهيكِ، ولا نشبِعُ شهوتَنا لأنَّنا لسنا معًا. لوْ اضطجْعنا معًا كلَّ ليلةٍ لنْ نتشاجرَ أبدا!"

"ألا تقولُ لنفسِكَ إنَّ وجودي في حياتِكَ أشقاك"

"بلْ أقولُ دائمًا: لقدْ هَوَّنَتْ عليَّ غربةً كالتيهِ في الصحراء!"

"أنتَ هوَّنتَ عليَّ غربةَ وجودي نفسِه. أملُنا الوحيدُ ألَّا يكفرُ أحدُنا بالآخر"

"لا تغدري بحبيبِكِ الذي جعلكِ في كفَّةٍ والدنيا في كفَّة. لا تُحرقي هذا القلبَ ثانيةً يا حياة. لا تتوبي عن حبِّي حتَّى لوْ حسبتِهِ خطيئة. إنِّي أكبرُكِ كثيرًا وسوفَ أمضي وتبقى أمامكِ عقودٌ للتوبة"

"بلْ أنا فداؤكَ، ليسَ للعمرِ شأنٌ بأنْ يمضيَ الناسُ أوْ لا يمضوا!"

الآنَ صدَّقَ ما قرأَ وسمِعَ من أنَّ الناسَ يعشقونَ على فيسبوك وسكايب وفايبر، وقد يقتلونَ أزواجَهم أوْ حتَّى أطفالَهم للخلاصِ من زواجٍ حقيقيٍّ والتفرُّغِ لحبٍّ افتراضيّ. لمْ يلتذْ بقذفٍ مثلِ ذلكَ القذفِ الذي حدثَ توًّا، حتَّى حينَ استمنى أيَّامَ المراهقةِ لأوَّلِ مرَّة.

ما دامتْ تسعى إلى الخلاصِ منهُ، لماذا تعودُ وتجذبُه؟ أليستْ عودتُها إليهِ بعدَ كلِّ شجارٍ دليلًا على أنَّها تهيمُ بهِ؟ لوْ أنَّهُ ينفقُ عليها لقالَ إنَّها مصاصةُ دماءٍ لا تريدُ أنْ تفلتَهُ، لكنَّها تأبى أنْ يعطيَها أيَّ شيءٍ، بلْ وتُهديه. لوْ أنَّها زهدتْ فيهِ فلماذا تتشبَّثُ بهِ؟ هلْ تلهو مثلما يلهو القطُّ بالفأرِ حتَّى آخرِ رمق؟ أوْ مثلَ الجنِّي شيخِ الجزيرةِ الذي يمتطي الناسَ ويسوقُهم كالدوابِ ليلَ نهارَ إلى أنْ يهلكَهم الجَهدُ المُضني ويخِرُّوا جثثًا هامدة؟ تقولُ حياةُ إنَّ لساتِهِ وحدَهُ هيَ التي تؤجِّجُها، وكلماتُهُ وحدَهُ هيَ التي تُذيبُها. أحقًّا؟ ليْتهُ حقٌّ! اعتزَّ دائمًا بأنَّهُ يفهمُ الناسَ من أوَّلِ نظرةٍ، فكيفَ استعصتْ حياةُ على فهمِهِ كلَّ الاستعصاءِ بعدَ سنينَ من الصُحبة؟ ليسَ بوسعِهِ بلوغُ يقينٍ بشأنِها لأنَّ عقلَهُ ممتلئٌ بها. حلمُهُ أنْ يكفَّ عن التفكيرِ فيها للحظةٍ يزنُها فيها بمنطقٍ. لكنَّ مَنْ يفكِّرُ بخليَّةٍ واحدةٍ من مخِّهِ سِوى في محبوبِهِ ليسَ بعاشق، ومَنْ يتذكَّرُ أنَّ للمنطقِ قوانينَ– أوْ أنَّ هناكَ منطقًا في الأصلِ– ليسَ بعاشق. بلْ إنَّ مِنْ يزنُ الأمورَ بالمنطقِ لنْ يعشقَ أبدًا لأنَّ العشقَ لا منطقيٌّ. أومأتْ فوضعَ النِيرَ باسمًا مُمتنًّا، ونسى الفلسفةَ التي تفلسفَها عن حريَّتِهِ المطلقة.

ما ينبغي أنْ يفارقَ حياةَ للحظةٍ وعلاقتُهما متقلِّبةٌ هشَّةٌ على هذا النحوِ الخطِرِ فيعودَ ويجدَها هشيمًا تذروهُ الريحُ، أوْ لا يجدَ حتَّى ذراتِ الهشيم. وهوَ في الوطنِ سوفَ تتقلَّصُ الاتصالاتُ إلى الحدِّ الأدنى– إلى التحايا والسؤالِ

عن الحـال- في حـينِ ينبغـي لـهُ أنْ يـدعمَها لحظـةً بلحظـةٍ لأنَّهـا لا تطيـقُ الوحدةَ، ولأنَّ الرجالَ لـنْ يتركوهـا لوحـدتِها. ابتـسمَ بغـيْظٍ متـذكرًا حكايـةَ عِفريتِ ألفِ ليْلةٍ ومعشوقتِه:

"إنَ هذا العِفريتَ قدْ اختطفَني ليلةَ عرسي، ثم أنَّهُ وضعَني في علبةٍ وجعلَ العلبةَ داخلَ الصندوقِ ورمى على الصندوقِ سبعةَ أقفالٍ وجعلَني في قاعِ البحـرِ العُجاجِ المتلاطمِ بـالأمواجِ، ولا يعلـمُ أنَّ المـرأةَ منَّـا إذا أرادتْ أمـرًا لمْ يغلبْهـا شيء.."

* * *

ما لمْ تفرضِ الكلامَ مسألةٌ معيشيَّةٌ ملحَّةٌ، سوفَ يظلُّ هوَ وامرأتُهُ صامتيْنِ دونَ أنْ يخطرَ ببالِ أحدِهما التطلُّعُ صـوبَ الثـاني. لا يجمعُهمـا شـيءٌ، وكـلُّ الأشياءِ تفرِّقُهما. يضيقُ صدرُهُ كلَّما اضطُرَّ إلى الكلامِ معها. بلْ وكلَّمـا أدركَ أنْ سيكونُ عليهِ عمَّا قريبٍ أنْ يكلِّمَها. كلُّ ما يتحـرَّكُ بـهِ لـسانُها يكـدِّرُه. إنَّهـا مُنغِّصٌ لا مفرَ منهُ مثلُ أنْ يكونَ للمرءِ قريبٌ سمِج. منذُ عـادَ نظـراتُ امرأتِـهِ عجيبةٌ مرعبة. تتأمَّلُهُ وتتفحَّصُهُ في غفلةٍ منهُ بعينيْنِ ناريتيْن. وكلَّما انتقـدَها أوْ انتقدَ العيالَ ردَّت في تحدٍّ:

"ليسَ ذلكَ، بلْ ما عُدْنا على هواك!"

أوْ تقولُ:

"بلْ تفتعلُ شِجارًا لأنَّنا لا نُعجِب!"

في لحظةِ تبرمٍ- بعدَ أن تشبَّعَ بالغموضِ حتَّى الانفجارِ- صرخ:

"لماذا تنظرينَ إليَّ هكذا كالمجانين؟!"

"لستُ أنا المجنونةَ، المجنونُ مَنْ لا يحترمُ عمرَه؟!"

"أيَّ عمر؟! ما هذهِ الخترفة؟!"

"خترفةٌ، لقد ضبطناك؟!"

قالتْ ذلكَ بشماتةٍ كأنَّها ضبطتْ ابنَ لادنٍ وستُصفِّيه..

"مَنْ (أنتم) وما الذي (ضبطتموه) ؟"

"يا لكَ من ممثل! أنا وعيالُكَ ضبطناكَ، أمَّا ذلكَ الذي ضبطناهُ فأنتَ أدرى الناسِ بهِ!"

"اكتشفتمْ أنَّني نازيٌّ فارٌّ منذُ سقوطِ برلين؟!"

"لا تلعبْ هذه الألاعيبَ فلنْ تُجدي. الآنَ فهِمتُ لِمَ صرتَ مخلوقًا لا نعرفُهُ. منذُ عرفتَها مُسِختَ!.. لقد سقتْكَ سمًّا!"

لا لَبْسَ الآنَ فيما اكتشفتْ، لكنْ كيف؟!

"عيالُكَ مبهوتون. يقولونَ: كيفَ فعلَ ذلكَ بنا؟! ابنُكَ لا يصدِّقُ أنَّ بوسعِ أبيهِ أنْ يكتبَ تلكَ السفالات"

"أيَّ سفالات؟"

"الكلماتِ البذيئةَ في التشات"

"تلصَّصتم على حسابي؟! كلُّكم؟! جعلتِهم يتجسَّسونَ على أبيهم أيَّتها الأمُّ القدوة؟!"

"لا تتحدَّثْ عن القدوةِ بعدَ أنْ فعلتَ ما فعلت!"

"أتورَّع عن التجسُّسِ على حسابِ ابنتِنا الطفلةِ، أوْ حتَّى على حسابكِ وأنتِ زوجتي"

"ليقينِكِ أنَّني لا أقترِفُ مثلَ هذهِ الحقارات"

"لمْ أقترفْ حقارات"

"أليسَ العشقُ ابتذالًا وأنتَ في هذا العمر؟!"

"ليسَ العشقُ ابتذالًا في أيِّ عمر"

"يدعونكَ قيْسًا فيما بينَهم.. أبناؤك!"

"لاتِّهامٍ بأنِّي أحبَّبتُ؟ وإنْ كانَ: هلْ يستكثِرونَ على أبيهم أنْ يُحِبَّ أوْ يُحَبَّ؟"

"حبٌّ؟! ألا تخجلُ؟! مَنْ في مثلِ عمركَ لا يُحَبُّون، إنَّها تستغلُّكَ وتستغفلُك!"

الإساءةُ الآنَ طالتْ حياةَ، وهذا ما لنْ يسمحَ بهِ حتَّى لوْ اعترف.

"إنْ كانَ بينَنا مُستغِلٌّ فهوَ أنا"

"لقد سحرتْك، لا شكَّ في أنَّها أخضعتْكَ بتعويذةٍ أوْ بلَعنة!"

"ولماذا تسحرُني؟"

"من أجلِ مالِكَ بالطبع"

"المالُ آخرُ ما يهمُّها"

"لا يجذبُ النساءَ إلى مَنْ في مثلِ عمرِكَ سِوى المال!"

"صدقتِ، أنا جثَّةٌ!"

"لستَ جثَّةً، لكنْ لا بُدَّ منْ أنْ توقِّرَ عمرَكَ فلعمرِكَ وقارُهُ وهيبتُه. بعدَ فِعلتِكَ لا لومَ على المراهقينَ مهما فعلوا!"

"لمْ أفعلْ ما يستوجبُ اللوْم"

"هلْ وعدتَها بالزواج؟"

"لمْ أعِدها بشيء"

"أمْ أنَّها متزوِّجة؟ لا شكَّ أنْ زوجَها مشلول. كلَّا، ليستْ زوجةً بلْ أرملةً، لا شَكَّ في أنَّها أرملة"

"أجلْ فلنْ تنظرُ إليَّ إلَّا يائسةٌ سُدَّتْ في وجهِها السُبل!"

"أتظنُّ أنَّها لـكَ وحـدَك؟ إنَّ لهـا موقعًـا علـى النِـتِّ، لقـد رأيـتُ صـورَها الفاضحة!"

ليستْ القضيةُ صدمةَ امرأةٍ بخيانةِ رفيقِ عمرِهـا، بـلْ تعمُّـدَ رفيقـةِ عمـرٍ إهدارِ كلِّ تضحياتِ رفيقِها الذي حُرِمَ مـن وطنِـهِ وأهلِـهِ وصـحَّتِهِ- بـلْ ومـن كرامتِهِ وإنسانيَّتِهِ- وإسقاطِهِ في عيونِ أبنائِهِ الذين ضحَّى بنفسِهِ مـن أجلِهـم. لقد اقتنصتْ الفرصةَ كيْ توَّثقَ انتصارَها الأبديَّ عليْهِ بإيهامِ أبنائهِ بأنَّـهُ ظـلَّ كلَّ تلكَ السنينِ في شهرِ عسلٍ، والآنَ لنْ يصدِّقوا أبدًا أنَّهُ استُشهِدَ من أجلِهـم. ضاعتْ حياتُهُ هباءً ثم اتُّهِمَ واحتُقر. أبدَ الدهرِ لنْ يغفرَ لها إسـقاطَهُ في عيـونِ أبنائِهِ، حتَّى لوْ رآها تُعذَّبُ في الدائرةِ التاسعةِ من جحيمِ دانتي.

منذُ اقتحموا حسابَهُ على فيسبوك ومجلسُ الحربِ منعقدٌ انعقادًا دائمًـا- مجلسٌ رئيستُهُ الأمُّ وأعضاؤهُ الأبناءُ- وكلٌّ يدلي بـدَلوْهِ بحظـوظٍ متفاوتـةٍ لأنَّ منهم الناريُّ ومنهم الجليديُّ. قالتْ الرئيسة:

"أحسُّ غيظًا هائلًا.. دمي يغلي.. أعجزُ عن النـومِ وأبكـي دموعًـا سـاخنةً لعجزي عن الانتقام!"

استوضحَها الابنُ الأكبر:

"غيظًا أمْ حزنًا؟"

"غيظًا لأنِّي كنتُ مغفَّلة. لأزواجِ صديقاتي حكاياتٌ مفزعة. لقـدْ حـذَّرنني ولمْ أتَّعظ!"

قالَ الابنُ بنيَّةِ تأجيج غيْظِها:

"ما دُمتِ ناقمةً كلَّ هذهِ النقمةِ، اهجريه!"

"لنْ أتركَهُ لها، لنْ تنتصرَ عليَّ!"

"المسألةُ ليستْ عنادًا!"

"بلْ ليستْ شيئًا سِوى العناد!"

"حقًّا الزواجُ نظامٌ فاشلٌ وظالمٌ فما ينبغي أنْ يُفرَضَ على الناسِ أنْ يرتبطوا أبديًّا لأنَّهم يتغيَّرون. في حِقبةٍ من عمرِ أبي رآكِ شريكةً مناسـبةً، لكنَّـهُ لقـيَ أخرى بعدَ أنْ تغيَّرَ واكتشفَ أنَّها الأنسبُ لشخصيَّتِهِ الجديدة.."

"وبناءً على ذلكَ لا بُدَّ من أنْ أنسحبَ داعيةً بالسعادةِ لعـصفوريْ الحـبِّ، بلْ للبومةِ والغرابِ: فوقَ جثَّتي، سوفَ أقتلُهما وأمزِّقُ أوصالَهما!"

"لمْ أدركْ أنَّكِ تحبِّينْهُ كلَّ هذا الحبِّ!"

"ليسّ في المسألةِ حبٌّ. ذلكَ الرجلُ كَدْحُ عمري. لنْ أسلِمَهُ على الجاهزِ بعدَ كلِّ ما ما عانيتُ في العمر!"

سادَ الصمت. التفتتْ إلى الابنةِ الكبرى صارخةً:

"لِمَ صمتُكِ الأبديُّ؟ ألا رأيَ لكِ في هذهِ الكارثة؟"

قالتْ الابنةُ دونَ أنْ ترفعَ عينيْها عن شاشةِ التابلت: "ليسَ لي!"

"تتنصَّلينَ من شهادةِ حقٍّ!"

"بلْ لا أعلمُ"

"تنافقينَ أباكِ يا منافقة!"

"لا أعلمُ يا ماما!"

"ألا تعلمينَ أيَّ شيءٍ سِوى التشات؟ دعي الزفتَ الذي في يدِكِ وانظـري في عينيَّ وأنا أكلِّمُك!"

* * *

مِن بينِ عيالِهِ، أدهشَهُ أنَّ ابنَهُ الأصغرَ- المتَّهَمَ بأنَّهُ مُغَيَّبٌ- أوَّلُ مَنْ ابتدرَهُ بحديثِ الفيسبوك:

"أعلمُ أنَّكَ تظنُّني أبلهَ، لكنِّي لستُ أبله!"

"أحدُ أشخاصِ روايةِ لدوستويسكي قالَ ذلكَ حرفيًّا!"

"دوستويسكي مَنْ؟"

"لا عليك. لا أظنُّكَ أبلهَ بلْ غيرَ مُبالٍ، ماذا بعدَ هذهِ المقدِّمةِ البليغة؟"

"إنِّي أفهمُ كلَّ ما يدورُ حولي، وأعلمُ معنى الزنا والدعارةِ والاغتصابِ

واللِواطِ والسِحاقِ وكلِّ تلكَ الأشياء.."

"اللهمَّ زِدكَ علمًا!"

"وأعلمُ أنَّكَ على علاقةٍ بامرأةٍ، وأعلمُ ما يفعلُ الذينَ بينَهم علاقة"

"لا علاقةَ لي بأحد. لا وقتَ لديَّ للعلاقات، كلُّ وقتي عمل.."

"امرأةٍ من العملِ: سكرتيرةٍ أوْ إحدى الموظَّفاتِ من مرؤوساتِك.."

"لقد تفوَّقتَ على سميردياكوف نفسِه!"

"مَنْ؟"

"لا أحد.. سكرتيرةٌ أوْ موظَّفة أرأسُها: إنَّها نفسُ نظريَّةِ أمِّكَ مع تحويرٍ طفيفٍ: في رأيها أنَّ المرأةَ كي تتطلعَ إليَّ لا بُدَّ من أنْ تكونَ يائسةً، وفي رأيكَ أنَّ المرأةَ كي تقيمَ علاقةً معي لا بُدَّ من أنْ تكونَ مغلوبةً على أمرِها!"

"أوْ مُتسلِّقة!"

"حقًّا أنتَ عبقريٌّ مثلُ أمِّك. كلُّكم عباقرة. هلْ تجسَّستَ عليَّ أنتَ أيضًا؟"

"ومَنْ تظنُّهُ اخترقَ حسابَكَ، أتظنُّ أنَّ أمِّي أوْ أخوتي لديْهم تلكَ الموهبة؟"

"القرصنةَ، أهيَ موهبة؟"

"إنَّها عبقريَّة"

"لا أشكُّ في ذلك. وكيفَ اهتديتَ إلى ذلكَ الاسمِ بالذَّاتِ: اسمِها؟"

"مَنْ يكثُرُ معهم التنشاتُ يظهرونَ على قمَّةِ قائمةِ المعارف"

"لمْ ألحظْ ذلك. وهلْ قرأتَ تشاتي كلَّه؟"

"ليسَ كلَّه، أصابَني بالملل. أمِّي قرأتْهُ كلَّهُ وهيَ تنفثُ نارًا كالتنِّين"

"ما رأيُكَ فيما قرأتَ؟"

"تفاهات. مثلُ حوارٍ في فيلمٍ أسودَ وأبيض. لمْ أحسبْكَ ساذَجًا هكذا، ما عادَ مثلُ هذا الكلامِ يُقال!"

"ماذا دفعَكم أصلًا إلى اختراقِ حسابي؟"

"لاحظتْ أمِّي أنَّكَ تغيَّرت"

"ومِن بديهيَّاتِ مهنتِكم أنَّ تتجسَّسوا على كلِّ مَنْ تشتبهونَ بتغيُّرِهِ، مَنْ أنتم الموساد؟!"

أمَّا الابنةُ الكبرى- المخطوبةُ- فأصرَّتْ على حيادِها السلبيِّ. حينَ سألَها على انفرادٍ عن رأيِها قالتْ:

"ليسَ بإمكانِي أنْ أدينَكَ، أوْ أدينَ ماما. وليسَ بوسعِي أنْ أبرِّئَكَ أوْ أبرِّئَها. لا أصلحُ قاضيًا بينَكما لأنِّي ابنتُكما. أرجوكَ أنْ تعفيَني من هذهِ القضيَّةِ لأنِّي غيرُ مؤهَّلةٍ للحكمِ فيها: لقدْ أصبتماني بشللٍ فكريٍّ!"

أمَّا ما بَهَتَهُ حقًّا فمحاولةُ ابنتِهِ الطفلةِ مفاوضتِهِ على صفقةٍ من وراءِ ظهرِ

أمِّها. قالتْ ابنتُهُ الصُغرى ذاتُ الأعوامِ العشرة:

"لا اعتراضَ لي على خطيبتِكَ إذا سمحتَ لي باقتناءِ كلبِ جولدن.. بلْ كلبيْنِ: ولدٍ وبنتٍ أستولِدُهما وأبيعُ الجِراءَ على الإي باي"

رغمَ إنكارِهِ، كلُّهم موقنونَ بأنَّهُ مذنب. مذنبٌ مثلُ الذينَ يضعونَ على يوتيوب مشاهدَ التقطوها لأنفسِهم وهم يدكُّونَ زوجاتِ الآخرينَ واحدةً تِلوْ أخرى. غيرَ أنَّ جرمَهُ الذي لا يُغتفرُ في نظرِهم هوَ أنَّهُ فكَّرَ في غيرِهم. لا يحقُّ لهُ أنْ يفكِّرَ إلَّا فيهم. لا يحقُّ له حتَّى أنْ يفكِّرَ في نفسِه. لا بُدَّ من أنْ يكونَ مثلَ الملائكةَ الذينَ لا يفكِّرونَ إلَّا في اللهِ، أوْ- في حالتِهِ- ملاكٌ واحدٌ يفكِّرُ في بضعةِ آلهةٍ هم الأمُّ والأبناءُ لأنَّهُ ملكيَّةٌ حصريَّةٌ لشركتِهم.

كلَّما نظرَ في شاشةِ التابلتِ لفحتْ وجهَهُ شواظٍ متطايرةٌ من عينيْ امرأتِهِ المتَّقدتيْن:

"لِمَ نظراتُكِ المرعبةُ كأنَّكِ تخطِّطينَ لقتلي؟"

"لنْ أخبرَكَ بما تعلمُهُ: العارفُ لا يُعرَّف!"

تقولُ ذلكَ ثمَّ تواصلُ انهماكَها في لعبةِ سَحْقِ الحشراتِ على الموبايل. تدمنُ تلكَ اللعبةِ المقزِّزة. تسحقُ الحشراتِ بغِلٍّ وتلذُّذ. لوْ جلستَ بقربِها تظلُّ تسمعُ: "باك! بيشت! باك!.."

غمغمتْ وهيَ تسحقُ: "غريبٌ في بيتي!"

"ماذا؟!"

"هلْ أنتَ حقًّا زوجي، العيالُ يقولونَ إنَّ كائنًا فضائيًّا استُبدِلَ بك؟!"

"إنْ كانَ في ذلكَ إرضاؤكِ وإرضاءُ عيالِكِ: أجلْ، زوجُكِ اختطفتْهُ مركبةٌ فضائيَّة!"

"كيفَ ماتَ قلبُكَ نحوَنا هكذا؟!"

لا يفهمُ الأهلُ لغزَ برودِ المنفِيِّ وتبلُّدِه. يظنُّونَ قلبَهُ تحوَّل. قدْ يكونُ تحوَّلَ، لكنَّ ذلكَ ليسَ كلَّ الأمر. إنَّهُ- مِن قبلِ أنْ يتحوَّلَ بدَهْرٍ- أماتَ قلبَهُ لتفادي أوجاعِ الفِراقِ والحرمانِ، أماتَهُ ثم عجزَ عن أنْ يُحيِيَه. ليستْ حياةُ مَنْ أماتَ قلبَهُ، بلْ مَنْ أحيَتْه.

"بلْ تبلَّدتْ مشاعري إزاءَ العالمِ كلِّهِ، وإزاءَ نفسي قبلَ كلِّ الناس. ثقي بأنَّ ذلكَ مُحتَّمٌ مع كلِّ فراقٍ يطولُ- يُدعى اغترابًا- ويحدثُ حتَّى لزوجِ الحمام"

"اغترابًا؟! بعدَ كلِّ هؤلاءِ العيال؟! صِرتَ مَسخًا. لا يُمسخُ كهلٌ هكذا إلَّا إذا عبثتْ فاجرةٌ بشيْبِه!"

تمنَّى ميتةً لا يتسنَّى لامرأتِهِ البغيضةِ أنْ تحضرَها.

"من العَسَفِ أنْ يؤاخذَ النـاسُ بمحادثـاتِهم علـى النـتِّ لأنَّ عالَمهـا وَهْـمٌ. الأسماءُ غالبًا مُستعارةٌ، والصورُ فوتوشوب. قدْ أتغزَّلُ بصورةِ امرأةٍ فاتنةٍ وهيَ في الواقعِ ذَكَرٌ مُشْعِر!"

"لكنَّ مَنْ تتغزَّلُ بها حقيقة!"

غمغمْ بدورِه:

"لِمَ العتابُ يا عمياءُ، ونحنُ مطلَّقانِ روحيًّا؟!"

يعاملونَ شركاءَهم بخِسَّةٍ ودناءةٍ، ولا يحفلـونَ بهـم أوْ يبـدونَ أيَّ تقـديرٍ لهم أوْ عطـفٍ علـيهم، ثـم يـدينونَهم إذا لمْ يحبُّـوهم وهـم لا يـستحقّونَ إلّـا الاحتقارَ والمَقت..

"ماذا؟!"

"حتى لوْ كانت حقيقةً لنْ يغيِّرَ ذلكَ من الأمرِ شيئًا: نحنُ متورِّطانِ معًـا، أنا وأنتِ !"

"صدقتَ، لنْ يفرِّقَنا سِوى حاصدِ الأرواح!"

"أجلْ، نحنُ مغلولانِ سويًّا من الكاحِلَيْن!"

حتَّـى ابنتُـهُ الطفلـةُ- بعـدَ أنْ أيقنـتْ بأنَّـهُ لا ينـوي اسـتيلادَ الكـلابِ الجولدن- لمْ يفتْها أنْ تجاهرَهُ بالعداءِ حينَ اختلتْ بهِ للمرَّةِ الثانية. قالتْ:

"لمْ تعِشْ معي منذُ ولادتي، وحينَ تأتي في الإجازةِ أنكمشُ ولا أرتاحُ في وجودِكَ لأنَّكَ غريب. وكنتُ أحلمُ بأنِّي سوفَ أحبُّكَ حينَ أكبرُ، لكنِّي كرهتُكَ في هذهِ الإجازةِ أكثرَ مِمَا مضى!"

رغمَ كلِّ ذلكَ اللوْمِ والتأنيبِ ظلَّ يقولُ لنفسِه:

"ليسَ بوسعي أنْ أدَّعيَ أنَّ حياةَ عارضٌ في حياتي، وأنَّ بيتي هوَ الأصلُ وأنا أعلمُ أنَّ حياةَ هيَ الأصلُ وما سِواها عارض. ليسَ بوسعي أنْ أغالطَ نفسي هذهِ المغالطةَ: لنْ تصدِّقَني نفسي"

بَدَوْتُ وَأهلِي حَاضِرونَ لأنَّنِي
أرَى أنَّ دَارًا لَسْتِ من أَهْلِهَا قَفْرُ
وحَارَبتُ أَهْلِي في هَوَاكِ وإنَّهُم
وَإِيَّايَ– لَوْلَا حُبُّكِ– المَاءُ والخَمْرُ

ثم خمدتْ نيرانُ الأمِّ وعيالِها حينَ أشرفتْ الإجازةُ على النفادِ وشرعَ في التجهيزِ للسفر. لا بُدَّ من أنْ يسافرَ ويرسلَ المالَ الذي بهِ يفعلُ كلُّ منهم ما يحلو له. الأولويَّةُ الآنَ أنْ يُشجَّعَ على السفرِ، وتُكرَّسَ كلُّ الجهودِ لدفعِهِ إليْه. لا يتطرَّقنَّ أحدٌ إلى ذلكَ الشأنِ الآخرِ مَخافةَ أنْ يُعاندَ ولا يرحل!

قالَ لنفسِهِ وهو يستقلُّ الطائرةَ دونَ أنْ يودِّعَهُ أحدٌ كعادتِهم معه:

"لنْ أغفرَ لِنْ تجسَّسَ عليَّ– وكلُّكم تجسَّستم عليَّ– نهشتم قلبي في صدري. إنَّها حقارةٌ ليسَ أدنأَ منها. حقارةُ نابشي القبورِ أشرفُ!"

لأيَّامٍ انخرطتْ الأمُّ والعيالُ في لعنِهِ– كلُّ الأزواجِ والآباءِ يُلعنونَ في ظهورِهم حتَّى لوْ لمْ يضبطوا متلبِّسينَ بتشات– ثم قبلَ أنْ يمرَّ على رحيلِهِ أسبوعٌ نسوْا أمرَهُ واستغرقتْهم أمورٌ أهمُّ.

* * *

"أودُّ أنْ أخبرَكَ بأمرٍ.. سوفَ تغضبُ.. أمرٍ تافهٍ، لكنِّي لنْ أرتاحَ إنْ أخفيتُهُ عنك.."

غاصَ قلبُه. الأمورُ التي تعدُّها النساءُ تافهةً دائمًا خطيرة..

"في متجرِ لُعبِ الأطفالِ غازلَني شاب!"

"شابٌ من معارِفِك؟"

"شابٌ غريبٌ لقيتُهُ هناك"

"كيفَ لشابٍ لقيتِهِ للتَوِّ أنْ يغازلَك؟"

"لمْ يبدأْ بالغزلِ، سألَني أنْ أساعدَهُ في اختيارِ دُميةٍ لابنتِهِ لأنَّ النساءَ أدرى بتلكَ الأمور"

"كانَ عليكِ أنْ ترفضي، تلكَ حيلةٌ من أقدمِ الحيل!"

"لا ضررَ في أنْ نساعدَ الناسَ ما دامَ بوسعِنا"

"ليستْ المساعدةُ ما يريدُ، بوسعِهِ طلبُ النصيحةِ من مساعدي المتجر"

"بدا مهذَّبًا.."

"ووسيمًا وشابًا؟"

"وسيمًا جدًّا.. وشابًا.. أصغرَ منِّي"

"بالطبع!.. كيفَ غازلَكِ؟"

"جاملَني مجاملةً رقيقةً"

"ماذا تحديدًا؟"

"قال: لوْ كانتْ امرأتي في جمالِكِ ما تركتُها ترحل!"

"كيفَ عرفَ أنَّكِ تُركتِ ترحلين؟"

"لا بُدَّ من أنَّ صديقتي قالتْ شيئًا استنتجِ منهُ ذلك. لمْ أخبرْهُ أنا.."

"انضمَّتْ صديقتُكِ أيضًا إلى غزلِكما؟"

"بلْ هيَ التي تحدَّثتْ معهُ أوَّلًا"

"يا لَها من ساقطة!"

"لا تسُبّ صديقتَي وأنتَ لا تعرفُها، إنَّها طيِّبةٌ ومحترمة!"

"فرحتِ إذنْ لأنَّ الشابَ قالَ إنَّ مثلَكِ لا تُترَكُ لترحلَ؟ مِرارًا قلتُ لكِ ذلكَ وأكثرَ، غيرَ أنَّكِ لمْ تُطربي إلَّا حينَ قالهُ شاب!"

"ما أدراكَ بأنِّي لمْ أُطرَبْ حينَ قلتَه؟"

"ماذا كانَ ردُّكِ على غزلِه؟"

"لا شيءَ بالطبعِ، تجاهلتُهُ كأنِّي لمْ أسمعْه. غيرَ أنَّ الأمرَ لمْ ينتهِ عندَ ذلكَ، فحينَ غادرنا المتجرَ وجدناهُ في سيَّارةٍ بانتظارِنا"

"القذِر!"

"أبَّتْ شهامتُهُ إلَّا أنْ يوصِّلَنا"

"وبالطبعِ أوصلَكما!"

"كلَّا بالطبع. ظلَّ يلحُّ قائلًا إنَّنا أبناءُ وطنٍ واحدٍ، لكنِّي رفضتُ رفضًا قاطعًا"

"وصديقتُكِ رَفَضَتْ؟"

"لمْ ترَ بأسًا في أنْ يوصِّلَنا، المرءُ يأمنُ في المدينةِ المقدَّسةِ لأنَّها تردعُ عن الشرِّ"

"ومتى ردعتْ القداسةُ الأشرار؟! ألمْ تركبا حقًّا؟"

"لوْ حدثَ ذلكَ لقلتُ، لا أخفي عنكَ شيئًا. لا تنسَ أنِّي حكيْتَ لكَ من

تَلقاءِ نفسي ولمْ تكنْ لتعلمَ ما لمْ أخبرْك"

"ما مهنةُ ذلكَ الشابُ، لا شكَّ في أنَّهُ أخبركِ أوْ أنَّكِ سألتِه؟"

"لمْ أسألْه. قدَّم نفسَهُ بوصفِهِ مهندسًا يعملُ في تعليةِ الصرحِ المقدَّس"

"هلْ عرفَ عُنوانَ سكنِكِ أوْ عملِك؟"

"أجلْ يعلمُ أينَ أعمل"

"خطأٌ قاتلٌ أنْ تطلعيهِ على عُنوانِ عملِك!"

"لستُ منْ أطلعَهُ بلْ صديقتي فلسانُها مُنفلِت"

"سوفَ يتطفَّلُ عليكِ في العملِ كلَّ يوم"

"كلَّا لنْ يفعلَ.. أتظنُّهُ يفعل؟"

"أظنُّكِ تحلمينِ بذلك!"

"مَا أحمقَني: كلَّما أخبرتُكَ بأمرٍ استُغِلَّ ضدِّي. دائمًا أندمُ على أمانتي معكَ، ورغمَ ذلكَ لا أتوب!"

"أحيانًا أحسُّ أنَّني فتحتُ لكِ بابَ الضياع.."

"لأنَّكَ فتَّحتَ عيْنيَّ على الخطيئةِ فاستمرأتُها!"

"لا تسخري!"

"إنَّني مُهانةٌ مُتَّهمةٌ فكيفَ أسخرُ؟! أحببتُكَ فاعتبرتَ حبِّي ضياعًا. لغبائي لمْ يخطرْ ببالي أنَّني ضِعتُ يومَ أحببتُك"

"ليتَ كلَّ مَنْ ينظرْ إليْكِ يُصعقْ!"

"كيفَ أمنعُ الناسَ من النظر؟!"

"لمْ يُخلق رجلٌ لا يفتتِنُ بكِ!"

"وهذهِ خطيئتي؟!"

"لا تُنصتي لكلِّ مَنْ يقول كلامًا عذبًا حتَّى لا يُطمَعَ فيك!"

"لكنَّكَ قلتَ لي كلامًا عذبًا وأنصتُّ لك!"

"أنا منكِ وإليْك. لوْ كانت بضاعتي الكلامُ العذبُ وحدُهُ لنَفَدَ الكلامُ من دهرٍ وانتهيْنا. يا حياةُ: مَنْ سلكَ في الشبهاتِ اتُّهِم"

"ومَنْ لمْ يسلكْ اتُّهِمَ أيضًا أيُّها الواعظ!"

"لستُ واعظًا، لكنَّكِ تلوينَ عُنُقَ المنطقِ كيْ تسوِّلي لنفسِكِ أنْ تستجيبي له!"

"لوْ شئتُ الاستجابةَ لاستجبتُ ولمْ أخبرْك"

"لعلَّكِ أخبرتِني بنصفِ الحقيقة"

"بلْ تريدُني أنْ أخبرَكَ بما لمْ يحدثْ!"

"الكريهُ حقًّا أنَّ صوتَكِ يقطرُ طربًا لأنَّ ذلكَ الشابَ غازلَكِ، لكنْ أنْ يغـازلَ الرجلُ زوجةً معناهُ أنَّهُ يعتبرُها مُتهتِّكة"

"لكنَّكَ غازلتَني!"

"لمْ أصادفْكِ في متجرٍ وغازلتُكِ، كما أنَّ قاعدةَ الغزلِ لا تنطبقُ عليْنا"

"لِمَ لا تنطبقُ عليْنا؟!"

"للحبِّ قوانينُه"

"أيُّ قوانين؟!"

"قوانينُكِ أنتِ: ليسَ الحبُّ اختيارًا، وليسَ فيهِ اختيار"

"لكنْ يبقى أنَّ حبَّنا مُحرَّم!"

* * *

مِن خداعِ النفسِ الوهمُ بأنَّ امرأةً رائعةً مثلَ حياةِ سوفَ تُتركُ لشأنِها، وهوَ مِمَنْ يعجزونَ عن خداعِ أنفسِهم وهذا سرُّ شقائه. ذلكَ المهندسُ الشابُ- أوْ الشابُ الذي يدَّعي أنَّهُ مهندسٌ- لا شكَ في أنَّ حياةَ أغفلتْ جانبًا من حكايتِه. يخدعُ نفسَه لوْ قالَ لها إنَّ حياةَ لمْ يطرِبْها غزلُ ذلكَ الشابِ بها فالنشوةُ تقطرُ من صوتِها. ذلكَ كانَ شأنُهُ هوَ أيضًا قبلَ أنْ تملكَ عليْهِ حياةُ نفسَهُ وتُغيِّبَ كلَّ موجودٍ سِواها: كانَ يطرِبُهُ أنْ يروقَ في عيونِ النساء. الأمرُ

أوَّلُهُ وآخرُهُ حبُّ الذاتِ: تحـبُّ أنْ يحبَّـكَ النـاسُ، وتمـتنُّ لهـم إذا أحبُّـوك. يخدعُ نفسَهُ لوْ ظنَّ أنَّ بعضًا مـن حيـاةٍ لا يـصبو إلى ذلـكَ الـشابِ، بعـضًا مـن شبابِها، من دمِها أبديِّ الظمأ. النساءُ يفضِّلنَ شـابًا أعـورَ علـى أمْلَحِ كهـلٍ في العالمِ، فما بالُكَ بشابٍ مليحٍ كالذي وصفتْهُ مِمَا جعلَهُ يحسُّ للمـرَّة الأولى بـأنَّ حياةَ سوفَ تُسرَقُ منهُ، تُسرَقُ قلبًا وقالبًا هذه المرَّةَ وتهجرُهُ إلى الأبدِ كأنَّ ذلكَ مُحتَّم. لنْ تُغوَى بلْ ستَعشق. يقولُ فاتسايانا إنَّ المـرأةَ تقـعُ في حـبِّ أيِّ شـابٍ مليحٍ تبصرُهُ- وكذلكَ حالُ كلِّ رجلٍ لدى رؤيةِ أيِّ امرأةٍ مليحةٍ- لكـنَّ النـساءَ والرجالَ في كثيرٍ من الأحـوالِ لا يتمـادَوْنَ أبعـدَ مـن ذلـكَ بـسببِ اعتبـاراتٍ متنوِّعة. ولحبِّ المرأةِ خواصٌ يخـتصُّ بهـا، فـالمرأةُ تحـبُّ بغَـضِّ النظـرِ عـن الصوابِ والخطأِ، ولا تسعى إلى كسبِ رجلٍ لبلوغِ غرضٍ وحـسب. فـوقَ هـذا، من طبيعةِ المرأةِ أنْ تَجفُلَ من رجلٍ يتودَّدُ إليْها لأوَّلِ مرَّةٍ حتَّى لوْ كانت راغبةً في الاتحادِ بهِ. لكنْ حينَ تتكرَّرُ وتتجدَّدُ محاولاتُهُ أنْ يحظى بها تـسجيبُ في النهايةِ وتمتثِل.

مِنْ أشيعِ الأمورِ أنَّ كلَّ مَنْ يلقَ حياةَ ويسمعْ صوتَها- لوْ تبادلَ معها جملةً أوْ جملتيْنِ- يطاردْها منذُ اليومِ التالي ضارِعًا: "ليسَ بوسعي أنْ أنساكِ!" ولا سبيلَ إلى اجتنابِ تلكَ الورطةِ المتكـرِّرةِ مـا لمْ تُحـبَسْ في قُمْقُم. جـسدُ حيـاةَ يظلمُها. بمقاييسِهِ الباذِخةِ ومفاتنِهِ الصارخةِ يدفعُ أيَّ رجلٍ مهما كانَ تقيًّا إلى

أنْ يستميتَ في إغوائها ويلهثَ في إثرِها لأنَّ الغريزةَ تقهرُهُ على أنْ يلقِّحَ بنُطفتِهِ أفضلَ بوَيْضة.

حياةُ لا تطيقُ الوحدةَ، ولا الحرمانَ من الحبِّ. إنَّها مثلُ الأطفالِ لا غنى لها عن التدليلِ وتعدُّهُ حقًّا لا تنازلَ عنه. مِن العدلِ أنْ يغفرَ لها ذلكَ الضعفَ وأنْ يتوقَّعَهُ منها. يعلمُ أنْ ليسَ لها سِواهُ لكنَّها لا تعلم. تظنُّ كلَّ الرجالِ عُبَّادَها المُخلصين. آجلًا أوْ عاجلًا سوفَ تهجرُهُ لأجلِ شابٍ مُفعمٍ بالحياةِ والمرح. إنْ لمْ يكنْ ذلكَ المهندِّسُ فسِواهُ، حتَّى لوْ لمْ يكنْ مهندِّسًا.

"حبُّكَ الأوحدُ وجدتْ حبًّا جديدًا، أنباءٌ مؤكَّدة!" نعقتْ امرأتُهُ عبرَ الموبايل. لوْ أنَّ في قلبِها ذرةً من حبٍّ- أوْ من طيبةٍ- لما قالتْ ما قالتْهُ حتَّى لوْ كانَ صدقًا ليقينِها بأنَّ أخبارًا كهذهِ سوفَ تذبحُه. لكنَّها تثأرُ منهُ وتَودُّ الإجهازَ عليْه. مُلهَمَةٌ على نحوٍ شيطانيٍّ امرأتُهُ فلا شكَّ في أنَّها لمْ تُحِطْ علمًا بخبرِ الشابِ لكنَّها تخبطُ خَبْطَ عمياءَ وتصيبُ، أوْ تسخِّرُ الجنَّ ليجيئوها مِن سبأٍ بنبأ.

"وَهلْ توهَّمتَ أنَّكَ وحدُك؟ إنَّها لا تستثني أحدًا، ولها علاقاتٌ بالكبارِ والصغار. قلبُها رَحيبٌ يَسَعُ أمَّةً!"

كلَّما ذكرتْ لهُ حياةَ بسوءٍ لعنَها في قلبه.

أَلَا أيُّها الوَاشي بِلَيْلَى أَلَا تَرَى

إِلَى مَنْ تَشِيْهَا، أوْ بِمَنْ جِئْتَ وَاشِيَا؟!

"أنتَ حبيبي ولنْ أحبَّ سِواكَ"

"أجلْ يا حياةُ أعلمُ أنِّي حبيبُكِ، وأعلمُ أيضًا أنَّ الغزلَ يطرِبُك!"

"مُحالٌ أنْ يُؤخذَ منِّي ما لا أريدُ أنْ أعطيَه"

"ماذا لوْ أردتِ إعطاءَ غيري لأنَّكِ مِعطاء؟!"

"وما يغضبُكَ ما دمتَ لا تريدُ منِّي سِوى الحبِّ؟!" قالتْ حياةُ كالسَكرى.

"أخافُ أنْ تُمتهني. أنْ يتبجَّحَ مَنْ يحسبُ نفسَهُ زيرَ نساءٍ بأنَّكِ إحدى غزواتِه. لنْ تلقيْ رجلًا يحبُّكِ أكثرَ من نفسِهِ سِواي"

"وما أدراكَ بأنَّ آخرينَ لا يحبُّونَني أضعافَ حبِّك؟!"

"أنا وحدي الصادقُ"

"تَبخَسُني قَدْري. اِعلَمْ أنَّ كلَّ مَنْ أحبُّوني أحبُّوني بصدقٍ مُطلَق!"

"لكنِّي أنبلُهم مَقصِدًا"

"ومَنْ يظنُّ نفسَهُ خبيثَ المقصِد؟!"

"غيري لا يهمُّهم في النساءِ سِوى اللحم"

"وأنتَ، ألمْ تطمعْ في لحمي؟!"

"لمْ أطمعْ فيكِ قطُ، يا لَها من مأساةٍ إنْ كنتِ لا تعينَ أنِّي غيرُ طامع!"

"كلُّ ما تقولُهُ يقولُهُ أيُّ رجلٍ، حتَى عدمُ الطمعِ يدَّعيهِ كلُّ الرجال!"

"لستُ أيَّ رجلٍ، أنا حبيبُكِ. هلْ كفرتِ بحبِّنا؟!"

"كفرتُ بالدنيا!"

"أواعيةٌ أنتِ بما تقولين؟!"

"بلْ شربتُ تلكَ القهوة.."

"أستحلفكِ ألَّا تذوقيها ثانيةً!"

"لكنَّها تسعدُني.."

"أفيقي يا حياةُ، إنَّكِ تضيعين!"

"لأنِّي أشربُ قهوة؟!"

"يا للحظِّ التعسِ الذي أوقعكِ معَ هذهِ الرفيقة!"

"يا لهُ منْ صداع!.. أينَ البانادول؟.. أحتفظُ دائمًا ببنادول!.. ما عادَ بوسعي الكلامُ، الصداعُ لا يُطاق!.."

"تُعاقبينَني!"

"سأحاولُ أنْ أنامَ، حاوِلْ أنتَ أيضًا.."

* * *

الذي تجودُ بِهِ عليْهِ من وقتٍ يتقلّصُ بوتيرةٍ مُطـرَدَةٍ كَمًّـا وكَيْفًـا. صـارتْ الأحاديثُ مهينةً كأنَّها بينَ مُعطٍ ومُستجدٍ. بعـدَ جملـةٍ أوْ جملتـيْنِ تباغتُـهُ بالطردِ: "لا بُدَّ مِن أنْ أذهبَ الآن!".. "لنْ أكلِّمكَ لساعتيْن..".. "لا بُـدَّ مـن أنْ أنـام!".. "لـديَّ صـداع!".. "لا بُـدَّ مـن أنْ أسـتحم!".. "لا بُـدَّ مـن أنْ أكلِّـمَ ابـنتي".. "زوجـي يـدقُّ علـيَّ".. "زميلاتـي يـدعونَني لـمشاهدةِ المسلـسل".. "حزينةٌ لأنَّ أمي مريضة".. "مرهقـةٌ ومكتئبـة".. "لـستُ في مِـزاجٍ مُـواتٍ".. "هلْ من شيءٍ آخرَ تودُّ قولَهُ إذْ لمْ يعُدْ لديَّ ما يُقالُ لهذهِ الليلة؟" والعذرُ شِبهُ الدائمِ: "سوفُ أخرجُ مع صديقتي الجديدةِ التي لا تعرفُهـا!" لا أحـدَ يخـدعُ أحدًا، كلُّ إنسانٍ يخدعُ نفسَهُ لأنَّ أكثرَ الناسِ يفضِّلونَ العيْشَ في جنَّةِ البلهاء. ندرةٌ ليسَ باستطاعتِهم أنْ يخدعوا أنفـسَهم، وهـؤلاءِ أشـقى الأشـقياءِ، لكـنَّ العاقلَ يفضِّلُ الشقاءَ على الغفلةِ، ولقد وُصِفتْ المعرفةُ دائمًا بأنَّها أليمةٌ. يقولُ بودلير: معرفةٌ مُرَّة تلكَ التي يخرجُ بها الإنسانُ من هذا العالم.

إنَّها تعزِلُ نفسَها يومًا بعدَ يوم. تسمعُهُ وتجيبُهُ بنصفِ دماغ. يسألُها عن أتفهِ شيءٍ فلا تجيبُ لفوْرِها، بلْ تكرِّرُ سؤالَهُ ببطءٍ كيْ تلـتقطَ أنفاسَـها وكـيْ تتأملَهُ بعمقٍ خَشيَةَ أنْ يكونَ شَركًا، ثم لا تُكلِّفُ نفسَها عناءَ اختراعِ كِذبةٍ بلْ

تلقي بجوابٍ غامضٍ لا يقدِّمُ ولا يؤخِّر. يسألُها: كيفَ كانَ يومُكِ؟ تجيبُ: وكيفَ عساهُ يكونُ، مثلَ كلِّ يومٍ لا جديد؟! يسألُها: عَمَّ تتحدثينَ أنتِ وصديقتِكِ الجديدةِ التي تخرجينَ معها؟ تجيبُ: ماذا تتوقَّعُ أنْ نقولَ، الثرثرةَ المألوفةَ، توافِهَ لا أذكرُها؟! إجابةً على سؤال: لِمْ تأخَّرتِ عن الاتصال؟ غاضبةً كانت قديمًا تقولُ: "ولِمَ لمْ تتصلْ أنتَ، ألمْ تقلقْ عليَّ؟" أمَّا الآنَ فلا تعاتبُهُ حينَ لا يتَّصلُ أوْ يقلقُ عليْها، وحرمتْهُ بالمرَّةِ من رؤيتِها على سكايب بزعمِ أنَّها لا تكونُ وحدَها في أيِّ وقتٍ، وهوَ يعلمُ أنَّ ذلكَ لتتحاشى لقاءَ العيونِ خشيَةَ أنْ يقرأَ عينيْها. كلُّ شجارٍ أعنفُ من سابقِهِ وأكثرُ فَجاجة. كلَّما عاتبَها اقترحتْ عليهِ إنهاءَ العَلاقة. ما عادتْ تصِفُ ما بيْنَهما بالحبِّ بلْ بالعَلاقة. معَ كلِّ صلحٍ تكسو الجرحَ الغائرَ قشرةٌ هشَّةٌ لا تشفي وجعَ الروح. في الحبِّ والموتِ: كلُّ نضالِنا يكونُ لإرجاءِ النهايةِ أوْ تخفيفِ وطأتِها لا للإفلاتِ منها. الإفلاتُ مُحالٌ مثلُ الاحتماءِ من الغرقِ بالوقوفِ فوقَ رُقاقةٍ طافيةٍ من الثلج.

قُبيلَ الغروبِ يخرجُ للمشي كيْ يُضيعَ الوقتَ حتَّى يحينُ اتصالُها في المساء. يعشقُ الشمسَ الغاربةَ بدمائها المُراقةِ على الأفق. يفوتُ ميعادُ حياةٍ دونَ أنْ تتصل. الإخلافُ دأبُها مُؤخَّرًا. تُظلِمُ الدنيا ويتبدَّدُ انتشاؤهُ بسحرِ الغروب. في خيالِهِ يرى وجهَ حياةَ غائمًا كمَنْ ينظرُ من خلالِ زجاجٍ تغبَّشَ في

ليلةٍ ماطرة. ما عادَ يدري مَنْ هيَ. يؤوبُ العاشقُ إلى الحبيبةِ كما يؤوبُ المسافرُ إلى بيتِه. يطمئنُّ ما أنْ يبلغَ عُشَّهُ ومأمنَه. إنَّهُ يعرفُ العتبةَ والدَرَجَ والأبوابَ والأثاثَ، وبوسعِهِ وهوَ مغمضُ العينيْنِ أنْ يبلغَ فِراشَه. لكنْ يا لَهُ من انقباضٍ حينَ يعودُ إلى الحبيبةِ ويفاجأُ بأنَّ العتبةَ تبدَّلتْ والدرجَ أصبحَ أعوجَ والأثاثَ بُعثِرَ أوْ أعيدَ ترتيبُهُ بلا ذوق. حتَّى لوْ لمْ يحدثْ شيءٌ، حتَّى لوْ لمْ يلحظْ عليْها أيَّ تغيُّرٍ، تُحِسُّ بلا حواسٍ حينَ يطعنُكَ الحبيبُ في روحِك. تحسُّ أنَّهُ مَا عادَ منكَ، كمَا أحسستَ أوَّلًا أنَّهُ مِنك. حينَ تفنى في امرأةٍ تُرفعُ من دونِكَ الحُجُبُ وترى إن خانتْك. ترى الأمرَ لحظةَ اقترافِه. أجلْ تحسُّ. يقينًا تحسُّ. ويا لَهُ من ألم. مثلِ اقتلاعِ قلبِكِ وأنتَ حيٌّ. مشاداتُ الغيْرةِ فيما مضى لمْ يكنْ بها ذلكَ الشعورُ بالفقد. ذلكَ الفزع. ذلكَ الانكسار. تلكَ المهانة. إنَّهُ مُلتاعُ التياعَ ثكلى. حتَّى خاتَمُها الذي أهدتْهُ انمحتْ من صفحتِهِ علامةُ الأبديَّة. يعاوِدُهُ في هذهِ الأيامِ حلمٌ مُقبِض. كأنَّهما في صحراءٍ لا آخرَ لها ولا أوَّل. وحياةُ بعيدةٌ جدًّا، بالكادِ على مرمى البصرِ، وبيْنهما فضاءٌ ضبابيٌّ. يناديها، ولا يصلُ صوتُهُ إلى أذنيْها. عبرَ البَوْنِ الشاسعِ يتبدَّدُ الصوت. تجتازُ حياةُ خطَّ الأفقِ وتختفي خلفَه. ما عادَ يراها. ما عادَ يرى سِوى صُفرةَ الرمالِ لونًا واحدًا يصبغُ الدنيا. يراودُهُ حلمٌ آخرُ مُفزِعٌ: يرى حياةً تدخلُ الحمَّامَ– الذي يختبئُ فيهِ ثعبانٌ– وما أنْ تغلقَ البابَ حتَّى يتسلَّقَ

الثعبانُ ساقَها نحوَ عانتِها.

"ما لِصوتَكَ؟"

"ما لَهُ؟"

"مُتحشرِجٌ!"

"أحسُّ ببكاءٍ ولا أستطيعُه"

"ألنْ تبرأَ من هذهِ الرِقَّة؟"

"لمْ أخلقْ قلبي، لطالما انهمرتْ دموعي وأنا أكلِّمُك"

"والآنَ ماذا يحبِسُها؟"

"الدموعُ القديمةُ دموعُ حنين. الآنَ أحسُّ بمذلَّةٍ تخنِقُ الدموع"

"ولماذا تحسُّ بمذلَّة؟"

"لأنَّكِ تكلِّمينني من وراءِ قلبك. كأنَّ آلةَ الردِّ على المكالماتِ هيَ التي تجيب!"

صَمتتْ..

"وكثيرًا ما تصمتينَ كما صَمَتِّ الآن. أظلُّ أتكلَّمُ وحدي كأنَّني أكلِّمُ نفسي. لا تتجاذبينَ معي خيوطَ الحديثِ كأنَّكِ تتعمَّدينَ أنْ تميتيهِ بنضوبِ ما بوسعي قوْلُهُ لنفسي!"

صَمتتْ..

"حياة!"

صَمتتْ..

"حياةُ أجيبي. من حقِّ العاشقِ أنْ يُعامَلَ بمثلِ بما يُعامِلُ بِه. العطوفُ جدًّا ينقلِبُ قاسيًا جدًّا لوْ قوبلَ عطفُهُ بجحود"

"هذا ينطبقُ عليَّ أنا!"

"حياةُ لا تغترِّي بالغزلِ في جمالِكِ فليسَ سِوى إغواء. أنا مَنْ يحبُّكِ حقًّا لأنِّي لا أحبُّكِ لجمالِك. أجلْ جمالُكِ يفرحُني ويملؤُني زهوًا بأنَّكِ أحببتِني، لكنْ ليسَ لجمالِكِ أحببتُكِ وحتَّى لوْ سُخِطتِ قردةً لنْ أكفَّ عن حبِّكِ. بلْ لوْ سُجِنتِ في أبشعِ جريمةٍ أنا الذي سوفَ تجدينَهُ بانتظارِكِ عندَ بابِ السجنِ ساعةَ الإفراجِ عنك!"

"يا لَهُ من غزلٍ! إنَّهُ غزلٌ، أليْسَ غزلًا؟"

"مضاداتُ الاكتئابِ تجعلُني أُخترِف!"

"تجعلُكَ تُفضي برأيِّكَ فيَّ"

"بنسخةٍ سيرياليَّةٍ من رأيي فيكِ، وفي الدنيا!"

"تتحدَّثُ كالمجانين!"

"هكذا يكونُ الحبُّ: جنون!"

"مِنَ الحبِّ ما قتل"

"سوفَ أقتلُكِ حبًّا ونحنُ عاريان. ما الوضعُ المفضَّلُ لديكِ هذهِ الأيام؟"

"مَا عدتَ تنطِقُ سِوى بالسفالات!"

"بوسعي أنْ أناقشَكِ كلَّ يومٍ في كتابٍ قرأتُه"

"لا، السفالاتُ أرحم!"

"لمْ تحبِّيني إلَّا لأنِّي مجنونٌ، النساءُ يعشقنَ المجانين. هيَّا نلعبُ لُعبتَنا!"

لُعبتُهما الجنسُ بالموبايلِ أوْ على سكايب. على سكايب ألذُّ لأنَّهُ يراها وتراه. ظلَّا يمارسانِ اللعبةَ كلَّ ليلةٍ حتَّى رحيلِهِ الأخير. حتَّى غازلَها ذلكَ الشابُ في المتجر. مَغزى اللُعبةِ لديْهِ أنَّهُ في أمانٍ طالما ظلَّتْ تلعبُها معه. حينَ يتخاصمُ طفلانِ لا يلعبانِ معًا، وحينَ يُنبَذُ طفلٌ يستبعدُهُ أقرانُهُ من اللعب.

"إنِّي مرهقةٌ الليلة!"

"لا ترهقُكِ أبدًا تلكَ اللُعبة"

"حقًّا إنِّي مرهقةٌ، العبْها مع نفسِك!"

"أحتاجُ لأنْ تلعبيها معي. لا بُدَّ من أنْ أسمعَكِ حتَّى اندمج"

"اندمجْ في خيالِك"

"لا طعمَ لها في عزفٍ مُنفرد"

الجـنسُ مـع حيـاةَ لا يُـصدَّقُ ولا يُوصَـفُ ولا يُمَـلُّ– الجـنسُ في القـربِ، والجنسُ في البعد. شبقُها جامح. تذوبُ من لـمسةٍ أوْ همـسةٍ وتـصيرُ كـالعجينِ بيْنَ يدَيْ خبَّاز. مخمورةٌ بهياجِها. لا تخشى في الجنسِ لومةَ لائـم. الرجـالُ يتقاتلونَ على شبقة. شبقةٌ مَنْ يجدُها؟ لأنَّ ثمنَها يفوقُ اللآلئ. ذلكَ ما يخبـلُ الرجالَ: الشَبَق. غيرَ أنَّهُ لمْ يعتبرْ الجنسَ يومًا غاية. إنَّها الحبيبةُ حتَّى لـوْ لمْ يكنْ لها جسدٌ. ليسَ الجنسُ في نظرهِ سِوى وسيلةٍ: كـانَ أوَّلًـا للاسـتحواذِ عليْها، ثم لجعلِها تهيمُ بهِ مثلما يهيمُ بها، والآنَ فقطْ كيْلا يفقدَها. لكنْ يبدو أنَّ سُلطانَ الجنسِ وَهْمٌ.

"فلنجرِّبْ أنْ نَكُفَّ عـن الحـديثِ اليـوميِّ للحَـدِّ مـن شجاراتِنا. دعنـا لا نتحدَّثُ إلَّا حينَ يكونُ مِزاجُنا معتدلًا. لنْ أتـصلَ بـكَ حـينَ أكـونُ مكتئبـةً أوْ مرهقة"

يا للطعنةِ! بهتَهُ ذلكَ الخِتامُ غـيرُ المُتَّـسِقِ مـع مجـرى الحـوار. لا يبـدو خِتامًا عَفْوَ الخاطرِ، بلْ نِيَّةً مبيَّتةً ظلَّتْ تستجمعُ شجاعتَها حتَّى فجَّرتْهـا في وجهِه.

"إنَّـكِ لا تُقـدِّرينَ فظاعـةَ مـا تطلـبين. إذا اسـتغنى المحـبُّ يومًـا سـوفَ يستغني كلَّ يوم. أهذا حقًّا ما تريدين؟!"

صَمتتْ..

"هلْ أنتِ حياةُ، ما عدتُ أعرفُكِ؟! شيءٌ حدثَ.. شـيءٌ مرعـبٌ.. عـودي حياةَ التي أحببتُها!"

"لا شيءَ يعودُ كما كانَ بعدَ أنْ تغيَّر. العلاقةُ كلُّها عبثيَّة"

"لستِ حياةً، أنتِ نقيضُها. كيفَ تبدَّلتِ؟!"

"إنْ كنتَ تحبُّ الجمودَ اعشقْ ملاكًا!"

"بلْ شيطانًا!"

"انجُ بنفسِكَ إذنْ!"

"حياةُ، لوْ قسى قلبي هذهِ المرَّةَ لنْ يلين!"

"إنْ كانَ هذا ما تدعوهُ لينًا فالغِلظةُ أرحم. ليمضِ كلٌّ منَّا في طريقٍ فما عادَ طريقي طريقَك!"

"أبيتِ أنْ تغادري حياتي إلَّا وأنا لا أميِّزُ رأسي من قدميَّ!"

صَمتتْ.

صَمتتْ، وظلَّتْ صامتة..

* * *

حينَ قالتْ: "ليمضِ كلٌّ في طريقٍ!" هَمَّ بأنْ يصرخَ: "إلى الجحيمِ يا مَنْ أحرقتْ قلبي!" لوْ قالَ ذلكَ لكانَ مَحضَ ردٍّ فعلٍ غاضبٍ أغرى بهِ التحدِّي، فالحقُّ أنَّ حياةَ لمْ تحرقْ قلبَهُ بلْ أحيَتْهُ، ولمْ تُشْقِ حياتَهُ بلْ أثرتْها، وليسَ بوسعِهِ أنْ يوفيَها شكرَها لوْ عاشَ ألفَ سنةٍ. كيْلا ينتهيَ أمرُنا إلى تراجيديا أوْ إلى جنونٍ لا بُدَّ من أنْ نُعلِّمَ أنفسَنا أنَّ للحبِّ مثلِ كلِّ شيءٍ نهايةً. النهاياتُ مُحتَّمةٌ في عالمِنا، وحتَّى عالمُنا مُحتَّمٌ أنْ تكونَ لهُ نِهايةٌ. ماذا نفعلُ بالحبِّ الذي مضى؟ نمتنُّ للنعيمِ الذي هَدْهَدَنا فيهِ حينَ كانَ معنا.

راحَ يتخيَّلُ مَا عساهُ يكونُ لوْ أقامتْ معهُ حياةُ أسبوعًا متَّصِلًا- أوْ حتَّى يومًا كاملًا- يُمسيانِ ويُصبحانِ معًا، ليحنوَ عليْها لا ليضاجعَها. ما كانَ ليضاجعَها لوْ أمِنَ أنَّها لنْ ترحلَ، بلْ يرعاها ويحنوَ عليْها ويدلِّلَها ويغمرَها بحبِّ كلِّ من أحبُّوا منذُ أوَّلِ البشرِ، ويشجِّعَها على البكاءِ الذي تعدُّهُ خطيئةً وهيَ أحوجُ الناسِ إليْه. كلُّ أوقاتِهما معًا اختُلِستْ منَ الزمنِ، لمْ يُتَحْ لهُ يومًا أنْ يجالسَها مطمئنَّيْنِ غيرَ متعجِّلَيْن. لمْ يتَّسعْ الوقتُ المبتورُ إلَّا لعِناقِ العانتيْنِ ولذا ظنَّتْهُ في النهايةِ- أوْ رُبَّما منذُ البدايةِ- رجلًا آخرَ وحسب. لمْ يحنُ أحدٌ عليْها برغمِ جحافلِ المُغوين. ليسَ الإغواءُ حُنوًّا. في أحلكِ ساعاتِ شكِّهِ لمْ يشكَّ في أنَّ حياةَ أحبَّتْهُ- أحبَّتْهُ كالأطفالِ- وإنْ كانت خانتْهُ فمُقتَضى عالمٍ

عبثيٍّ دَمَغَ كلَّ النفوسِ بالتخبُّطِ والاختلالِ وجعلَها لا تعلمُ ماذا تريد. وفي ذلكَ العالمِ لا يحقُّ للمُحبِّ أنْ يحاولَ تغييرَ مَنْ يحبُّ إلى مَا يحبُّ، بـلْ أنْ يحبَّـهُ أوْ لا يحبَّهُ دونَ أنْ يعبثَ بكِيانِهِ المُختلِّ أصلًا والمُتزنِ على شَعْرَة. إنَّها شريدةٌ مِثلُه. ليسَ للشريدِ أنْ يلومَ الشريدَ، ولا للضائعِ أنْ يُبكِّتَ الضائع. أنبـلُ مـا في الحبِّ أنْ نغفر.. الضعف..

غيرَ أنَّ الألمَ فوقَ الاحتمال. لقدْ كانت كلَّ ما يعـيشُ لأجلِـه. منـذُ أحبَّهـا يحملُ جمـرةً مُتقِـدةً يُنقلُهـا مـن يمنـاهُ إلى يـسراهُ– ومـن يـسراهُ إلى يمنـاهُ– للتحايلِ على ألمِ الاحتراق. يبكي ويصرخُ، وعلى الـرغمِ مـن ذلـكَ لا يريـدُ أنْ يدعَ الجمرة. لكنَّ الجمرةَ انطفأتْ. حاولَ إنقاذَ الحبِّ، ثـم حـاولَ دفنَـهُ دفنًـا لائقًا، غيرَ أنَّهُ أخفقَ في المَسعَييْن.

يرفعُ صوتَ التليفزيونِ ليشوِّشَ على وعيه. يَدَعُهُ ينعقُ طِوالَ الليلِ دونَ أنْ يصغيَ إليْهِ أوْ ينظرَ رغمَ أنَّهُ لا يذوقُ النوْم. إنَّهُ الصباحُ ولنْ تتصلَ بِهِ، الصباحُ الأوَّلُ، ثم الصباحُ الثاني. ثم الثالثُ، ثم الرابعُ إلى أبدِ آبـدين.. هجرتْـهُ غـيرَ أنَّهُ جامدٌ كصنم. لا قِبلَ لهُ بدفعِ هـذا الأمـر. لا حـوْلَ لَـهُ ولَـا قـوَّة. إنَّـهُ الآنَ الزوْجُ، ذلكَ الثالثُ غيْرُ الضروريِّ. الكونتينجانت. ذلـكَ الـذي التقطَـهُ الـرخُّ وحملَهُ إلى قصرِ الملذَّاتِ، ثم فقأَ عيْنَهُ وألقاهُ حيْثُ التقطَه.

"ابنُكَ يريدُ منكَ شيئًا، ورجاني أنْ أكلِّمَك.."

هوَ وامرأتُهُ مثلُ لاعبيْ فريقٍ ألِفا اللعبَ سويًّا لسنينَ وسنين، كلٌّ منهما يحفظُ مناوراتِ صاحبه. حينَ تقولُ: "ابنُكَ" معناهُ تقدِمةٌ لشيءٍ يُطلَبُ- شيءٍ باهظٍ على الأرجحِ- أمَّا حينَ تقولُ: "ابنُنا" فمعناهُ أنَّ الابنَ فعلَ شيئًا طيِّبًا، وهوَ ما لمْ يحدثْ في آخرِ خمسِ سنين.

"ابني يطلبُ منِّي شيئًا، غيرَ أنَّهُ يتحدَّثُ بلغةٍ لمْ أتعلَّمْها- اللاتينيَّةِ مثلًا- لذا أنابَكِ في أنْ تترجمي لي لأنَّكِ تعلَّمتِ نفسَ اللغة!"

"هوَ ذاك"

"وماذا يريدُ ابني، ترجمي!"

"ابنُكَ حائرٌ مُعذَّبٌ، وعاجزٌ عن الانسجامِ مع زملاءِ الدراسةِ لأنَّهُ ليسَ تافهًا مثلَهم.."

"لا تصدِّقي أنَّهُ مُعذَّبٌ حقًّا، ابنُنا محتالٌ عظيمٌ يمهِّدُ للطلبِ الذي ينوي طلبَهُ بتمثيلِ حالةٍ من القلقِ الوجوديِّ. ماذا يريد؟"

"يريدُ أنْ يدرسَ بالخارجِ، يقولُ إنَّ جامعاتِنا لا تعلِّمُ شيئًا"

"فليعلِّمْ نفسَهُ بنفسِه، العلمُ في الكتبِ، والآنَ في الإنترنت"

"شهاداتُ الخارجِ مُعترفٌ بها دوليًّا وهوَ ينوي الهجرة"

"وكيفَ يصلُ إلى هذا الخارجِ، الخارجُ لا يلتقطُ سِوى العباقرةِ فهلْ بزغتْ عبقريَّةُ ابني فجأة؟"

لا ينفي ذلكَ أنَّهُ في ضميرِهِ متَّفقٌ مع ابنِهِ على أنَّ هذا الوطنَ المقزِّزَ لا يستحقُّ إلَّا أنْ يُهجر. أيُّ وطنٍ ذلكَ الذي على مواطنيهِ ألَّا يعيشوا فيهِ إنْ أرادوا أنْ يظلُّوا بشرا؟!

"تواصلَ مع جامعةٍ كبرى بالخارجِ أونلاينْ ووعدتْ بقبولِه"

"أونلاينْ، لعلَّ مَنْ تواصلَ معهُ محتالٌ، أوْ مافيا سَرِقةِ الأعضاء!"

"أنَّ هذهِ الأشياءَ لمْ تكنْ في زمانِكَ لا يعني أنَّها من الشيطان. العالمُ لا يدورُ على غيرِ هذا النحوِ الآن"

"وماذا لوْ فشلَ بعدَ كلِّ هذا؟"

"قالَ إنَّهُ لوْ فشلَ سوفَ ينتحر!"

وُخِزَ في صدرِه..

"وإذنْ؟"

"يحتاجُ إلى مبلغٍ ضخمٍ، مئاتِ الألوف.."

"لوْ أنَّ الدفعَ بأقساطٍ سنويَّةٍ فلديْنا المالُ لمعظمِ الأقساطِ، وإن كنَّا نظلمُ إخوتَه"

"ليسَ لديْنا شيءٌ"

"لا شيء.. كيفَ ليسَ لديْنا شيء؟!"

"لا شيءَ يستحقُّ الذِكر"

"أينَ الملايينُ التي حوَّلتُها، كيفَ تبخَّرتْ؟!"

يستبقي القليلَ للمعاشِ، ويرسلُ الشِطرَ الأعظمَ إلى حسابِها. ليسَ لديْهِ حسابٌ باسمِه..

"أكلَها عيالُكَ وشربوها.. عولجوا وتعلَّموا بها.. لأنَّكَ لا تعيشُ في هذا البلدِ تجهلُ أنَّ الفلوسَ تطيرُ بأجنحة"

"لا شكَّ في أنَّكِ أطرتَ آلافَ الأسرابِ!"

"ما بديلُ طيرانِ الفلوس؟ أنْ يجوعَ عيالُك ويَعرَوْا، أهذا ما تفضِّلُه؟"

ما عادَ أحدٌ ينفقُ النقودَ، النقودُ تنفقُ نفسَها. الفئاتُ الصغيرةُ عصافيرُ تختفي لحظةَ فتحِ القفص. الفئاتُ الكبيرةُ هشَّةٌ مثلُ أكفانِ المومياواتِ: تَمَسُّها فتنتثِرُ رَمادًا.

"وماذا تقترحينَ: أنْ أصلِّيَ صلاةَ المطرِ فتمطرُ ذهبًا أجمعُهُ وأعطيَ ابنَك؟!"

"أقترحُ أنْ نبيعَ الأرض"

"أيَّ أرض؟"

"الأرضَ التي كنتَ تنوي بناءَها"

"إلَّا الأرض!"

ليستْ أوَّلَ مرَّةٍ تطالبُهُ ببيعِ الأرضِ، بيْنَها وبينَ تلكَ الأرضِ ثأرٌ. ألَّحتْ في بيْعِها مِرارًا، وأصرَّ على الرفض.

"سوفَ ينتحرُ حقًّا، لقدْ حاولَ الانتحارَ بالفعلِ وأخفيْنا عنكَ.."

تّذّكَّرَ آخرَ مشادةٍ بينَهُ وبينَ الابن. قالَ الابنُ إنَّهُ يكرهُ الدراسةَ، ويريدُ السفر. صَرَخَ في الابنِ وذكَّرَهُ بأنَّهُ ينفقُ على تعليمهِ الخاصِ بإهدارِ ما بقيَ من عمرهِ وحيدًا كالأجربِ وشريدًا كالكلب. الكُلى أيضًا على شَفا الفشل. قالَ الابنُ إنَّهُ لا يبالي إنْ أنفقَ عليْهِ أوْ لمْ ينفق. ولا يبالي إنْ أتمَّ الدراسةَ أوْ لمْ يتمَّها. ابنهُ خبيرُ طعنِ القلوبِ في مَقْتَلٍ.

"إنَّكَ لا تسعى إلى خلاصٍ، بلْ تودُّ أنْ تبقى حائرًا!" ذلكَ آخرُ ما قالَهُ لابنِه. ما أنْ يشُبَّ أبناؤكَ حتَّى يصيروا غرباءَ ليسَ بوسعِكَ أنْ تتبيَّنَ أدنى شبهٍ يربطُهم بأولئكَ الأطفالِ اللُطفاءِ الذي أُغرمتَ بهم ذاتَ يوم. الملائكةُ منهم يُمسَخونَ شياطينَ، والشياطينُ يُرَقُّون أبالسة. حتَّى صُغرى البنتيْنِ– الطفلةُ عُمريًّا المراهقةُ نفسيًّا– تصعقُهُ بآراءِ حَيْزَبونَ مُتغضِّنةٍ في التسعين.

"زوجتي.. أبنائي.. كانَ بوسعِ أحدِهم أنْ يقولَ: ليسَ فينا مَنْ لا يقدِّرُ تضحياتِك. كنتُ ساعتَها لأقبلَ أبهظَ تضحيةٍ في رضا. غيرَ أنَّ أحدًا لمْ يقلْ أيَّ شيء!"

في المساءِ دقَّ الموبايلُ ثانيةً: زوجتُه! عاودتْ الإلحاحَ عليْهِ ببيعِ الأرضِ، مُهدِّدةً بأنَّ الابنَ سوفَ يُنهي حياتَهُ، متوقِّعةً ردَّهُ المعهود:

"لوْ بيعتْ الأرضُ لنْ يكونَ لنا أبدًا مكان!"

بُهِتتْ حينَ قالَ لها: "بيعي!"

"أبيع؟!"

"بيعي الأرضَ.. بيعي كلَّ ما تستطيعينَ بيعَه.. سوفَ أبعثُ إليكِ توكيلًا.."

ليسَ عدلًا. إنَّهُ ظلمٌ مَحض. بعدَ أنْ قاتلتُ معركتَي كلَّ ذلكَ العمرِ قُدِّر عليَّ أنْ أقاتلَ أيضًا نيابةً عن أبنائي الذينَ استنكفوا أنْ يقاتلوا معركتَهم بأنفسِهم، أقاتلُ في كهولتي وأنا مُثخَنٌ بالجراح.

ليسَ هذا من واجباتِ الأبِ نحوَ أبنائهِ، ليسَ عليْهِ أنْ يقشِّر لهم برتقالةَ حياتِهم ويطعمَهم فصوصَها في أفواهِهم. لا بُدَّ من أنْ يزرعوا هُم البرتقالَ ويقطفوه ويقشِّروه. وجودي يعوقُ نموَّهم، موتي سوفَ ينضجُهم.

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً

عَلَى المَرءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

يا طُرفةُ، وهل يظلمُ المرءَ إلَّا ذوو قرباه؟!

* * *

"إنِّي آتٍ لأراكِ!"

الآنَ بعدَ أنْ بيعتْ الأرضُ يحسُّ بأنَّهُ اقتُلِعَ من جذورِهِ- أوْ مِما حاولَ أنْ يجعلَهُ جذورًا يضرِبُ بها في كوكبِ الأرضِ- ويحسُّ بأنَّ الفضاءَ يشدُّهُ يريدُ أنْ يبتلعَهُ، ولا مناصَ من التشبُّثِ بالراسخِ الوحيدِ في وجودِه وهوَ حياة. لنْ تخذلَهُ حياةُ حتَّى إنْ كانتْ لا تريدُه. رأى في مَنامٍ أنَّهُ تعرَّضَ لسطوٍ مُسلَّحٍ وهوَ في سيَّارتِه. أشهرَ لصَّانِ السلاحَ في وجههِ وطالبا بكلِّ ما معهُ، وبالسيَّارةِ، وبالموبايل. لمْ يأبهْ بسَرقةِ المالِ أوْ الموبايلِ أوْ حتَّى السيَّارةِ، لكنَّهُ استحلفَ اللصَّيْنِ أنْ يدعاهُ يدوِّنُ رقمًا واحدًا من قائمةِ الموبايلِ هوَ رقمُ حياة. دونَ أنْ ينتظرَ إذنَهما راحَ يدوِّنُ الرقمَ على راحةِ يدِه. غضِبَ أحدُ اللصَّيْنِ وأطلقَ رصاصةً. أحسَّ بدفءٍ في صدرِهِ، ونظرَ فرأى ثقبًا في منتصفِهِ ينبثقُ منهُ الدمُ في زخَّات. أدركَ أنَّهُ أصيبَ في قلبِهِ فذلكَ موضعُ القلب. نصحَهُ اللصُّ الآخرُ بأنْ يكتمَ الدمَ بيدِه. ظلَّ الثقبُ ينزفُ وهوَ مُدركٌ أنَّهُ يموتُ، لكنَّهُ لمْ يُحِسْ ألَمًا حتَّى انتهى الحلم. أحسَّ فقط بحسرةٍ لأنَّهُ لمْ يدوِّنْ الرقم.

"كلَّا، لا تتجشَّمْ عناءَ رحلةٍ كهذهِ لأجلي!"

صوتُها ليسَ فيهِ نهيٌ أوْ تثبيطٌ، لـيسَ بـهِ سِوى الحَـثُّ والتحفيـز. عـادَ صوتُها ينضَحُ فرَحًا كأنَّ الكلماتِ ضحكات.

"بلْ لأجلي، في هذهِ الرحلةِ خَلاصي.."

قرارُ الرحلةِ ملأَ قلبَهُ رهبةً. ليسَ لأنَّهُ لمْ يجدْ طيرانًا وسـوفُ يُـضطرُّ إلى قيادةِ السيَّارةِ ألفيْ ميلٍ– هذا هوَ المتوقَّعُ لأنَّ آلافَ الأفواجِ من البشرِ يتوافدونَ على المدينةِ المقدَّسةِ في هذهِ الأيَّامِ التي تُدعى أيَّامَ التوبةِ الكـبرى– ولـيسَ لأنَّ الموسمَ مَوْسمُ السيولِ، والطريقُ مُغْرَقٌ، وَقَدْ شَسَعَتْ لَيْلَى وَشَطَّ مَزارُهَـا. لـيسَ الخطرُ ما يرهبُهُ، وليستْ المشقَّةُ ما يُشفِقُ منه. إنَّهُ في رُعبٍ من لقـاءِ حيـاةَ لا من الرحلةِ إليْها. ماذا لوْ وجدَ عينيْها مُقفرتيْنِ من الحبِّ؟ ماذا لوْ لمْ يفهمْ إنْ كانت توَّاقةً إلى لقائهِ أمْ مُتبرِّمةً بهِ، عهدُهُ بها أنْ ليسَ بوسعِ بـشرٍ أنْ يعلـمَ مَكنونَ ما بصدرِها إنْ قرَّرتْ أنْ تحجبَه؟ ماذا لوْ عمَّقَ اللقـاءُ إحـساسَهُ بـاللفظِ كطفلٍ ركضَ نحوَ حضنِ أمِّهِ– الذي اعتادَ أنْ يجدَهُ مُرَحِّبًا– غيرَ أنَّ الأمَّ لطمتْهُ في هذهِ المرَّةِ على خدِّه؟

حينَ تبتلُّ الطرقُ الرمليَّـةُ عميقًـا بالأمطـارِ تغـدو كأنَّهـا طُليـتْ بـالغِراء. السيَّاراتُ رباعيةُ الدفعِ مُعدَّةٌ لخوضِ تلكَ الطرقِ، غيرَ أنَّـكَ تحـسُّ بالـسيَّارةِ

تئنُّ مثلَ سجينٍ يرسُفُ في أصفاد. بينَ الحينِ والحينِ تعترضُ السيَّارةَ لُجَّةُ ماءٍ لامعةٌ بلونِ الزئبق. لجَّةٌ حقيقيَّةٌ ليستْ سرابًا. السرابُ يتموَّجُ، واللجَّةُ راكدة. السرابُ يسبقُكَ دائمًا ويظلُّ يسبقكَ على الطريقِ ولا تلحقُ بهِ أبدًا. اللُجَّةُ تنتظرُكَ مثلَ فخٍّ. وجدَ نفسَهُ مقبلًا على لُجَّةٍ ممتدَّةٍ في الأفق. واصلَ السيرَ مطمئنًّا إلى أنَّ اللججَ دائمًا ضحلةٌ. غيرَ أنَّ اللجَّةَ عميقةٌ لمْ يقدِّرْ عمقَها لأنَّ الطريقَ يتلوَّى ويعلو ويهبطُ، فوجدَ نفسَهُ تحتَ الماءِ والسيَّارةُ كأنَّها غوَّاصة. ابتلعتْهُ اللجَّةُ ودامَ ابتلاعُها طويلًا حتَّى ظنَّ أنَّهُ لنْ يخرجَ من جوفِها أبدًا، وتلكَ أغبى نهاية. دهرٌ انْصَرَمَ وهوَ غريق.

أهوَ حيٌّ أمْ ميِّتٌ؟ حينَ خرجتْ السيَّارةُ إلى الهواءِ هَمَّ بالعودةِ أدراجَهُ لا خشيَةَ الهَلَكَةِ– متى كانت الطبيعةُ رحيمةً، الأحياءُ يهلكونَ من القَحْطِ ويهلكونَ من الغَمْرِ؟!– بلْ لشِبهِ يقينٍ بأنَّهُ في نقطةٍ تاليةٍ سوفَ يجدُ الطريقَ مقطوعًا، غيرَ أنَّهُ طمأنَ نفسَهُ: "بلْ إنَّها العقبةُ الأخيرةُ، لا شكَّ في أنَّ الكونَ يختبرُ صدقي، وسوفَ يجدُني عاقدَ العزمِ على أنْ أذهبَ إلى حياةَ ولوْ في قاربٍ، ولوْ سباحةً!" وواصلَ السفر.

ساعةُ مِعصمِهِ تجمَّدَ عقرباها. يبدو أنَّها أُعطِبتْ في اللُجَّةِ، وتلكَ كلُّ الخسائر. أكثرُ الناسِ ما عادوا يقتنونَ ساعاتِ مِعصمٍ على أيِّ حالٍ بفضلِ

الموبايل. لا يضعُها الناسُ إلَّـا تأنُّقًـا. ليـستْ المـرَّةَ الأولى الـتي يتعـرَّضُ فيهـا لحادثٍ على هـذا الطريـق. كـادَ مـرَّةً أنْ يهلـكَ وهـوَ عائـدٌ عليْـه. أصـرَّ أحـدُ معارفِهِ- ليسَ صديقًا فلا أصدقاءَ هنا- على توصيلِهِ ذهابًـا وإيابًـا إلى المدينـةِ المقدسة. لعلهُ أرادَ رِشوتَه رِشوةَ دينيَّةً فهوَ مـن عمـلاءِ المؤسـسةِ المُهمِّـين، أوْ لعلَّهُ مِمَنْ يؤمنونَ بأنَّ مَنْ سِواهم خطَّـائينَ وأرادَ استتابتَهُ لينـالَ أجـرَ إنقـاذِ روحِهِ الضائعة. لمْ يكنْ فقدَ إيمانَهُ بعدُ فلمْ يَرَ بأسًا من زيارةِ المدينةِ الـتي مـا فتئتْ تبهرُهُ مؤمنًا وكافرًا. كانتْ الزيارةُ شاقةً بسببِ الحشدِ المهولِ والتدافعِ الساحقِ داخلَ الصرحِ، وأحسَّ في الرجوعِ بأنَّهُ عائدٌ من معركة. ظلَّ يغفو طيلةَ طريقِ العودةِ، لكنْ على مشارفِ المدينةِ التي يقيمُ بها لا يدري ما الذي جعلَهُ يفيقُ فجأةً. أفاقَ فرأى الـسائقَ نائمًـا مثلَـهُ، والمرسيدسُ تنـدفعُ مثـلَ قذيفـةٍ مُوجَّهةٍ نحوَ مؤخِّرةِ فوردَ رباعيَّةِ الـدفع. صـرخَ: "احـذرْ! احـذرْ! احـذرْ!" فأفاقَ السائقُ وضغطَ الكابحَ، أوْ لعلَّهُ زادَ من ضغطِهِ علـى الوقـودِ لأنَّ الارتطـامَ كانَ مثلَ سقوطٍ مـن أعلـى بـرجٍ إلى الأرضِ، بتـسارعٍ انتهـاءً بتهـشيمِ الـساقطِ المتحرِّكِ لا المتلقِّي الثابت. طارَ من مِقعدِهِ- وطارَ السائقُ- نحوَ الأمـامِ، غـيرّ أنَّ حزامَيْ الأمانِ كبحا انطلاقتَهما نحوَ الزجاجِ الأماميِّ ليُـذبحا. أحـسَّ بـأنَّ بطنَهُ انفجرتْ. دُكَّتْ مقدِّمةُ المرسيدسِ ولمْ تصبْ مؤخِّرةُ الفوردِ ولوْ بخـدشٍ (تحيا أمريكا!) ونجـا ركَّـابُ الـسيارتيْنِ بمعجـزةٍ، وفـيهم أطفـالٌ حـشرَهم

أبوهم في مؤخِّرةِ الفوردِ ولولا المعجزةُ لسُحِقوا. لاحقًا- حينَ فحصَ جسمَهُ العاري- وجدَ في صدرِهِ وبطنِهِ خطوطًا حمراءَ مثلَ علاماتِ الجَلدِ من أثرِ حزامِ الأمان. العجيبُ أنَّهُ حينَ خرجَ من السيَّارةِ المهشَّمةِ لمْ يكنْ فَزِعًا أوْ مصدومًا، وعدا أسفِهِ على المرسيدسِ التي ليستْ ملكَهُ- والتي أُصلحتْ لاحقًا في غضونِ أسبوعٍ- أحسَّ في أعقابِ الحادثِ بانتعاش وبهجةٍ غامريْن. ليستْ بهجةَ النجاةِ، بلْ بهجةَ تجدُّدِ اليقينِ بأنَّ الحياةَ هشَّةٌ ومن أيسرِ الأمورِ اختطافَها من حضنِنا ولأتفهِ سببٍ أوْ للا سببٍ البتَّة مهما تشبَّثنا بها. ليسَ الموتُ في حادثٍ تراجيديا بلْ عَبَثًا: التراجيديا تتصاعدُ بمنطقٍ نحوَ الفاجعةِ، أمَّا العبثُ فهَزَرٌ دامٍ دونَ تمهيدٍ أوْ منطق. العبثيَّةُ لا التراجيديا هي الأغلبُ فالموتُ لا يتربَّصُ بأحدٍ ولا يلاحقُ أحدًا، بلْ نحملُهُ معنا أنَّى رحلنا لأنَّ موتَنا معجونٌ بحياتِنا.

مُنتشيًا باجتياز لُجَّةِ الماءِ- التي اعتبرَها العقبةَ الأخيرةَ بينَهُ وبينَ حياةٍ- أنشدَ:

أَأَتْرُكُ لَيْلَى لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا

سِوَى لَيْلَةٍ؟ إنِّي إذاً لَصَبُورُ!

وأنشد:

زُرْ مَنْ هَوَيْتَ وَإِنْ شَطَّتْ بِكَ الدَارُ

وَحَالَ مِنْ دُونِهِ حُجُبٌ وَأَسْتَارُ

وأنشد:

وَلَا خَيْرَ فِي الدُنْيَا إذا أَنْتَ لَمْ تَزُرْ

حَبِيبًا، وَلَمْ يَطْرَبْ إِلَيْكَ حَبِيبُ

مَا أنْ أيقنَ الوجودُ بأنَّهُ ماضٍ إلى حياةَ لا محالةَ– وكأنَّ الكونَ يُحيِّي قرارَ الرحيلِ ويُغري بهِ– كفَّتْ الأمطارُ عن الهطُولِ وغِيضتْ السيولُ وأشرقتْ الشمسُ وأزاحتْ الغيْمَ وجفَّتْ الأرضُ المُغرَقَةُ في إيحاءٍ بأنَّ الشتاءَ ينوي أنْ ينقلبَ إلى صيْف. غِيْضَ الماءُ فتعرَّى هذا القفرُ، وليسَ على طولِ الطريقِ سِوى شجرِ الطلحِ الصامدِ، وجُزُرٌ متناثرةٌ من الشوكِ والعوْسجِ والقتادِ والصفَّارِ والعرْفجِ، وكَمَأٍ شحيحٍ ذابلٍ مُبعثرٍ في بحرٍ أصفرَ شاسعٍ من الرمل. لمْ يكنْ ماءٌ بعدَ ذلكَ بلْ جبالٌ ورمالٌ، رمالٌ وجبالٌ، والطريقُ الصاعدُ الهابطُ المتلوِّي يجعلُ الأفقَ يبدو مسدودًا بالجبالِ على الدوام. المشهدُ الجبليُّ السيرياليُّ في ثلاثةِ مستوياتٍ: الجبالُ الدانيةُ على جانبيْ الطريقِ صفراءُ وتبدو وكأنَّها تهمُّ بالانطباقِ عليْهِ، والجبالُ القَصيَّةُ الشاهقةُ برونزيَّةٌ وتبدو مُصطفَّةً على خطٍّ كأنَّها سورٌ يعزلُ تخومَ الوجودِ عن العدمِ أوْ أسوأَ من العدمِ، وفيما بيْنهما

جلاميدُ صخرٍ بُنيَّةٌ منثورةٌ هنا وهناكَ وقد نحتَها الدهرُ على هيئةِ أوثانٍ من ثيرانٍ وأسودٍ وطيورٍ ورجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ وهجائنَ بينَ الإنسانِ والوحش. البعضُ مثلُ غوريلًّا مُقعيةٍ تستندُ بكفَّيْها على الأرض. والبعضُ مثلُ ذئبٍ أغبرَ يتسلَّلُ من جانبِ الطريقِ ويكادُ يثِبُ على المسافرين. وأحيانًا يحني رأسَهُ مثلَ كلبٍ خاضعٍ فتشتهي أنْ تربتَ على شعرهِ المُلبَّدِ مثلَ جِزَّة تَيْس. وما أكثرَ مرورَكَ بأبي هوْلٍ مغمورٍ لا يعوزُهُ سِوى قليلٍ من النحتِ في الوجهِ ليصيرَ توأمَ الرابضِ عندَ الأهرام. أصابَ القدماءُ حينَ قدُّوا الأوثانَ من صخورِ الجبالِ ومحاكيةً لها. من المُحتَّم أنْ تعطيَ الجبالُ انطباعًا بالألوهيَّةِ: إنَّها هائلةٌ وراسخةٌ وجليلة. لكنْ هكذا نحنُ أيضًا في عيونِ النمل. من المُهينِ أنْ يتذكَّرَ المرءُ أنَّ الجبالَ بكلِّ شموخِها وجلالِها ليستْ سِوى نتوءاتٍ في قشرةِ الأرضِ، التي ليستْ سِوى كوكبٍ صغيرٍ في مجموعةٍ شمسيَّةٍ عاديَّةٍ في مجرَّةٍ ليستْ بالشاسعةِ، لأنَّ ذلكَ يُذكِّرُ بضآلةِ الإنسانِ وتفاهتِهِ رغمَ هالةِ الميثولوجيا التي حاكَها حولَ أنَّهُ الكائنُ المختارُ في كونٍ الأرضُ مركزُه. جبلٌ واحدٌ لا تفسيرَ جيولوجيَّ لوجودِهِ على هذا الطريقِ لأنَّ صخورَهُ ليستْ مثلَ صخورِ سلسلةِ الجبالِ في هذهِ المنطقةِ، بلْ تنتمي إلى سلسلةٍ جبليَّةٍ على بعدِ آلافِ الأميالِ من هذا الموضع. الجبلُ شاهقُ البياضِ بينما سائرُ جبالِ المكانِ كابية. السكَّانُ المحلِّيونَ وهم قبائلُ رحَّالةٌ متناثرةٌ يدَّعونَ أنَّهُ جبلٌ أنثى– سَمِّها تلَّةً

إنْ شئتَ- عشِقتْ جبلاً ذكرًا هنا وزحفتْ من موطنِها آلافَ الأميالِ حتَّى التصقتْ به. ذاكرةُ هؤلاءِ الرُحَّلِ ما زالتْ متشبِّثةً ببعضِ الأساطيرِ الوثنيَّةِ التي مَحَقَ الدينُ الغالبُ جُلَّها. يحملونَ وثنيَّتَهم معهم ويرحلون. في الغروبِ اسودَّتْ سلاسلُ الجبالِ أمامَ خلفيَّةٍ ورديَّةٍ وبنسفجيَّةٍ وقرمزيَّةٍ وأرجوانيَّةٍ في مشهدٍ أروعَ من حلم. وفي غسقِ الليلِ توارتْ الجبالُ، وائتلقتْ النجومُ وتعمْلقتْ ودَنَتْ من الأرض. اكتشفَ أنَّ النجومَ حقًّا مشاعلُ- بلْ حرائقُ- ورأى تموُّجَ وتراقُصَ ألسنةِ لهيبها.

مع الفجرَ كانت المعجزةُ. لمْ ينقلبْ الشتاءُ إلى صيْفٍ، بلْ إلى ربيعٍ. ربيعٍ رقيقٍ ليسَ من طبعِ هذهِ الأرض. أزهارُ الشمسِ بأصفرِها الملكيِّ.. الأقحوانُ كأنَّهُ نِيشان.. شقائقُ النُعمانِ المُتأجِّجةُ.. عصا الراعي، وكفُّ مريم.. النرجسُ والسوسنُ.. والجوريُّ، والخُزامى.. والزعفرانُ والياسمينُ.. أزهارٌ أروعُ وأيْنعُ من أزهارِ تلكَ الحديقةِ التي حَلَمَ باغتراسِها، حولَ البيتِ الذي حَلَمَ ببنائهِ، فوقَ الأرضِ التي باعَها. الريحانُ الفِردوسيُّ- نبتُ الجنَّةِ وعطرُها- والآسُ والرَندُ والحرملُ، والزنابقُ- التي ولا سليمانُ في كلِّ مجدِهِ كانَ يلبسُ كواحدةٍ منها- كسوْا بسُندُسٍ بَشرةَ الأرضِ التي كانتْ عاريةً وزيَّنوها مثلَ عروسٍ هِنديَّة.

وَعَلَى الأَرْضِ اخضِرَارٌ

وَاصفِرَارٌ وَاحمِرَارُ

فَكَأَنَّ الرَوْضَ وَشْيٌ

بَالَغَتْ فيهِ التِجَارُ

نَقْشُهُ آسٌ ونِسرِيْنٌ

وَوَرْدٌ وَبَهَارُ

كيفَ أبدعتْ التربةُ المَيْتةُ المنطفئةُ هذهِ الألوانَ الحيَّةَ الدافئةَ؟! وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليْها الماءَ اهتزَّتْ ورَبَتْ وأنبتتْ من كلِّ زوجٍ بهيج. حتَّى الأحجارُ الصلدةُ الجرداءُ اكتستْ بحياةٍ خضراءَ، ونبتٍ يعلمُهُ، ونبتٍ لا يعلمُهُ، وكأنَّ الكونَ يشدُّ من أزرِهِ ويحيِّيهِ بباقةٍ من أنفسِ الورودِ هاتفًا:

"امضِ!.. امضِ!.."

أَتَاكَ الرَبيعُ الطَلْقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا

مِنَ الحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَا

وَقَدْ نَبَّهَ النَيْرُوزُ فِي غَلَسِ الدُجَى

أَوَائلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأَمْسِ نُوَّمَا

يُفَتِّقُهَا بَرْدُ النَدَى فَكَأَنَّهُ

يَبُثُّ حَدِيثًا كَانَ قَبْلُ مُكَتَّمَا

وَمِنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَبِيعُ لِبَاسَهُ

عَلَيْهِ كَمَا نَشَّرْتَ وَشْيًا مُنَمْنَمَا

أَحَلَّ فَأَبْدَى لِلْعُيُونِ بَشَاشَةً

وَكَانَ قَذَىً لِلْعَيْنِ إِذْ كَانَ مُحْرِمَا

وَرَقَّ نَسِيمُ الرِيحِ حَتَّى حَسِبْتَهُ

يَجِيءُ بِأَنْفَاسِ الأَحِبَّةِ نُعَّمَا

وكلَّما مضى قُدُمًا إلى حياةَ رأى وجهَها يكبرُ ويتعملقُ حتَّى غدا بحجمِ الصرحِ المقدَّسِ، ثم أكبرَ من الصرحِ، ثم احتوى كلَّ ما في السمواتِ والأرضِ وتضمنَه. راحَ يخاطبُ ذلكُ الوجهَ المُتضمَّنُ فيهِ كلُّ شيءٍ– الوجهَ اللا محدودَ اللا متناهي، والمُركَّبَ من وجوهِ كلِّ مَنْ أحبَّ، بلْ ومن وجوهِ كلِّ المعشوقاتِ في أبديَّةٍ من العشقِ– وهوَ لا يدري يقينًا: هلْ يحدِّثُ حياةَ، أمْ يحدِّثُ نفسَهُ، أمْ يحدِّثُ حياةَ التي في نفسِهِ، مُستعرِضًا كلَّ الأحاديثِ التي كانت لتُقالَ لوْ أنَّها معَهُ، أوْ حينَ يلقاها، أوْ ما قيلَ، أوْ ما كانَ من المحتملِ أنْ يُقالَ ولمْ يُقل. كلَّ ما كانَ ينبغي لهُ أنْ يُقالَ، وكلَّ ما كانَ حمقًا أنَّهُ قيلَ في أيِّ لحظةٍ من لحظاتِ تاريخِهما. كلَّ توافيقِ وتباديلِ الكلامِ الذي بوسعِ حروفِ اللغاتِ

كلِّها أنْ تجسدَهُ، دونَ أنْ يميِّزَ ماذا قالَ لحياةَ وماذا قالتْ لـهُ، أوْ يـدري مَـنْ قالَ ماذا لِمَنْ.

لماذا الآنَ؟! لِمَ لمْ تأتِ مبكرًّا؟!..

ظننتُ أنَّكِ لا تريدينَ لقائي لحبِّكِ غيري..

يا للجنونِ المزمن!.. لا تأتِ، الرحلةُ شاقة..

مازلتِ لا تريدينَني؟..

أخشى عليكَ الطريق..

مصرعي لنْ يكونَ إلَّا بيديْكِ..

هلْ آنَ لكَ أنْ تكفَّ عن ظلمي؟..

لمْ تحاولي ولوْ مرَّةً أنْ تبرِّئي نفسَكِ..

ماذا تفيدُ البراءةُ وقرارُ الإعدامِ جاهزٌ، الصمتُ أكرمُ؟!..

عَيْشي بدونِكِ غُربةٌ. أنتِ السَعْدُ الوحيدُ في عُمرٍ من النحس. أمِنَ المستحيلِ أنْ يسودَ بينَنا سلامٌ أبديٌّ؟..

أنتَ مَنْ ينقضُ السلام..

* * *

حينَ شارفَ المدينةَ المقدَّسةَ فاضتْ عيناهُ، وتمتمتْ شفتاه:

وَفَيْضِ دُمُوعٍ تُسْتَهَلُّ إذا بَدَا

لَنَا عَلَمٌ مِنْ أَرْضِكُمْ لَمْ يَكُنْ يَبْدُو

وأنشدَ أيضًا:

وَقَدْ زَعَمُوا أنَّ المُحِبَّ إذَا دَنَا

يَمَلُّ، وَأنَّ النَأيَ يَشْفِي مِنَ الوَجْدِ

بِكُلٍّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يَشْفِ مَا بِنَا

عَلَى أنَّ قُرْبَ الدَارِ خَيْرٌ مِنَ البُعْدِ

الوعدُ أنْ يلتقيا في الساحةِ المحيطةِ بالصرح. أوقفَ السيارةَ بعيدًا كيْلا تتكدَّسَ حولَها السيَّاراتُ ويعجزَ عن الخروجِ بها سِوى في النزعِ الأخيرِ من الليل. مترجلًا شقَّ طريقَهُ في الزحامِ نحوَ الصرح. على البعدِ يبدو الصرحُ مثلَ حصنٍ، وبلونِ جبلٍ من الرَصاص. مَهما اقتربتَ منهُ تحسُّ أنَّكَ تطالعُهُ عن بعدٍ من خَلَلِ الضباب. من داخلِهِ تنظرُ إلى أعلى فلا ترى سقفًا. يقولونَ إنَّ السقفَ بعيدٌ في السماءِ، لكنَّهُ غيرُ موجودٍ، وما زالوا يُعلُّونْ. لأغراضِ التعليةِ طوَّقوا الصرحَ بدعائمَ معدنيَّةٍ قبيحةٍ فبدا مثلَ كينج كونج في الأغلال. برودةُ الحديدِ وسوقيَّتُهُ تتنافرُ مع دِفءِ المرمرِ وأبَّهةِ الذهبِ اللذيْنِ حُلِّيَ بهما الصرح. هذا الصرحُ– الذي لمْ يعدْ الصرحَ الذي رفعَهُ الأسلافُ، ولوْ بُعثوا

أحياءً لما عرفوهُ– تعاقبتْ عليْهِ الأيدي بالترميمِ والتغـييرِ والتنميـقِ والتعليـةِ والتـسويرِ (وحتَّـى بالهـدمِ والـسلبِ) بحيـثُ لمْ يعـدْ هـوَ. هـؤلاءِ التـائبونَ المستغرقونَ في التوبـةِ الآنَ لا يتوبـونَ حيـثُ يظنُّـونَ أنَّهـم يتوبـونَ، بـلْ ولا يتوبونَ على النحوِ الذي أراد مَنْ يتوبونَ إليْهِ أنْ يتوبوا عليْـه. مثـلُ الـصرحِ: الحقيقةُ، لوْ أنفقتَ أبديَّةً في البحثِ والـدرسِ لـنْ تجـدَ الحقيقـةَ– لا حقيقـةَ التاريخِ ولا حقيقةَ الدينِ ولا حقيقةَ الإنـسانِ– لقـد غـارتْ إلى أعمـاقٍ لمْ يعـدْ بوسعِ أحدٍ أنْ يسبرها. كـلُّ مـا تبـصرُهُ العـينُ زائـفٌ مُمـوَّهٌ تزييفًـا وتمويهًـا تعاقبتْ على إتقانِهما الأجيـالُ عمـدًا أوْ دونَ قـصد. التـاريخُ مكتـوبٌ بخبـثٍ وسوءِ نيِّة، وبجهلٍ أيـضًا. ظلَّـتْ الأجيـالُ تلقِّـنُ الأجيـالَ أوهامًـا عـبرَ آلافِ السنين. وظلَّتْ الأوهامُ تتطوَّرُ وتتحـوَّرُ وتُنمَّـقُ وتتـأقلمُ وتُحكَـمُ، حتَّـى غـدا اختراقُ مئاتِ الأقنعةِ المتراكمةِ فوقَ وجوهِها من المستحيلات. ما أنـدرَ الـذينَ تهديهم عقولُهم إلى تمييزِ الادِّعاءِ من العفويَّةِ، والصدقِ من الكذبِ، والحقيقةِ من الوهمِ، والحقِّ من الباطلِ، والخيرِ من الشرِّ. ندرةٌ من البشرِ، نُـزُرٌ يـسيرٌ وينقرضونَ يومًا بعدَ يوم. مثلُ الفيلمِ، نعيشُ داخلَ ماتريكس وكلُّ ما نثقُ بـهِ ولا نتساءلُ عنهُ مـصنوعٌ ومتواطـأٌ عليْـهِ منـذُ آلافِ الـسنينِ وفَـضَّلَ البـشرُ أنْ يغضُّوا الطرفَ عنهُ لأنَّ الحقيقـةَ باهظـةُ الـثمنِ. ثمنُهـا فـادحٌ حقًّـا، ألا وهـوَ تقويضُ كلِّ ما بنيناهُ في آلافِ السنينِ والتيهُ مثلُ أوَّلِ البشرِ في الغَسَقِ والعراء.

لمْ يخطرْ ببالِهِ أنْ يدخلَ الصرحَ ويجدِّدَ توبتَهُ كما يفعلُ الناسُ ما داموا في المدينةِ المقدَّسة. عَمَّ يتوبُ، عن حياة؟! ليسَ في حياةَ ما يستوجبُ التوبةَ، بلْ الفخرَ، إنَّهُ مُصِرٌّ عليْها متشبِّثٌ بها. فليتبْ إذنْ توبةً عامةً مُبهمةً، أوْ ليتُبْ عن شأنٍ آخرَ لا صلةَ له بحياة. لكنَّهُ يدركُ أنَّ التوبةَ الوحيدةَ التي يطلبُها منهُ الصرحُ هي توبةٌ عن حياةَ، وهي توبةٌ ليسَ بوسعِهِ أنْ يتوبَها حتَّى لوْ كانت حياةُ في رأيِ الصرحِ خطيئة. بلْ حتَّى لوْ نطقَ الصرحُ المقدَّسُ ونهاهُ عن حياةَ لنْ ينتهيَ، فلِمَ النفاق؟!

أَتُوبُ إليْكَ يَا رَحْمَنُ مِمَا

عَمِلْتُ فَقَدْ تَظَاهَرَتِ الذُنُوْبُ

فَأمَّا مِنْ هَوَى لَيْلَى وتَرْكِي

زِيَارَتِها فَإنِّي لَا أَتُوْبُ

إنَّهُ الآنَ في الساحةِ يرنو إلى الصرحِ العملاقِ دونَ انبهار. من الخارجِ لمْ يعدْ للصرحِ أوْ للقربِ منهُ في نفسِهِ أدنى أثر. لكنَّهُ على أعتابِهِ على أيِّ حالٍ– وقبلَ موعدِ حياةَ بساعةٍ– وما لبثَ الفضولُ أنْ أغراهُ بإلقاءِ نظرةٍ أخيرةٍ من الداخلِ ليرى إنْ كانت تلكَ القوَّةُ النفسيَّةُ– التي بهرتْهُ وأخشعتْهُ يومَ تابَ منذُ سنينَ– ما زالتْ للصرح.

استوقفَهُ أحدُ الحرَّاسِ رافضًا أنْ يدخلَه. قالَ باحتقارٍ: "هذهِ الأشياءُ لا تدخلُ هنا!"

هذهِ الأشياءُ سلَّةُ ورودٍ حملَها كيْ يهديَها حياة.

أحسَّ بأنَّ الصرحَ لفظَهُ بقوَّة. نطحَهُ وركلَه. الصرحُ طردَهُ لأنَّهُ لمْ يأتِ لأجلِه. الصرحُ ناقمٌ مشمئزٌّ. يُقالُ إنَّ للصرحِ روحًا حيَّة. لمْ يصدقْ ذلكَ قطْ، لكنَّهُ يحسُّ الآنَ بأنَّ روحَ الصرحِ تُبغضُهُ وتطردُه.

لكنْ لِمَ لا تكونُ القوَّةُ التي تطردُهُ قوَّةَ شرٍّ لا قداسةٍ، قوَّةً عاجزةً عن الحبِّ أوْ فهمِ الحبِّ؟ أحسَّ بأنَّ القدرَ- أوْ الصدفةَ- اختارَ لهُ الأحبَّ إلى قلبِهِ، وهوَ التَجوالُ في المدينةِ العتيقة.

النطاقُ القديمُ الذي أحبَّهُ داستْهُ أقدامُ عمالقةِ الحديد. احتلَّتْهُ الأبراج. النطاقُ المُضمَّخُ بعَبَقِ التاريخِ، الذي ما أنْ يحتويَكَ حتَّى تحسَّ بأنَّكَ سافرتَ في الأزمانِ وسوفَ تلقى أنبياءَ سِفرِ التكوينِ- أوْ أبطالَ الإليادةِ والأوديسَّةِ- وأنتَ تضربُ في مناكبِهِ. والآنَ اختفى السحرُ أوْ قُتِلَ عمدًا. القداسةُ والتكنولوجيا لا يجتمعانِ، الجمعُ بينَهما سوقيَّةٌ تذبحُ الروح.

لكنَّها تبقى مدينةً عالميَّةً- هذا مَا لا يمكنُ أنْ يُسرقَ منها- بلْ إنَّها أكثرُ مدنِ العالمِ عالميَّة لأنَّ المؤمنينَ من شتَّى البقاعِ وكلِّ الأجناسِ مأمورونَ

بزيارتِها. مَيْزةُ المدنِ العالميَّةِ أنَّ الكلَّ فيها أجانب. بوسعِكَ أنْ تتصرَّفَ فيها بكلِّ غرابةٍ، وأنْ تفعلَ بمظهرك ما شئتَ ولنْ يلومَك أحدٌ. بوسعِكَ أنْ تحلِقَ شعرَكَ حتَّى الجِلدِ، وبوسعِكِ أنْ ترسلَهُ فوقَ ظهرِك. بوسعِكَ أنْ ترتديَ الثيابَ الغربيَّةَ أوْ الشرقيَّةَ أوْ تؤلِّفَ بينهما أوْ تخترعَ زيًّا لنفسِكَ لا يُلبَسُ في أيِّ بلدٍ ولمْ يلبسْهُ أحدٌ في أيِّ عصرٍ في الشرقِ أوْ الغرب. بوسعِكَ أنْ تعتنيَ بهندامِكَ كنجومِ السينما أوْ أنْ تلبسَ مُرَقَّعَةً وتهملَ نظافتَكَ كالدراويشِ، وفي كلِّ الأحوالِ سوفَ يظنُّ مَنْ يراكَ أنَّ تلكَ عاداتُ وطنِكَ فمن حيثُ أتيتَ هكذا يبدو الناس. ناهيكَ عن المزايا العينيَّةِ للمدنِ العالميَّةِ: المطاعمُ التي تقدِّمُ وجباتٍ من شتَّى بقاعِ الأرضِ المتحضِّرةِ والمتخلِّفةِ، والحوانيتُ التي تبيعُ لبنَ العُصفورِ، وهذهِ المدينةُ تبيعُ بضائعَ ألفِ ليْلةٍ التي عادَ بها السندبادُ من الهِندِ والسِندِ وجزرِ واقِ الواقِ، فضلًا عن البضائعِ التي عادتْ بها سفنُ الفضاءِ من المرِّيخِ والمُشترَى والزُهرة. جنبًا إلى جنبٍ معَ أرقى ما بلغتْهُ التكنولوجيا من أجهزةٍ مدهشةٍ، التوابلُ والبَخورُ والمُكسَّراتُ والمِسكُ والعنبرُ والعود. الحريرُ المُنتزعُ من أفواهِ بلايين الديدان. أيقوناتُ العاجِ والفضَّةِ والكتبُ المنقوشةُ بماءِ الذهب. القناديلُ الفضيَّةُ والنحاسيَّة. أحياءٌ بأسرِها تكتظُّ نوافذُ الحوانيتِ في شوارعِها بالحليِّ الذهبيِّ كأنَّ ذَهَبَ الأرضِ كُدِّسَ فيها.

غيرَ أنَّ الغشَّ دَيْدنُ تجَّارِها رغمَ أنَّهم وُلِدوا في القداسة. لنْ تميِّزَ بينَ ما

هوَ أصيلٌ وما هوَ مقلَّدٌ من براعةِ الغِشِّ، وسوفَ يحلفونَ لكَ في كلِّ الأحوالِ على أصالةِ ما يبيعون. التَذكاراتُ التي يُدَّعى أنَّها تحفٌ ثمينةٌ أصيلةٌ ما هيَ إلا تقليدٌ رخيصٌ صُنْعُ الصين. السِبحُ– المفترضُ أنَّها من لآلئِ الأرضِ المقدَّسةِ– هيَ أيضًا من زجاجِ الصين. حتَّى الكتبُ المقدَّسةُ المخطوطةُ بماءِ الذهبِ والتي تبدو عتيقةً زُيِّفتْ في الصينِ بماءٍ ليسَ من ذهب. كلُّ البضائعِ صينيَّةٌ كما هوَ الحالُ في الشرقِ والغرب.

وكما يأتيها الناسُ من كلِّ بقاعِ الأرضِ، يأتيها أيضًا منبوذو الأرضِ: المتسوِّلونَ مقطوعو الأذرعِ أوْ السيقانِ عمدًا لإذابةِ القلوبِ، والمستجدياتُ بصحبةِ أطفالٍ استؤجِروا لاستدرارِ العطفِ، والنشَّالونَ المُتخفُّونَ في ثيابِ تائبينَ والمندسُّونَ بينَ التائبينَ الخاشعينَ لنشلِهم. حتَّى البغايا لهنَّ سوقٌ خفيٌّ فالدنسُ لا يَلُذُّ إلَّا في أشرفِ البقاع.

لمْ يبقَ إلَّا دقائقُ على موعدِ حياةَ، وها هوَ يغُذُّ الخطى نحوَ ساحةِ الصرحِ الشاسعةِ التي اكتظَّتْ بالناسِ حتَّى خشى ألَّا يجدَها وسطَ هذا الحشدِ الأعظمِ، احتمالٌ شبهُ معدومٍ بفضلِ الموبايلِ لكنَّهُ موسوس. حينَ يلقاها سيعلمُ: إنْ كانتْ ما زالتْ تحبُّهُ سيرى الحبَّ في عينيْها كما رآهُ دائمًا. إنَّهُ يميِّزُ الحبَّ، ولا ينطلي عليْهِ التصنُّع. لكنْ ماذا لوْ وجدَ عينيْها خاويتيْنِ؟ ماذا لوْ لمْ تأتِ؟

أحسَّ أنَّ سهمًا انطلقَ وانغرزَ في قلبِه.

لمْ يجدْها بلْ وجدتْه. هرولتْ نحـوَهُ كطفلـةٍ مفتوحـةَ الـذراعيْنِ، ولـوْ لمْ تلمحْ رعبَهُ من هذا النَزَقِ لما خَلَّتهُ برغمِ قداسةِ المكانِ وبرغمِ الجمْع. الحـبُّ في عينيْها واللهفةُ والحنوُّ والصدقُ، تلكَ العواطفُ الـتي اختُـصَّتْ بهـا مـن دونِ أهلِ الأرض. عانقتْهُ عيْناها وقبَّلتْه. فيهِما نفسُ الحبِّ القديمِ، ونفسُ الفـرح. مستحيلٌ أنْ يكونَ كلُّ هذا الفـرحِ ادِّعـاءً، بوسـعِ المـرءِ ادِّعـاءُ أيِّ شـيءٍ سِوى الفرح. قد يُزيَّفُ الحزنُ، لكـنَّ الفـرحَ لا يُزيَّـف. لمْ تفـرحْ امـرأةٌ بـهِ فرحـةَ حياة. لمْ تحتفِ امرأةٌ بهِ حفاوتَها. لمْ تَحْنُ عليْـهِ امـرأةٌ حُنُوَّهـا. لمْ تتلـهَّفْ امرأةٌ عليْهِ لهفتَها. لمْ يشكّ لحظةً في أنَّ حبَّهُ ملاذُها. حـينَ تـشيخُ لـنْ تـذكرَ سِوى هذا الحبِّ، وكلَّما ذكرتْهُ سوفَ ترتـدُّ صـبيَّة. مهمـا تمـرَّدتْ وتنمَّـرتْ حينَ تلقاهُ ترتدُّ طفلةً وديعةً، ومهما آلمَتْهُ سوفَ يبقـى مُمتنًّـا لأنَّهـا وهبتْـهُ- ولوْ ليْومٍ- أروعَ هبةٍ قدْ توهَبُ: يقينَ المُحبِّ بأنَّ محبوبَهُ يحبُّه. حينَ يمتلـئُ المحبُّ بهذا اليقينِ لا يأبهُ إنْ مشى على الجمر. ليتَهُ ما أجَّلَ الرحلةَ كلَّ ذلكَ التأجيل.

تَشبَّثتْ بِهِ. لمْ تردعْها قداسةُ المَوْضعِ- ولا الحشودُ الخاشعةُ المنتحبةُ مـن حولِهما- من أنْ تتأبَّطَ ذراعَهُ مُلتحِمةً بـهِ، بـلْ وظلَّـتْ تـضغطُ بثقـلِ جـسمِها

ثديَها في ذراعِهِ فوجدَهُ دافئًا نافرًا كالعهدِ بهِ، وبرغمِ أنَّهُ رمقَها مُحذِّرًا ظلَّتْ تتمسَّحُ بهِ مثلَ قطَّةٍ هائجة:

"رِفقًا بي، لوْ تماديتِ لنْ أتمالكَ نفسي!"

"ماذا ستفعلُ؟"

"سأحتضنُكِ وأقبِّلُكِ"

"ليكُنْ!"

"سيمزِّقُنا التائبونَ بأسنانِهم!"

"لوْ كانوا خاشعينَ حقًّا لنْ يروْنا!"

"لنْ أراهنَ على خشوعِهم!"

هذهِ حياةُ ونَزَقُها، ولولا النَزَقُ ما كانت حياة. هلْ المتعةُ في رؤيتِها؟.. هلْ في سماعِ صوتِها؟.. هلْ في ضمِّها؟.. ليستْ في شيءٍ بوسعِ إصبعِكَ أنْ يُشيرَ إليْه. الأرجحُ أنَّها في مشاركةِ نفسِ الحيِّزِ معها.. في تنفُّسِ نفسِ الهواءِ الذي تتنفسُه.. في الوجودِ بحَضرتِها، أجلْ في الوجودِ حيثُ هيَ.

عبرَ المايكروفوناتِ ينسابُ وعظُ الواعظِ الأكبرِ من داخلِ الصرح. الواعظُ يبكي في نهايةِ كلِّ جملةٍ، وأحيانًا قبلَ أنْ يُتِمَّ جملتَهُ فلا يتمَّها. لِمَ يبكي بهذهِ الحرقةِ؟ هلْ ذنبُهُ شنيعٌ إلى هذا الحدِّ؟

اقترحتْ حياةُ أنْ يدخلا الصرحَ لتجديدِ التوبةِ معًا.

"ادخلي وسوفَ أنتظرُكِ هنا"

"لنْ أدخلَ ما لمْ تدخلْ معي"

"أحسُّ أنَّ بيني وبينَ الصرحِ نفورًا متبادلًا!"

"إذنْ لنْ أدخلَ، لنْ أبدِّدَ لحظةً لا أكونُ فيها معك!"

"بلْ ادخلي!"

"سوفَ أبقى معكَ، لا أشعرُ برغبةٍ في التوبةِ اليوْم"

أصرَّ: "لا تضحِّي لأجلي! ما قَدِمتُ بنيَّةِ التوبةِ، لمْ آتِ لسواكِ"

"وأنا لم آتِ لسواكَ، سأبقى معكَ، دَعنا لا نضِيعُ لحظةً"

كلُّ الأماكنِ الظليلةِ احتُلَّتْ في الساحةِ الشاسعةِ حولَ الصرح. هَامَا هنا وهناكَ بحثًا عن ظِلٍّ. أخيرًا في طرفِ ظلِّ أحدِ الأبراجِ افترشا أرضَ الساحة. أديمُها ناعمٌ كخدِّ طفلٍ، أملسُ كشعرِ أرنب. لكنَّ الظِلَّ لنْ يدوم. أحسَّ أنَّهُ مُمتلِئٌ نشوةً كما يُملأُ البالونُ بهيليومَ، وجاهدَ كيْ يُبقيَ نفسَهُ على الأرضِ ولا يطفوَ لخِفَّتِهِ في الجوِّ.

التائبونَ حفاةُ الأقدامِ يزحفونَ من الساحةِ إلى الصرحِ عبرَ أبوابِهِ المئةِ في بُطءٍ أشبهَ بالسكونِ ضارعينَ بصوتٍ باكٍ:

بِكَ أَسْتَجِيرُ وَمَنْ يُجِيرُ سِوَاكَ

فَأَجِرْ ضَعِيفًا يَحْتَمِي بِحِمَاكَ

الـذينَ احتلُّـوا الأمـاكنَ دائمـةَ الظـلِّ افترشـوا الأرضَ يـأكلونَ ويـشربونَ ويتحدَّثون. الغالبُ أنْ ترى رجلًـا وامـرأةً، رجلًـا وامـرأةً. الـبعضُ اصـطحبوا عيالَهم. كلُّ هذا الحشدِ مختلفِ الأجناسِ والأعـرافِ سـعيدٌ مبـتهج. أمْ هـيَ سعادتُهما انعكستْ على كلِّ هؤلاء؟ السعداءُ تفيضُ سعادتُهم على مَنْ حـولَهم وما حولَهم.

"أراهنكِ أنَّهم عشَّاق. انظري في وجوهِم: العشقُ لا التوبـةُ يجعـلُ النـاسَ يتحدَّثونَ بهذا الحماس!"

"دائمًا تظلِم!"

"وما يضرُّهم إنْ قلتُ إنَّهم عشَّاق؟"

"في هذا الموضعِ يُضرُّهم كلَّ الضرر!"

* * *

ما لبثَ الظلُّ الغادرُ أنْ انحسرَ عنهما فانكشفا تحتَ الشمسِ القاتلة. قامـا وتبعا الظلَّ إلى مصدرِهِ: البرج. أقلَّتْهمـا الـسلالمُ المتحرِّكـةُ إلى الطوابـقِ الـتي تشغلُها المطاعمُ والكافيتريات. وجدا المكانَ يعجُّ بالناس. كلُّ الموائدِ الـتي تطـلُّ على أيِّ شيءٍ مشغولةٌ– لمْ تُتركْ سِوى الموائـدِ في الوسطِ المحاصـرةِ مـن كـلِّ

مكانٍ– لكنَّهما لا يكترثانِ للإطلالِ فعيونُهما منذُ التقيا في عناقٍ لنْ يفُضَّاهُ ولـوْ لإطلالةٍ على أبهى منظر.

فَرِحٌ بوجودِها معهُ، في حدِّ ذاتِهِ، وجودِها في الدنيا، في أيِّ مكانٍ، وفي أيِّ وقت. حبيبُـكَ المتحـدُ بـكَ، الـذائبُ فيـكَ، رغـمَ أنَّ كـلَّ مـا في الأرضِ حائـلٌ بينَكما. حبيبُ العمرِ يفهمُ دونَ أنْ تُـسهِبَ في الـشرحِ، ويُـصدِّقُ دونَ أنْ تُغلِـظَ الأيْمان، ويعذرُ دونَ أنْ تُمْعِنَ في الاعتذار. في الحبِّ تعوِّضكَ لحظـةٌ عـن شـقاءِ عمر. العشقُ كوكبٌ ليسَ بوسعِنا الإفلاتُ من جَذْبِه. بحرٌ تهلَـكُ كائناتُـهُ لـوْ انتُزِعت منه. لا فرارَ من العشقِ إلَّا لـوْ فـرَرْتَ مـن الأرضِ والـسماءِ والبحـرِ، وقبلَهم من نفسِك. إنَّكَ بداخلِ العشقِ، والعشقُ بداخلِك. مُحتـوىً في العـشقِ، والعشقُ مُحتوىً فيك. كفُوفُهما فوقَ المائدةِ تلاحمتْ أصابعُها:

"زوجتي قرأتْ تشاتَنا، وكذلكَ أبنائي.."

"قلتُ لكَ إنَّ النتَّ فضيحة!"

"بلْ أراحني أنَّها اكتشفتْ: لا نفاقَ بعدَ اليوم!"

"واكتشفتْ مَنْ أنا؟"

"تتخبَّطُ كدُبٍّ أعمى.. تشتبهُ في كلِّ نساءِ فيسبوك!"

"لأنَّ حسابي باسمٍ مستعارٍ، لكنَّها بهذا الإصرارِ سوفَ تجدُني ولـوْ بعـدَ

حين"

"ليتَها تجدُكِ وتفضحُكِ عندَ زوجِكِ فيطلِّقُكِ!"

"ليتَها!"

"لكنَّها لنْ تفعلَ، إنَّها خبيثةٌ لا يخفى على خبثِها أنَّكِ لـوْ تحـرَّرتِ لـنْ يقفَ شيءٌ في طريقِنا"

"ما ردُّ فعلِها إزاءَ الاكتشاف؟"

"تصرُّ على أنَّنا دمَّرناها"

"أصدِّقُها"

"لا شكَّ في أنَّ الطعنةَ أصابتْ كبرياءَها. غيرَ أنَّ كبرياءَها خُدِشَ ولمْ يُـدمَّرْ لأنَّهُ أكبرُ من السماواتِ والأرض. احذري على أيِّ حالٍ فإنَّهـا تهـدِّدُ بتقطيـعِ أوصالِنا!"

"هذا أعظمُ دليلٍ على أنَّها تحبُّكَ!"

"المحبُّ الحقُّ لا يمزِّقُ حبيبَه. ينشقُّ قلبُهُ أسىً، لكنَّهُ لا ينتقم"

"ضعْ نفسَكَ مكانَهـا: مـاذا لـوْ اكتـشفتَ علـى حـسابِها محادثـاتٍ مثـلَ محادثاتِنا؟"

"ليسَ بوسعي أنْ أضعَ نفسي في ذلكَ الموقفِ لأنِّـي أمقتُهـا، ولـوْ اكتـشفتُ

على حسابِها محادثاتٍ غراميَّةً لنْ تهتزَّ في رأسي شعرة"

"منطقُكَ مخيفٌ، كيفَ تكرهُ امرأةً أحببتَها إلى حدِّ اختيارِها شريكةَ حياة؟!"

"هذا من أسهلِ الأمورِ ويحدثُ في كلِّ الزيجات.. لكنِّي سأضعُ نفسي مكانَها: سوفُ أصبحُ الزوجةَ المُحبَّةَ المطعونةَ التي تدَّعيها. سوفَ أسألُ زوجي الذي أحبُّهُ إنْ كانَ خانَني، وإذا أنكرَ سوفَ أصدِّقُهُ، ثم أتفانى بعدَ ذلكَ كيْلا أفقدَهُ ثانيةً. سوفَ أصدِّقُ لأنَّ المُحبَّ الحقَّ يلتمسُ لحبيبِهِ الأعذارَ ويريدُ أنْ يعذرَه. لكنَّ المسألةَ ليستْ حبًّا بلْ شركةً تنهار"

"لا ليستْ شركةً، لا تقلْ هذا الكلام!"

"تخيَّلي أنِّي مُتُّ اليومَ، أتحسبينَ أنَّ زوجتي وأبنائي سيُفجعون؟ يقينًا لنْ يُفجعَ أحدٌ، وعلى الأرجحِ لنْ يحزنَ أحد. لقد تدرَّبتْ زوجتي طويلًا على أنَّها أرملةٌ، وأبنائي على أنَّهم أيتام. أتدركينَ أنَّني لمْ أشهد طفولةَ أيٍّ من أبنائي، ونصفُهم لمْ أشهدْ ميلادَهم؟ لذا سوفَ أمضي يقينًا غيرَ مأسوفٍ عليَّ. سوفَ يتحسَّرونَ كلُّهم بالطبعِ على انقطاعِ تمويلِهم!"

"لا تقلْ هذا الكلام!"

"ثم تخيَّلي زوجًا وأبًّا أنانيًّا ظلَّ مع زوجتِهِ وأطفالِهِ ولمْ ينفِ نفسَهُ من

أجلِهم. لمْ يرحل. بقيَ كيْ يستمتعَ بامرأتِهِ جنسيًّا وبأبنائهِ عاطفيًّا، حتَّى لـوْ ماتوا جوعًا وحُرِموا من كلِّ شيء. ربُّ الأسـرةِ ذاكَ سـوفَ تُفجـعُ بـهِ أسـرتُهُ لأنَّها لمْ تعتدْ غيابَهُ ولمْ تتعلَّمْ العيشَ بدونِه. أليستْ المُفارَقةُ مُبكِيَةٌ؟"

"بلْ مُخزِيَةٌ!"

ملأتْ الـدموعُ عـينيْ حيـاةَ فبـادرتْ بتجفيفِهـا كأنَّهـا تزيـلُ آثـارَ جُـرمٍ اقترفتْه. لمْ تبكِ أمامَهُ من قبلُ حتَّى ظنَّ أنَّها تَمثالٌ مرمريٌّ حقيقةً لا مجازًا.

"لمْ أركِ قطُّ تبكينَ، وتوهَّمتُ أنَّ عينيْكِ بلا غُددٍ دَمعيَّة!"

"لا أبكي إلَّا حينَ أختلي بنفسي، ويندُرُ أنْ أحظى بهذا الترف"

"هلْ بكيتِ يومًا عليَّ؟"

"أجلْ بكيْتُ.."

"لِمَ تبكينَ الآنَ، ألسنا معًا؟"

"أكتئبُ أحيانًا دونَ سبب.."

"قبلَ أنْ أحبَّكِ كنتُ أبكي دائمًا وأنا وحدي"

"حَسِبتُكَ لا تبكي إلَّا شوقًا إليَّ!"

"ذلكَ البكاءُ كانَ قبلَكِ"

"تبكي حبيبتَكَ التي سبقتْني، والتي انتحرتْ غيْظًا منك؟"

"أبكي أمِّي.."

ارتعشتْ شفتاه. سادَ صمتٌ طويلٌ، وبدا أنَّهُ سوفَ يُحجِمُ عن الخـوضِ في تلكَ السيرةِ، لكنَّ حياةَ ربتتْ على ظهرِ يدِهِ فتمالكَ نفسَهُ واستطردَ:

"هلْ ذكرتُ لكِ أنَّ أمِّي ماتتْ وأنا في هذا البلد؟ ماتتْ في أولى سنينِ سفري. شُخِّصتْ بـسرطانِ البانكريـاسِ، وأخـبرتْني أخـتي، وأنـا أعلـمُ أنَّ سـرطانَ البانكرياسِ قاتلٌ سريعٌ، لكنِّي قلتُ لنفسي مهما كانَ سريعًا لنْ يقتلَها إلَّا بعدَ بضعةِ شهورٍ، ولا داعي لطلبِ إجازةٍ اضطراريَّةٍ لأنَّ

إجازتي الطبيعيَّةَ بعدَ شهر. كانت أولى سنينِ سفري كمـا قلـتُ لـكِ، ولمْ أشأ إعطاءَ انطباعٍ سيِّءٍ من البداية. أمِّي أيـضًا ظلَّـتْ تطمئـنُني وتحـذِّرُني مـن العودةِ المبكِّرةِ، وتقولُ: لا تصدِّقْ أختَكَ فهيَ تُهوِّل!.. تَوَانيْتُ قليلًا، ثم تمرَّدَ قلبي وأمرَني بـالعودةِ، لكنَّهـا ماتـتْ وأنـا أحـزِمُ حقيـبَتي، ماتـتْ في اليـومِ الخامسِ عشرَ لتشخيصِ مرضِها. فَتَكَ سرطانُ البانكرياس بهـا في أسـبوعيْنِ، ودُفِنتْ يومَ موتِها دونَ أنْ أحـضرَ جِنازتَهـا. ثـمَّ لمْ أرَ معنـىً للعـودةِ بعـدَ أنْ ووريَتْ الثرى فبقيْت. لِمَ أعودُ، لأزورَ قبرَهـا، لأعتـذرَ؟ لقـدْ خـذلتُها وهـيَ حيَّةٌ، وما عادَ الاعتذارُ مُجدِيًا وهيَ ميِّتة"

"كُفَّ عن لومِ نفسِكَ فما كانَ بوسعِكَ أنْ تتنبَّأَ بتلكَ النهايةِ الخاطفة"

"كانت أولى سنواتِ سفري، وكنتُ أكلِّمُها كلَّ جمعةٍ، لعشرةِ شهورٍ ظلَّلتُ أكلِّمُها كلَّ جمعةٍ- كانَ الجمعةُ يومَها- ثم بعدَ رحيلِها ظلَّلتُ لشهورٍ أطلبُها كلَّ جمعةٍ، ولا أفيقُ إلَّا بعدَ أنْ يفصِلَ الخطُّ دونَ مُجيبٍ فاكتشفُ أنَّها ماتتْ ويخنقُني البكاء.. ثم تعوَّدتُ موتَها- بلْ نسيتُهُ ونسيتُها- لكنِّي ظلَّلتُ أبكي كلَّ جمعةٍ دونَ أنْ أفهمَ السبب!"

لَمَعَتْ الدموعُ في عيْنيْ حياةَ مُجدَّدًا..

"كفانا بكاءً، في لقائنا القادمِ لنْ نجلسَ في مطعمٍ ونبكيَ بلْ سوفَ أصطحبكِ إلى السينما وأقبِّلُكِ في الظلام"

"ولماذا السينما؟"

"القبلُ في السينما لها طعمُ الخطرِ وهوَ ألذُّ طعم"

"حينَ ألقاكَ لنْ أدعكَ تأخذُني إلى أيِّ مكان. لنْ نبرحَ البيت"

"لكنْ ماذا لوْ رغِبتُ في مُعاشرتِك؟"

أجابتْ دونَ لحظةِ تردُّدٍ:

"سأُعاشِرُك!"

"رَغْمَ تَوْبتِك؟!"

"أَجَلْ!.."

* * *

الطاولاتُ في الوسطِ والمطاعمُ تحيطُ بها. بطهيها الذي ينبعثُ منهُ البخارُ- والمعروضِ في أوانٍ معدِنيَّةٍ مستطيلةٍ غيرِ قابلةٍ للصدأِ- تطوِّقكَ المطاعمُ من كلِّ الجهاتِ كيْلا تُبصِرَ سِواها أيْنما ولَّيْتَ وجهَك. الوجباتُ المتنوِّعةُ فاقعةُ الألوانِ، نفَّاذةُ الروائحِ، وفيرةٌ كأنَّ الجوعَ ليسَ من هذا العالمِ، والطريفُ أنَّهُ ما زالَ بوسعِكَ رغمَ زحامِ الروائحِ الفاغمةِ أنْ تميِّزَ كلَّ رائحةٍ على حدةٍ مع تداخلٍ طفيفٍ فيما بينَها. بوسعِكَ أنْ تُغمضَ عينيْكَ وبرغمِ ذلكَ تُقْسِمُ على وجودِ كاري هنديٍّ، وإوزٍ صينيٍّ، وتكَّةٍ مغوليَّةٍ، وكبسةٍ خليجيَّةٍ، وكُسكُسٍ مغربيٍّ، ولازانيا إيطاليَّةٍ، وملوخيَّةٍ مصريَّةٍ.

ماكدونالد وكنتاكي وبيتزاهَت وشاورمار حاضرون دائمًا لِمَنْ أراد. الأطفالُ بالطبعِ يريدونَ- والمراهقونَ- مع كولا عملاقةٍ، أمَّا الآباءُ فيفضِّلونَ وجباتٍ حقيقيَّةً لذا يسودُ الشِواءُ على الفحمِ، وما يصحبُهُ من أرزٍ أصفرَ فاقعٍ أوْ بطاطسَ ذهبيَّةٍ، ولا غنى بالطبعِ عن السلطاتِ والمُقبِّلاتِ من الطحينةِ إلى الكولسلو، ومن المكدوشِ الشاميِّ المكتظِّ بعينِ الجملِ إلى ورقِ العنبِ المحشوِّ أرزًا وريحانَ، والمُشْبَعِ بعصيرِ الليْمونِ على الطريقةِ الإيطاليَّة.

تتسِمُ المآدبُ العامةُ بطابَعٍ احتفالي. الأكلُ في جماعةٍ مثلُ الصلاةِ في جماعةٍ، كلاهما يسمو فوقَ الطقسِ الذي يمارسُهُ الفردُ في عزلة. أنْ ترى المئاتِ

يأكلونَ من حولِكَ وأنتَ تأكـلُ يحـوِّلُ الوجبـةَ العاديَّـةَ إلى وليمـةٍ مَلَكيَّـةٍ، إلى عيدٍ، إلى عُرس.

حملَ إلى طاولتِهما كلَّ ما وجدَهُ أمامَـهُ واستطاعَ حملَـهُ، شاعرًا بـذنبٍ لافتقارهِ إلى ذراعٍ ثالثةٍ ورابعةٍ، لا عن نهـمٍ– فقد ظلَّـتْ المطاعمُ أمامَ عينيْـهِ سنينَ ولمْ يخطرْ ببالِـهِ أنْ يزورَهـا– وإنَّمـا الفرحـةُ الغـامرةُ تـشحَذُ الـشهيَّةَ وتوهَمُ السعيدَ بأنَّهُ سوفَ يلتهمُ بقرةً أوْ شجرة. ذهـبَ إلى المطـاعمِ وعـادَ عـدَّةَ مرَّاتٍ، وحياةُ تصرخُ ضاحكةً: كفى! كفى! أعِدْهم! أعِدْهم!

شبِعَ في لحظةٍ رغمَ أنَّ الطعمَ رائعٌ في فمِهِ لا بفضلِ الطهاةِ– الطهاةُ عاديِّونَ أوْ أقلُّ مـن عـاديِّين– بـلْ بفضلِ حـضرةِ معـشوقتِه. الطعـامُ مُتبَّـلٌ بعينيْهـا، بابتسامتِها، بصوتِها، بأنفاسِها. حياةُ أيـضًا شـبعتْ في اللحظـةِ ذاتِهـا. ظـلَّ يستحثُّها أنْ تأكلَ وتـستحثُّه. قالـتْ: لمْ تمـسّ الطعـام. لا بُـدَّ مـن أنْ تـشبعَ فأمامَـكَ رحلـةٌ طويلـةٌ، وهـوَ يقـسمُ أنَّـهُ شـبع. فـشلتْ محاولاتُهـا لإقناعِـهِ ومحاولاتُهُ لإقناعِها، أشبعَ كلًّا منهما نظرُهُ إلى صاحبه.

"ألمْ تندمْ على حبِّي بعدَ كلِّ تلكَ الأعاصير؟"

"لمْ يعرفْ الندمُ طريقًا إلى قلبي، لوْ أنَّكِ امرأةُ أبي ما ندِمتُ!"

"ما زلتَ سافلًا!"

"أتؤمنينَ حقًّا بأنَّ علاقتَنا عبثيَّة!؟"

"قلتُ ما قلتُ بفعلِ الغضبِ فبوسعِكَ أنْ تجعلَ الحليمَ يُجَنُّ، لكنِّي لمْ أفكِّرْ يومًا في أنْ أهجرَكَ"

"هذا أروعُ خبرٍ في العمر!"

"أنَّكَ تجعلُ الحليمَ يُجَنُّ؟"

"أنَّكِ لمْ تفكري في هَجري"

"للأسفِ ليسَ بوِسعي!"

"ولِمَ الأسفُ؟ لوْ هجرتِني لنْ يكونَ لي حبيبٌ في الوجود"

"صَدَقتَ، منَ المستحيلِ أنْ يحبَّكَ أحدٌ فأنتَ لا تُطاق!"

"لقد احتملتِ ما لا يُطيقُهُ بشرٌ!"

"لمْ أكنْ ملاكًا.."

"لستُ غاضبًا مهما عساهُ حَدَثَ.."

"مهما حَدَثَ، لا أفهمُ ألغازَك؟!"

"لا يُهِمُّ إنْ كنتِ خنتِني.."

انتزعتْ عينيْها من عينيْه..

يقولُ الشيءَ موقنًا بأنَّهُ سيجعلُهُ مَقيتًا، وبرغمِ ذلكَ يقولُه.

"حياةُ: في غيابي أوْ وجودي- بي أوْ بدوني- لا بُدَّ من أنْ تُطلَّقي!"

"لا قِبَلَ لي بصِراعٍ، ألمْ تسمعْ بالقضايا التي تدومُ عشراتِ السنين؟"

"مَا دُمْتِ تعِسةً لا بُدَّ من أنْ تُطلَّقي"

"لكنْ ابنتي.."

"حتَّى لوْ أخذَ ابنتَك!"

* * *

مُودِّعًا رَجاها:

"لا تنسيني!"

اعترضتْ:

"هلْ نسيتُك ولوْ مرَّة؟!"

"هذهِ أهمُّ مرَّةٍ.."

"لديَّ اعترافٌ أخيرٌ.."

"رِفقًا بي، كَفاني اعترافاتٍ!"

"ليسَ كما تظنُّ.. لمْ أخبرْكَ بالحقيقةِ كلِّها حينَ سألتَني: لِمَ عُدْتِ؟ أجَـلْ شوقي إلى قربِكَ أعادَني، لكنْ.. ليسَ الشوقَ وحدَه. مَنْ يسافرْ ولوْ مـرَّةً تُـصِبْه

طفرةٌ تحوِّلُهْ من سمكةِ أنهارٍ إلى سمكةِ بحارٍ!"

"ويودِّعُ سلامَ الروحِ إلى الأبد!"

"الأمرُ يستحقُّ أيَّ تضحية"

* * *

عادَ إلى البرجِ بعدَ أنْ ودَّعَ حياة. جلسَ في المقهى الذي كانا فيهِ، إلى نفسِ المنضدةِ، أمامَ نفسِ الكرسيِّ، كرسيِّها. سكينةٌ مخدِّرَةٌ شملتْهُ كأنَّهُ مضطجعٌ في ساونا، والحاضرُ بخارٌ يحتويهِ ويحجبُ عنهُ الماضي والمستقبلَ اللذيْنِ لمْ تعدْ لديْهِ أدنى رغبةٍ في الوعيِ بوجودِهما. لدقائقَ أفلحَ في ألَّا يفكرَ في أيِّ شيءٍ، حتَّى في حياة. يا للصفاءِ، للمرَّةِ الأولى لا يفكِّرُ حتَّى فيها! لدقائقَ تحرَّرَ من أسرِ كلِّ شيءٍ، حتَّى الحبِّ. بوسعِهِ الآنَ أنْ يعودَ إلى الوطنِ ليعانقَ الموتَ بذراعيْن مفتوحيْن. مرَّة غيرَ هذهِ– مرَّةً واحدةً في العمرِ– على رملِ الشاطئِ، بعدَ ساعاتٍ في الماءِ، والريحُ المجنونةُ تمنحُهُ قبلةَ حياةٍ وحشيَّةً تكادُ تمزِّقُ رئتيْهِ، كفَّ مُخُّهُ عن عملياتِهِ المنطقيَّةِ والحسابيَّة. لمْ تعكِّرْ صفوَهُ أيُّ لمحةٍ من ماضيهِ، أوْ أيُّ وَهْمٍ عن مستقبلِه.

ظلَّ ذاهلًا، وبالكادِ يعي مَنْ يكون. لوْ دخَّنَ سيجارةَ حشيشٍ لنْ يحسَّ بهذهِ النشوة. يا لنعمةِ الذهول! مَكثَ جامدًا في كرسيِّهِ وابتسامةٌ سَكرى تتراقصُ فوقَ شفتيْهِ، والناسُ من حولِهِ– رجالًا ونساءً وأطفالًا في المدينةِ التي

جمعتْ كلَّ الأجناسِ- يلتهِمونَ ألوانَ الطعامِ المجلوبةِ من كلِّ بقاعِ الأرض. الناسُ يأكلونَ كلَّ شيءٍ وأيَّ شيءٍ، كلَّ ما يخطرُ ولا يخطرُ ببال. يفرحونَ ويأسونَ، ويرضَوْن ويُحنَقونَ دونَ أنْ يخطرَ لهم البحثُ عنْ مبررٍ أوْ تفسيرٍ لمشاعرِهم. الكلُّ منغمسونَ في الحياةِ، متَّحدونَ بها، متناغمونَ معها، مُصدِّقينَ لها، إلَّاه. لِمَ يبتسمُ الناسُ لأنَّهم سعداءُ؟ ولِمَ يضحكونَ لشيءٍ طريف؟ لِمَ يبكونَ لأنَّهم حزانى؟ ولِمَ يئنُّونَ حينَ يتألَّمون؟ من أينَ يأتي الضحكُ، ومن أينَ يأتي البكاء؟ باركَ في نفسِهِ فرحَ مَنْ حولَهُ وبراءَتَهم. إيمانَهم بأنَّ الوجودَ شائقٌ وممتعٌ. شعورُكَ بأنَّكَ موجودٌ- ولستَ معدومًا- لذيذ. كلُّ نَفَسٍ لذيذ. كلُّ لحظةِ وعيٍ لَذَّة. معَ العمرِ سوفَ تشيخُ حواسُهم وتُعتِمُ، ويستعيضُ الطيِّبونَ منهم عن مُتَعِ الحِسِّ بمُتَعٍ تُستَشعَرُ بلا حَوَاسٍ كالتأمُّلِ والتديُّنِ وإسباغِ معنى على وجودِ سلبَهم كلَّ شيءٍ حتَّى الحواس. لكنَّهُ لنْ يلجأَ إلى تلكَ المتعِ الاضطراريَّةِ ليقينِهِ بأنَّهُ لنْ يقتنعَ أوْ يُصدِّق.

ماذا يقولُ العشَّاقُ في لحظاتِ الرضا والصفاء؟ يقولونَ: لا حياةَ بدونك! يقولونَ: أنتَ الوجود! يقولونَ: لا أطيقُ فراقَكَ لحظة! ثمَّ- حينَ يجرعونَ الفراقَ ولا يموتونَ- يتوهَّمونَ أنَّهُ يُطاقُ أطولَ من لحظة. وحينَ يُجدبُ وجودُهم من العِشقِ- ولا يهلكونَ- يظنُّونَ أنَّهم يوجدونَ وهم لا يوجدونَ، لأنَّ الوجودَ ليسَ سِوى قطرةٍ في بحرِ العشق. لنْ يكفَّ أبدًا عن حبِّ حياة. إنَّهُ

موجودٌ بهذا الحبِّ. سوفَ يحبُّها مهما صارتْ إليْهِ الأمور. غيرَ أنَّ تلكَ اللحظةَ – حينَ هرولتْ إليْهِ مفتوحةَ الذراعيْنِ عبرَ ساحةِ الصرحِ الغاصةِ بالتائبينَ– هيَ أعظمُ ما في تاريخِ حبِّهما، هيَ الذروةُ، ولا بُدَّ من أنْ تخلُدَ بوصفِها النهايةَ السعيدة. ما ينبغي أنْ يأتيَ من بعدِها ما يعكِّرُ صفوَها، أوْ يقدحُ في اليقينِ الذي يملأُ صدرَهُ الآنَ بأنَّ حياةَ تحبُّهُ ولا تحبُّ سِواه. لنْ يدعَ هذا الحبَّ يُختَمُ بانكسارِ القلب. حَقٌّ مَنْ كَتَبَ بِمِسْكٍ أنْ يَخْتِمَ بِعَنْبَرٍ. مرَّةً فريدةً في الدهرِ حبٌّ يُختَمُ بفرحٍ، لا بانكسارِ قلب. من الحكمةِ أنْ يطويَ الصفحةَ الأخيرةَ على تلكَ النهايةِ ذاتِ المعنى، لا على نهايةٍ عبثيَّةٍ قدْ تفرضُ نفسَها لوْ طلبَ المزيد. من الحكمةِ أنْ يدَّخِرَ تلكَ اللحظةَ، وألَّا يجترَ سِواها من الآنَ وإلى أنْ يغيبَ الوعي.

كانَ مع أسرتِه في قاربِ صيدٍ بالبحرِ، وأراهُ ابنُهُ الأصغرُ سمكةً طويلةً صادَها مُبديًا رغبتَهُ في إعادتِها إلى البحرِ لأنَّها ممتلئةٌ بعُنقودِ بيْضٍ، وقتلُها بمثابةِ مذبحةٍ، بلْ أخبرَ أباهُ أيضًا في تلكَ اللحظةِ بنيَّتِهِ أنْ يصيرَ نباتيًّا. كانت سمكةُ الخِرمانِ الطويلةُ ذاتُ الفمِ المُدَبَّبِ تتلَّوى بعنفٍ وقدْ انبثقَ بعضُ البيضِ الأصفرِ بالفعلِ من مؤخَّرتِها. خاطِرُهُ الأوَّلُ كانَ أنَ يدعَ الفتى يطلقُها، لكنَّهُ خشى أنْ يصنعَ من الفتى حالمًا مرتعشًا لوْ باركَ رِقَّتَه. اشمئزَّ أيضًا من قرارَ ابنِهِ أنْ يصيرَ نباتيًّا لا لشيءٍ سِوى لأنَّ سمكةً حُبلى بالبيضِ على وشْكِ

أنْ تُقتلَ: مشهدٌ تكرَّرَ مرَّاتٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصى منذُ خَلْقِ البحرِ.

"كلَّا، لا تُعدْها.. سوفَ آكلُها.. أعشقُ بيْضَ السمك.. الكافيارُ بيْضُ سمكٍ.. السمكُ يأكلُ السمكَ

ببيْضِه. حتَّى بعدَ فَقْسِ البيْضِ تُلتَهمُ أكثرُ الزرِّيعةِ ولا تبقى.. النباتيُّونَ أنفسُهم يزهِقونَ الحياةَ

لأنَّ النباتَ حي.. قانونُ الوجودِ أنْ نأكلَ ثم نُؤكَلُ لأنَّ حجمَ مادةِ الكونِ ثابتٌ والأحياءُ وغيرُ الأحياءِ يتبادلونَ التجسُّدَ في المادةِ، الأحياءُ بالذاتِ يتخاطفونَ المادةَ كيْ يتجسَّدوا من خلالِها دونَ أنْ يُفلحَ حيٌّ في الاستيلاءِ عليْها أبديًّا. الأمرُ أشبهُ بلُعبةِ الكراسي الموسيقيَّةِ: الكراسي هيَ المادةُ، والأرواحُ الأطفال"

ليْتَهُ تركَ الفتى يُطلقُ السمكةَ!..

رَغمَ أنَّهُ لمْ يجدِّدْ توبتَهُ في الصَرْحِ، دخلَ دكَّانَ حلَّاقٍ وحلقَ شعرَ رأسِهِ مثلما يفعلُ التائبون. أرادَ لبعضٍ منهُ أنْ يظلَّ في المدينةِ التي تضمُّ حياةَ، وتضمُّ الكوْن.

غادرَ المدينةَ المقدَّسةَ في الغروبِ والشمسُ تهبطُ بيْنَ الجبالِ في عجلةٍ. حينَ سادَ الظلامُ واجهَهُ طريقانِ، أحدُهما المألوفُ الذي قدِمَ منهُ وسارَ مِرارًا عليْهِ،

والآخرُ لمْ يطأهُ من قبلُ ويتلوَّى صاعدًا فوقَ الجبل. الجبـلُ كلُّـهُ يلمـعُ بـأنوارٍ مُبْهِرَةٍ كشجرةِ عيدِ الميلاد. تردَّدَ لحظةً، ثم اختارَ أنْ يصعدَ طريـقَ الجبـلِ لا لأنَّهُ مُضاءٌ، بلْ لأنَّهُ لمْ يسلُكْ هذا الدربَ من قبل. تذكَّرَ ما يُروى عن خطـورةِ هذا الطريقِ، لكنَّهُ قالَ لنفسِهِ إنَّ من العـارِ أنْ يجـبُنَ أوْ يتبلبـلَ لأنَّ الآخـرينَ جَبُنوا أوْ تبلبلوا. ما دامَ المرءُ قدْ بلغَ سفحَ الجبلِ عليهِ ألَّا يتراجعَ. أنشدَ:

وَدَمْدَمَتِ الرِيحُ بَيْنَ الفِجَاجِ
وَفَـوْقَ الجِبَـالِ وَتَحْـتَ الشَجَـرْ:
إذا مَا طَمَحْتُ إلى غَايَـــةٍ
رَكِبْــتُ المُنَــى وَنَسِـيتُ الحَــذَرْ
وَمَنْ لَا يُحِبُّ صُعُودَ الجِبَالِ
يَعِشْ أَبَدَ الدَهْرِ بَيْنَ الحُفَرْ

لأوَّلِ مرةٍ يستنشقُ نسيمَ الجبالِ الذي يتحاكى الناسُ بـه. نـسيمُ الجبـالِ حبيب. كلَّما صعدتَ رقَّ الهواءُ وبَرَدَ، صارَ عليلًا حقًّا. تشهَقُ في دهـشةٍ منـه. يرسمُ بسمةً فوقَ شفتيْكَ وفي عينيْك. الحواسُ ليستْ خمسًا فقطْ، هناكَ حاسـةُ تنفُّسٍ ليستْ جزءًا من الشمِّ، حاسةُ التلذُّذِ بامتلاءِ الصدرِ بنـسيمٍ فخـمٍ نقـي. هواءٌ لا تشوبُهُ شائبةٌ. الهواءُ الذي خلقَهَ اللهُ لا هواءُ المدنِ الذي نحسبُهُ هواءً

وما هوَ إلَّا غازٌ سامٌ مِمَا يُقتلُ بهِ في حجراتِ الإعدام. هواءُ اللهِ ممتعٌ، وتنفُّسُهُ في حدِّ ذاتِهِ نعمةً.

فوقَ الجبلِ مدينةٌ زاهرةٌ، لا ليلَ يحتويها لتمرُّدِها على الليلِ، وَضَّاءةٌ بملايينِ المصابيحِ المتألِّقة. هواؤها نسيمُ الجنَّةِ: باردٌ في عزِّ الصيف. نَصَبَ ناسُها خيامَهم قربَ شَفا الجبلِ بينَ الغمائمِ البيضِ وسهروا يتسامرون. وجدَ حيًّا بأسرهِ خُصِّصَ للملاهي. حدائقَ تتلألأُ المصابيحُ التي تزينُ أراجيحَها بأبهجِ الألوانِ، وكلُّ حديقةٍ أرحبُ من أختِها كأنَّ أهلَ المدينةِ لا يفعلونَ شيئًا سِوى اللهو. كأنَّهم جميعًا أطفال.

بعدَ تَجوالِ ساعةٍ قرَّرَ استئنافَ السفرِ، لكنَّهُ لمْ يعثرْ على مَخرج. ظلَّ يدورُ ويدورُ على غيرِ هدى عائدًا في كلِّ مرَّةٍ إلى نفسِ المكانِ حيثُ الملاهي. تاهَ وتاه. غيرَ أنَّ التيهَ لم يُخِفْهُ، فالتيهُ في الجنَّةِ لا يخيفُ إذْ لا يشعرُ المرءُ فيها سِوى بالسَكِينةِ: كلَّ المشاعرِ تنبعُ وتصبُّ فيها.

وما أنْ وجدَ المخرجَ ومضى في الطريقِ الهابطِ حلزونيًّا حولَ الجبلِ حتَّى زلزلَهُ دويٌّ مفزعٌ أدركَ من خبراتِهِ الماضيةِ أنَّهُ رعدٌ عظيم. انهمرتْ الأمطارُ واجتاحتْ السيولُ الأرضَ وغمرتْ الطرقاتِ مُجدَّدًا، فعلتْ ذلكَ فجأةً وفي لحظةٍ كأنَّها كَمَنَتْ متربِّصةً بهِ لتدهمَهُ وتقطعَ عليْهِ دربَ الإياب. انطفأتْ

ملايينُ المصابيحِ التي كانت متوهِّجةً فوثبَ الليلُ على المدينةِ ونهشَها بأنيابِهِ في تَشَفٍّ جزاءَ تمرُّدِها عليْه. اختفى المشهدُ البهيجُ برُمَّتِه. ابتلعَهُ ظلام. اختفتْ الشجيراتُ والأزهارُ. اختفى السامرونَ واختفتْ الخيامُ. انقشعَ الكِساءُ الحيويُّ الذي كسا الأرض. حتَّى الجذورُ اقتُلِعتْ. جُرِفَ كلُّ شيءٍ– حتَّى الصخورُ والأحجارُ– إلى حيثُ لنْ يعلمَ أحد. ظلَّ يقاومُ الانجرافَ وعجلةُ القيادةِ لا تقودُ، والسيلُ ينحدِرُ بجبروتٍ من قمَّةِ الجبلِ نحوَ سَفْحِهِ مُصِرًّا على أنْ يجرفَهُ معَه. سوفَ تبكيهِ حياةٌ لوْ غلبَهُ السيلُ ومضى بهِ كما يسوقُ جيشٌ غالبٌ أسراهُ المُسترَقِّين.

حَمَلَ السيلُ السيَّارةَ ومضى بها، ثمَّ– لأنَّ طريقَ الجبلِ حلزونيٌّ– أسفرَ الانجرافُ في لحظةٍ مَا عن الإطاحةِ بالسيَّارةِ من فوقِ الجبلِ، إلى الفراغِ، في الظلامِ، نحوَ الهُوَّةِ. ذكرياتُ عمرِهِ صُبَّتْ في خلَّاطٍ راحَ يخفِقُها فامتزجتْ– لا زمانيًّا ولا مكانيًّا بلْ كالفُسيفِساءِ– فيرى وجهًا يدركُ أنَّهُ يعرفُهُ لكنَّهُ لا يعثرُ لهُ على جسمٍ أوْ اسمٍ، ويُبصرُ بيتًا يدركُ أنَّهُ زارَهُ أوْ عاشَ فيهِ لكنَّهُ يبصرُهُ معلَّقًا في السَحاب. مشاهدُ متداخلةٌ يبتسِرُ بعضُها بعضًا فتحرِقُ قلبَهُ الحسرةُ لأنَّ الفوضى بعثرتْ تاريخَ عمرِهِ وشوَّهتْهُ فمُسِخَ كلُّ شيءٍ حتَّى أعزِّ الذكريات.

رَغم يقينِهِ بأنَّهُ الآنَ في الفراغِ وفي هذهِ السقطةِ هلاكُهُ، لمْ يُذعرْ، بلْ لمْ

ينزعجْ على أيِّ نحوٍ.

لمْ يؤمنْ قطُّ بأنَّ ذُعرَ الموتِ غريزةٌ أصيلةٌ، بلْ خديعةٌ لقَّنتْها الأجيالُ للأجيالِ كيْلا يتمرَّدَ أحدٌ على عبوديتِه. لا ذُعرَ، ولا حسرةَ. اكتفى بمَطِّ شفتِهِ السفلى إلى الأمامِ امتِعاضًا من هذا الغدر. نادَتْهُ امرأةٌ باسمِهِ، غيرَ أنَّهُ لمْ يُمَيِّزْ مَنْ.

(تمَّتْ)